الكلمات المحكمات

تأليف

سماحة آية الله العلامة والحجة الكبير

الحاج ميرزا علي الحائري قدس سره

طبع بأمر وإشراف

الحكيم الإلهي والفقيه الرباني
المولى الحاج ميرزا عبد الله الحائري الإحقاقي
دام ظله العالي

مكتبة العذراء
دولة الكويت - بنيد القار - ٢٥١٨١٧٠


الكلمات المحكمات





الحكيم الإلهي والفرد الصمداني العالم العامل الآغا الميرزا

علي بن الميرزا موسى الحائري الإحقاقي (قدس)

١٣٠٥ـ ١٣٨٦هـ

الطبعة الرابعة
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

مكتبة العذراء
دولة الكويت - بنيد القار - ت: ٢٥١٨١٧٠



الحكيمُ الإلهيُ والفردُ الصمدانيُ العالمُ العاملُ الآغا الميرزا عليُ بنُ الميرزا موسى الحائريُ الإحقاقيُ (قدس)

ترجمة حياة المؤلف

(١٣٠٥ ـ ١٣٨٦ هـ)

الموافـــق

(١٨٨٩ ـ ١٩٦٧ م)


بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

مدخل الى حياة المؤلف

هو العالم الجليل الحكيم الفقيه المجتهد الحجة الثبت الخطيب الكاتب الذاكر العابد، أبو جعفر علي بن موسى بن محمد باقر الحائري ابن محمد سليم الاسكوئي قدّس الله أسرارهم. والحائري نسبة الى الحائر اسم من أسماء كربلاء، والاسكوئي نسبة الى قرية في أذربيجان الايرانية من أعمال تبريز. وكان جده ملا محمد سليم من قرية في أذربيجان أيضاً يقال لها قرجة داغ، أي الجبل الأسود، ولد فيها ونشأ في ربوعها ودرس على شيوخها، وتزوج هناك سيدة أنجبت له ابنه العلامة الكبير ميرزا محمد باقر الحائري جد المؤلف رحمه الله، وكانت هذه السيدة علوية يرتقي نسبها الى الامام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ومن هنا فقد كان يسبق اسم المؤلف واسم أبيه وجده كلمة «ميرزا» تعظيماً لهم وإجلالاً لقدرهم باتصال نسبهم من طرف الأم الى الامام زين العابدين، وهي كلمة فارسية تعني في الأصل

«ابن الأمير» ثم صارت لقباً لكل من ينتسب من جهة الأم الى أهل البيت عليهم السلام، فان اتصل نسبه اليهم من طرف الأب أو الأبوين فهو حينئذٍ «سيد».

وكان ملا محمد سليم هذا قد خرج من قريته قرجة داغ مهاجراً يريد النجف الأشرف لتحصيل العلوم الدينية فيها، وكانت أوسكو تقع في الطريق الى مهاجرة، فلما مر بها هاله ان يراها ليس فيها عالم يرشد أهلها ويعينهم على معرفة أمور دينهم وشؤون آخرتهم، وقد تعلق به أهلها أشد التعلق، فآثر المقام بها عندهم وصارت هجرته اليها بينهم استجابة لأمر الله تعالى في وجوب الإرشاد والإنذار، فأقام هو منذ ذلك الحين بأوسكو وكيلاً عن العلامة الكبير حجة الاسلام ملا محمد الممقاني الذي كان هلاك محمد علي الباب على يديه في تبريز، ثم أرسل بدلاً عنه ابنه ميرزا محمد باقر الى النجف لاستكمال دروسه في الفقه والأصول والحكمة الالهية، وكان ذلك في حوالي سنة ١٢٥٥ هـ، وعمره حينذاك قريب من خمس وعشرين سنة.

وكان ميرزا محمد باقر قد درس السطوح والمتون على خاليه السيد سليمان الأعرجي والسيد محمد الأعرجي في قرجة داغ، وكانا من أهل الفضل والعلم في أذربيجان. والأعرجي نسبة الى بيت من البيوتات النبوية الحسينية الشريفة، إشتهر كثير من أفراده بالعلم والفضل فجمعوا بذلك شرف النسب الى كرم الحسب، وعميدهم في ذلك السيد المرتضى عميد الدين عبد المطلب ابن السيد مجد الدين بن أبي الفوارس محمد بن علي بن أعرج الحسيني الحلي العبيدلي استاذ الشهيد الأول شمس الدين محمد بن جمال الدين بن مكي العاملي قدس الله

اسرارهم، والمؤلف رحمه الله تعالى يروي عنه ضمن سلسلة الرواة الذين يروي عنهم في إجازاته التي حصل عليها من شيوخه.

ولد المترجم له قدّس الله تربته في النجف الأشرف أيام دراسة والده هناك بعد مضي ساعة ونصف من الليلة السابعة والعشرين من شهر صفر من السنة ١٣٠٥ هـ، ونشأ وترعرع في كربلاء واستكمل دراسته في النجف ثم انتقل بين عدد من البلدان وقدم الى الكويت لأول مرة حوالي السنة ١٩١٦م، وفي الكويت أيضاً لبى نداء ربه في الليلة السابعة والعشرين من رمضان من السنة ١٣٨٦هـ، وعلى هذا فانه يكون قدر عمره رحمه الله قريباً من ثمانين سنة وخمسة أشهر حسب التقويم القمري وحوالي ثمان وسبعين سنة حسب التقويم الشمسي، وكانت وفاته حسب التقويم الشمسي مساء اليوم السادس من يناير من السنة ١٩٦٧م وميلاده في أخريات يناير من السنة ١٨٨٩م.

ومن الصدف العجيبة أن يكون هناك تشابه بين وفاة المؤلف وميلاده من حيث الزمان والمكان، فمن حيث الزمان ولد وتوفي في ليلة السبت خلال الثلث الأول من الليل لأربع بقين من شهري الولادة صفر والوفاة رمضان، وصفر ورمضان كلاهما من شهور العبادة والسمو الروحي ومن مواسم إقامة المآتم الحسينية، ومن حيث المكان ولد وتوفي في حمى امام فقد ولد في ربوع أمير المؤمنين عليه السلام في النجف وكان احتضاره في الحسينية العباسية بيت من بيوت الامام الحسين عليه السلام، وبذلك يكون المؤلف رحمه الله قد أهل مولوداً في حمى إمام معصوم وأفل محموداً في كنف إمام معصوم، وتلك حياة فاتحتها مسك وختامها مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

(٢)
مرحلة الدراسة الابتدائية والسطوح

كان المؤلف رحمه الله مولوداً محظوظاً عند أبيه أثيراً لديه محبوباً ميموناً مباركاً في نظر والده، ربما لأنه كان باكورة الخلف في اسرته الصغيرة حينذاك، لكن السبب الأقوى لما لاقاه من أثرة ورعاية هو ما رآه فيه أبوه من علامات النبوغ المبكر وما توسم في جبينه من آثار النجابة والأصالة المميزتين. فانكب والده لذلك على تربيته وتنشئته تربية دينية وتنشئة علمية على غرار ما تلقاه هو من أبيه وما تلقاه أبوه من جده قدس الله تربتهم الزكية. فقد كان من التقليد ان تعنى البيوتات العلمية ذات العادات العريقة بتربية أولادها وهم لا يزالون في السنوات الأولى من أعمارهم، وجرياً على هذا التقليد فقد ادخل المؤلف رحمه الله الكتاتيب ومدارس الصغار لتعليم القرآن الكريم وهو لم يكن بعد قد بلغ الخامسة من عمره، فختم القرآن بأجزائه الثلاثين في مدى خمسة أشهر، وكان ذلك عند معلمة كانت دارها تقع بجوار دار الاسرة في كربلاء، ثم قرأ

بعض الكتب الفارسية بخطوطها المميزة بالتداخل والتعرج والالتواء والانحناء، كما درس مبادىء النحو بالكتب الفارسية والكتب العربية ثم أخذ يتوغل فيه من خلال الكتب العربية، كما درس مبادىء المنطق باللغة العربية كذلك، وقد قرأ ذلك كله على معلم انتدبه أبوه خاصة لتدريسه في البيت فأتم ذلك جميعه في فترةٍ قياسية. يحدثنا والد المترجم له أعلى الله مقامهما عن هذه الفترة من تعليمه فيقول في إجازته المطولة له «ولما بلغ سنه قريب الخمس سنين جعلته عند المرأة المعلمة التي كانت قرب دارنا لصغره فختم القرآن بحمد الله في ظرفية خمسة أشهر، ثم عينت له معلماً في الدار فأخذ المعلم في تعليمه بعض الكتب العجمية أولاً ثم بعض كتب الصرف العجمية والعربية ثم النحو من الأجرمية والقطر وابن الناظم ثم المنطق حاشية ملا عبدالله وغيره فكمل بحمد الله في هذه العلوم في أقل مدة».

ومما يجدر بالملاحظة ان المترجم له كان قد نشىء تنشئة رتيبة صارمة، كان البيت مأواه وملعبه ومدرسته أيضاً، ففيما عدا الأشهر الخمسة الأولى من سنوات الدراسة كان كل شيء في حياته يتم تحت نظر والده وبتوجيه منه مباشر، الكتب كان يختارها له أبوه ومعلمه هو الآخر كان من اختيار أبيه، ولك ان تتصور ان رفاقه في اللعب كانوا كذلك قلة مختارة من أترابه الصغار. إذن فقد نشأ المؤلف رحمه الله نشأة جادة صارمة صادقة لا غرور فيها ولا نفاق كل شيء فيها منظم دقيق، ولقد طبعت حياته على هذه الخصال في شبابه وكهولته وشيخوخته، حتى كان ينام وينهض ويتناول طعامه ويقرأ ويذاكر ويجالس الأصحاب والأقران ويؤدي الفرائض والنوافل وسائر الأنشطة

في مواعيد محددة بل ثابتة تقريباً. ولقد صاحبته كهلاً مثل ظله مدة خمس سنوات وسافرت معه فما رأيته يخرم موعداً من هذه المواعيد ولا يتخلف عن وقت من تلك المواقيت إلا في القليل النادر مما لا يكون له فيه يد ولا يملك له عنه خياراً.

وعلى ما تقدم، فقد أتم المؤلف المرحلة الأولى من حياته التعليمية بنجاح منقطع النظير، فبإشراف مباشر من أبيه، تعلم القراءة والكتابة، وأجاد التحدث باللغات العربية والفارسية والتركية التي كانت لغة الأسرة في البيت، ودرس مبادىء النحو والصرف والمنطق، وتسلح بالأخلاق الفاضلة، وقد تمَّ له كل ذلك وهو من أبناء العشر سنوات على ما تشير اليه الدلائل والقرائن التي أمكن الحصول عليها في هذا الشأن. ثم جاءت المرحلة الثانية من حياته التعليمية، مرحلة قراءة السطوح والمتون وتدبر الهوامش والشروح المدونة عليها، فقرأ المؤلف رحمه الله في هذه المرحلة التي استغرقت العقد الثاني من عمره الشريف على والده، فكان له المعلم القدير واكرم بهما معلماً وتلميذاً، قرأ عليه في النحو كتاب «المغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لمؤلفه محمد بن عبدالله بن يوسف بن هشام وقرأ عليه في المعاني والبيان والبديع كتاب «المطول» لمؤلفه سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني في شرح كتاب «المختصر» لمؤلفه عبد القادر الجرجاني وقرأ في المنطق كتاب «الشمسية» لمؤلفه عمر بن مفضل الابهري الزنجاني، وهو من الكتب المتقدمة في علم المنطق، وقرأ عليه في الأصول كتاب «معالم الدين في الأصول» لمؤلفه الحسن ابن الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي وكتاب «قوانين الأصول» لمؤلفه المحقق ميرزا أبي القاسم

القمي وكتاب «الرسائل في فرائد الأصول» لمؤلفه العلامة الشيخ مرتضى الأنصاري التستري، وقرأ عليه في الفقه كتاب «شرائع الاحكام» للمحقق الحلي وكتاب «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» لمؤلفيهما الشهيدين السعيدين محمد بن جمال الدين مكي العاملي وزين الدين الجبعي العاملي المعروفين بالشهيد الأول والشهيد الثاني على التوالي وكتاب «المكاسب» للشيخ مرتضى الأنصاري التستري وكتاب «رياض المسائل في تحقيق الأحكام بالدلائل» للسيد علي ابن السيد محمد علي بن أبي المعالي، وقرأ عليه في الحكمة الالهية والفلسفة كتاب «شرح الفوائد» لمؤلفه الشيخ أحمد الاحسائي وكتابي «شرح المشاعر» و«شرح العرشية» لمؤلفيهما الشيخ ملا صدر الدين الشيرازي والشيخ أحمد الاحسائي. هذا بالاضافة الى ما قرأ عليه من كتب الرجال والحديث والتفسير وما تدبر هو بنفسه من الشروح والهوامش المدونة على المتون والسطوح سالفة الذكر. يقول أبوه وأستاذه عن هذه المرحلة من دراسته في إجازته المفصلة له «ثم حضر عندي في قراءة المطول ومعالم الأصول والروضة البهية والقوانين والرسائل وشرح الفوائد وغيرها..» وقد تم للمؤلف كل ذلك وهو من أبناء العشرين سنة، وهذا نجاح آخر يقل نظيره ويندر وقوعه.

وإذا كان العقد الأول من عمر المؤلف يعد بحق مرحلة بناء شخصيته الاخلاقية التربوية مطبوعة على الصبر والاخلاص والتواضع وتوقير الكبار واحترام العلماء، فان العقد الثاني من عمره يعتبر بصدق

مرحلة اكتمال شخصيته العلمية وبروز مواهبه في البحث العلمي والتنقيب عن أوجه الخلاف واحتمالات الخطأ والصواب في المسألة. فلقد درس المترجم له في هذه المرحلة عشرات الكتب وهضم كثيراً من الهوامش والشروح وتفنن في رسم الخطوط العربية والفارسية ووجه جزءاً من اهتمامه الى نوع من العلوم النادرة كعلم الحروف والأوفاق والطلاسم وغيرها مما كان معروفاً في عصره، كما صرف جانباً من نشاطه الى العبادات وقراءة الأوراد والأدعية وممارسة الرياضات الشرعية التي تنمي فيه السمو الروحي وتعينه على التأمل في الآفاق والأنفس. وقد نسخ المترجم له في هذه المرحلة عدداً من الكتب النادرة وفتح له كشكولاً سجل فيه فوائد نادرة يعز العثور عليها عند الطلب لتفرقها مبعثرة في بطون الكتب. ولقد أعانته هذه الكتابات على تحسين خطه وأضفت عليه جمالاً يأخذ بالألباب. ومن الجدير بالذكر أنه رحمه الله أهمل العناية بالخط بعد ذلك حتى فقد خطه في كهولته وشيخوخته ما كان له في شبابه من جاذبية وجمال، إذ من المعلوم ان الفنون المكتسبة تفقد بريقها كلما بعد الزمن ما لم تقترن بدوام المزاولة واستمرار الممارسة، ومع ذلك فقد ظل خطه رحمه الله جميلاً واضحاً مميزاً عن غيره من الخطوط حتى آخر عمره.

وبعد ذلك يحق للمرء أن يتساءل متى بلغ المترجم له درجة الاجتهاد؟ هناك قرائن تشير الى انه ربما اجتهد بنهاية العقد الثاني من عمره بعد دراسة كتب السطوح، فنبوغه الفكري المبكر والتهامه ذلك الكم الكبير من المعارف واشراف والده المباشر على اختيار دروسه

ومدرسيه تعد من القرائن المؤيدة لاجتهاده المبكر. ومن هذه القرائن ما جاء في حديث المؤلف عن نفسه، إذ يقول فيه «وقد قرأت جميع السطوح والمتون على والدي روحي فداه من النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والفقه الى نهايات الكتب والحكمة الالهية، شرح الفوائد وشرح العرشية والمشاعر، والتقطت من ثمار تحقيقاته ما ارتويت» فعبارة «ما ارتويت» إشارة يفهم منها أهل الفن بلوغ الاجتهاد أو المشارفة عليه، فالارتواء اكتفاء بما عنده عن غيره، وهو عند الفقهاء تعبير متواضع عن الاجتهاد. غير انه من المرجح انه لم يكن قد أجيز إجازة مكتوبة في هذه المرحلة من تعليمه، خلافاً لما ورد في حديث المؤلف عن نفسه الموهم بأنه أجيز من والده وهو ابن عشرين سنة، فقد قال مباشرة بعد تلك العبارة المنقولة سابقاً «فأجازني «أي والده» إجازة مفصلة رواية ودراية وأعطاني وكالة مطلقة عامة في النيابة عنه ثم انتقلت الى النجف في سنة أربع وعشرين بعد الألف والثلاثمائة وانا إذ ذاك ابن عشرين سنة» فهذا القول لا يستقيم مع تاريخ الاجازة المذكورة، اذ انها مؤرخة غرة جمادى الثانية سنة ١٣٣٥هـ، فيكون عمر المؤلف إذ ذاك أكثر من تسع وعشرين سنة، ولا يستقيم مع ما ورد في الاجازة من نصوص، فقد جاء فيها ما يفيد بأن المترجم له ما استجاز والده الا بعد عودته من النجف، وهو حينئذ ابن ثمان وعشرين سنة، وكان قد أجازه قبل ذلك بعض شيوخه الذين قرأ عليهم في النجف. وعلى ذلك فلا مناص من القول بأن هناك خطأً من الناس غير متعمد، فربما كان المؤلف قد قال «وأجازني» فحرفه الناسخ الى «فأجازني» وربما قال المؤلف «وانتقلت» فكتبه الناسخ

«ثم انتقلت» فاختلف المعنى، وذلك لأن الواو حرف عطف تدل على مطلق العطف والفاء تدل على التعاقب من غير تراخ و«ثم» تدلى على التعاقب المتراخي فإذا استخدم حرف عطف مكان حرف اختلّ المعنى وقصر اللفظ عن المراد.

(٣)
مرحلة دروس الخارج في النجف

وأياً ما كان الأمر في تاريخ اجتهاده، فقد قرر المؤلف هو وأبوه أن ينتقل الى النجف الأشرف لاستكمال دراسته في الفقه والأصول والفلسفة الجدلية وهو على أعتاب العقد الثالث من عمره، وكانت للحلقات الدراسية النجفية شهرة واسعة ومنزلة مرموقة بين مراكز التعليم الديني، وكان يتولى إدارة هذه الحلقات شيوخ عظام هم أساطين زمانهم في الفقه والأصول والفلسفة، مثل ملا فتح الله الملقب بالشيخ شريعة الاصفهاني والآخوند ملا كاظم الخراساني مؤلف كتاب «كفاية الأصول» الذي كان وما يزال آخر كتب السطوح في علم الأصول والسيد مصطفى الكاشاني والآخوند ملا محمد الخونساري قدس الله أسرارهم جميعاً، فقرأ المؤلف على هؤلاء في الفقه والأصول كما قرأ على الشيخ محمد حسن الطوسي نوّر الله مرقده في منظومة السبزواري لمؤلفه ملا هادي السبزواري، وهو كتاب متقدم في الفلسفة الجدلية، فحضر عندهم وعند

غيرهم من أفاضل علماء النجف مدة تقرب من ثماني سنين. يقول والد المؤلف في إجازته المفصلة له مؤرخاً هذه الفترة من حياة المؤلف الدراسية «ولما بلغ العشرين من السنين وصار قابلاً للتغرب عن وطنه والمفارقة من أهله أرسلته الى النجف الأشرف، فهاجر اليها بتمام الشوق والرغبة حرصاً منه لتكميل مراتبه وقرأ على جملة من العلماء العظام والفضلاء الفخام وتلمذ عندهم، من جملتهم عميدهم الفاضل النحرير الصمداني ملا كاظم الخراساني والعالم الكامل المهذب ملا فتح الله الملقب بشيخ الشريعة الاصفهاني والعالم النبيل والسيد الجليل السيد مصطفى الكاشاني وحضر عندهم وعند غيرهم في الحكمة وغيرها برهة من الزمان قريباً من ثمان سنين حتى استفاد من تحقيقاتهم الراقية وتدقيقاتهم الرشيقة علماً جماً واجازه بعضهم لما رأوه أهلاً لذلك».

وقد تمثلت دراسته في النجف ـ باستثناء منظومة السبزواري ـ فيما يسمى بدروس الخارج، وهي حلقات دراسية متقدمة يعاد من خلالها دراسة الفقه والأصول بجميع أبوابهما وتتم مناقشتها بعمق وتوسع، يذكر ما قيل فيها من أقوال وما سيق في شأنها من أدلة والرأي الذي يرجحه الشيخ المحاضر، وكثيراً ما يشارك الطلاب أستاذهم في المناقشة وإبداء الرأي، بل قد يطلب الاستاذ ذلك منهم على وجه الخصوص. وهذه الدروس توجب على الطالب التحضير لها قبل المحاضرة بمراجعة المصادر ومذاكرة ما قيل فيها ويتوجب عليه بعدها أن يكتب ملخص ما دار فيها من نقاش وما يراه هو من الحكم المدعوم بالأدلة التفصيلية في المسألة المطروحة للبحث، فدروس الخارج تفيد الطالب من جهتين، فهي من جهة توسع مداركه في الفقه والأصول،

وهي من جهة اخرى تعينه على توسيع وتعميق ملكاته في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وهو الاجتهاد المقصود عند الفقهاء.

وعليه فلا بد أن يكون المؤلف رحمه الله أفاد من دروس الخارج علماً جماً في الأصول والفقه لما كان يتمتع به من أرضية صلبة في هذه العلوم أفادها من دراسته السابقة في السطوح على والده رحمه الله، ولما هيأت له مكتبات النجف من فرصة الاطلاع على ما فيها من كتب قيمة في الفقه والأصول والفلسفة وغيرها، ولا بد أن يكون قد أفاد من دروس الخارج في تهذيب فن الكتابة لديه وامتلاك ناحية التعبير العلمي الدقيق، هذا بالاضافة الى ما اقتبس من شيوخه العظام من خلق عظيم ودين قويم وسلوك مستقيم. يتحدث المترجم له عن نفسه متذكراً أيام التلمذة في النجف، فيقول في آخريات كتابه «عقيدة الشيعة» ثم انتقلت الى النجف في سنة أربع وعشرين بعد الألف والثلاثمائة وأنا إذ ذاك ابن عشرين سنة، وحضرت بحث شيخ الفقهاء الاعلام الشيخ شريعة الاصفهاني قدس سره في الاصول والفقه وأبرزت تقريراته في صفحات الطروس وأجازني رحمه الله تعالى. وحضرت بحث رئيس العلماء المجتهدين المولى الآخوند ملا محمد كاظم الخراساني قدس الله نفسه في الأصول على خارج الكفاية وفي الفقه على خارج كتاب الرهن وكتاب الطهارة للشيخ مرتضى الأنصاري، وحضرت بحث سيد العلماء والأساطين المولى السيد مصطفى القاساني نوّر الله مرقده في الفقه وأجازني إجازة مفصلة، وحضرت بحث الفاضل العلامة المجتهد القمقام المولى الآخوند ملا محمد علي الخونساري قدّس سره، وحضرت عند عمدة

العلماء الأعلام الشيخ المؤتمن المولى الحاج شيخ محمد حسن الطوسي أطال الله بقاه ولي منه إجازة مفصلة دراية ورواية، وحضرت عند غيرهم من بعض فضلاء النجف ثم قال بعد قليل «هؤلاء أساتذتي العظام ومشايخي الكرام الذين تلمذت على أيديهم والتقطت ثمار تحقيقاتهم وجنيت فوائد إفاداتهم وبلغت ما بلغت من ألطافهم وبركاتهم، وهم أطواد أعلام وفطاحلة عظام لم يكن لهم في عصرهم نظير ولم يدر سور الدهر لهم من بديل خطير».

وهكذا أنهى المؤلف رحمه الله هذه المرحلة من حياته الدراسية بنجاح كما في المداخل السابقة وزوده شيوخه وأساتذته في هذه المرحلة بإجازات مكتوبة وغير مكتوبة دراية ورواية، أقدمها إجازة استاذه السيد مصطفى الحسيني الكاشاني المؤرخة سنة ١٣٣١هـ.

وقد حصل عليها وهو حينذاك من أبناء الخمس والعشرين سنة، وهذا وقت قياسي للحصول على اجازة الاجتهاد يبعث على الدهشة. ولقد كان المترجم له مصدر اعجاب رفاقه من الطلبة وموضع احترام شيوخه، فقد امتدحوه في اجازاتهم له وأشادوا بعلمه ودقة بحوثه وسلامة استنتاجاته، علاوة على تقريضهم اياه في تقواه وانقطاعه الى العبادة وزهده في الدنيا واجتنابه ملذات الحياة. فهذا شيخه السيد مصطفى الحسيني الكاشاني يتحدث عنه في اجازته اياه المذكورة سابقاً، فيقول عنه «وممن تسنم قدس هذه المنزلة الرفيعة وصعد معارجها المنيعة وطلب هذه الفضائل والمعالي حتى وصل يقظة الايام بسهر الليالي جناب العالم العامل والفاضل الكامل الحسيب النسيب والأريب الأديب ذو الفكر الوقاد والفهم النقاد فخر العلماء العظام عمدة الأفاضل

الفخام ذو القريحة السليمة والطريقة المستقيمة والمحتد الرفيع والأصل المنيع الاقا ميرزا علي وفقه الله لمراضيه وجعل مستقبل أمره خيراً من ماضيه. . .».

ولقد أفاض شيخه وأستاذه الآخوند ملا محمد علي الخونساري قدس سره في تقريض المؤلف في علمه وحلمه وتقواه وأدبه وخلقه وسمو فكره وعلوّ همته وفائق قدرته في تأسيس الأصول وترتيب الفروع. ومما جاء في اجازته اياه المؤرخة في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٢هـ قوله «ثم عرض (المترجم له) علينا بعض مصنفاته الشريفة فسرحنا نظرنا فيه، ولعمري قد جاد وأجاد وجاء بما فوق المراد فلا غرو مما فيه فكل إناء ينضح بما فيه. ولله دره ما أطول في تأسيس الأصل باعه وأمتن في ترتيب الفروع ذراعه، مضافاً الى اني تكلمت معه في مطالب عظيمة ومسائل غامضة فبان لي بحمد الله تعالى ومنه أنه ذو نظر دقيق وفهم صائب رشيق وطبع قويم وذهن مستقيم ووجدته بحراً مواجاً ونوراً لم أرَ فيه اعوجاجاً جامعاً درر المعارف القدسية حائزاً الجواهر الملكوتية. فلا جرم من كان هذا شأنه فحري بالنيابة عن الامام والقيام بوظائف الاحكام والقضايا وفصل الخطاب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واصلاح ذات البين ورعاية الأنام وولاية الغيب والايتام، وهو ولي من لا ولي له ومرجع كل من يرجع فيه الى المجتهد المطلق الجامع لشرائط القضاء والامضاء والنظر في أمور المسلمين والتصرف في أموالهم ونفوسهم بالحق. فهو بعد ان أذنته مقبول القول والعمل ويلزم على كافة العباد بعد ان اختاره الله حاكماً بينهم ودليلاً على ارشادهم إنفاذ حكمه وامتثال أمره والاهتداء بنوره وعلى المشتغلين

والمحصلين استفادة العلوم من عنده. . » الى آخر ما قاله في حق المؤلف من ذكر فضائله وبيان فواضله وتزكية أفعاله وأقواله قدّس الله سرّ المادح والممدوح ونوّر مرقدهما انه سميع مجيب.

أما العلامة الكبير الشيخ فضل الله الخوئي النجفي، فقد وصف المترجم له في اجازته اياه المحررة في ربيع الثاني من سنة ١٣٤٥هـ بأنه «علامة وقته وزمانه وفهّامة عصره وأوانه ذو الفطنة الوقادة والقريحة النقادة التقي النقي والمهذب الصفي. . » ثم دعا المجيز للمجاز وطلب من الله «أن يلهمه طريق الرشاد وسبيل الصواب والسداد فانه أهل لذلك والحقيق بما هنالك وان يجعله علماً لعباده ومناراً في بلاده ومرجعاً للأنام وملاذاً للخاص والعام ومن قوام الشريعة وكفلاء أيتام الشيعة لأنه ممن يعتمد على ورعه وتقواه وفهمه وذكاه وبذل جده وجهده في سبيل الله سبحانه. . ».

ولعل أبلغ ما قيل في حق المترجم له مما صدر من شيوخه تقريضاً له وتنويهاً بقدره واعلاءً لشأنه ما جاء في اجازة والده إياه المؤرخة في الأول من جمادى الآخرى من السنة ١٣٣٥هـ. وذلك بعد رجوعه من زيارة الامام الرضا عليه السلام، فقد قال في هذه الاجازة المفصلة «لما رأيته وفقه الله لكل خير وجنبه من كل سوء ومكروه وقربه عيني في حياتي ومماتي وبلغه مناه في دنياه وعقباه وطال في عمره وبقاه بحق محمد وآله آل الله قابلاً لتحمل الأنوار الساطعة عن الأئمة الأطهار وأهلاً لنقل الآثار وضبطها وايداعها في أصناف الكلمات العاليات والعبارات الوافيات الكافيات وتأديته الى أهلها تلك الأمانات والدرر الفاخرات واللآلىء الزاهرات ومستخرجاً لجواهر العلوم من كنوزها والمسائل

المشكلة من مداركها ومستنتجاً غوامض المعاني بفهمه الوقاد ورموزها واشاراتها بذهنه النقاد حيث بلغ مبلغ الرجال وشرب صافي العلوم الزلال وتمكن من نيل ما يريد من احكام الحرام والحلال اجزت له جعلني الله فداه ومن كل مكروه وقاه أن. . . ».

وحيث بلغ بنا الكلام الى هذا المقام فانه من المناسب ان نذكر أسماء من يروي عنهم المؤلف رحمه الله تيمناً بذكرهم ولما في ذلك من فائدة لا تخفى على القارىء.

فطبقاً لاجازة والده له فان المؤلف رحمه الله يروي[1] عن والده عن الشيخ عبدالله بن معتوق الخطي الحائري عن الشيخ محمد بن عبدالله بن علي بن احمد بن عيثان عن جملة من مشايخه منهم ميرزا محمد باقر بن الشيخ محمد سليم الاسكوئي الحائري عن جملة من مشايخه منهم ميرزا حسن بن علي الشهير بكوهر القراجة داغي الاسكوئي عن جملة من مشايخه منهم السيد كاظم بن السيد قاسم الحسيني الرشتي عن جملة من مشايخه منهم الشيخ احمد بن زين الدين الاحسائي عن جملة من مشايخه منهم الشيخ جعفر النجفي عن الشيخ محمد باقر البهبهاني المعروف بالوحيد البهبهاني عن والده الشيخ محمد باقر البهبهاني عن مولانا محمد باقر المجلسي «مؤلف كتاب البحار» عن والده الشيخ محمد الحارثي المعروف بالشيخ البهائي عن والده الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي عن شيخه زين الدين علي بن

---

(١) للتعرف على تراجم حياة الرواة راجع ما هو مدون في آخر ترجمة حياة المؤلف تحت عنوان «تعريف بشيوخ المؤلف وممن يروي عنهم» بقلم كمال الدين ميرزا علي الحائري.

احمد الشهير بالشهيد الثاني عن الشيخ نور الدين علي بن عبد العال الميسي عن الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن داود المعروف بابن المؤذن الجزيني عن الشيخ علي ضياء الدين بن الشيخ محمد بن مكي عن والده الشيخ شمس الدين محمد بن مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول عن جملة من مشايخه منهم السيد المرتضى عميد الدين عبد المطلب بن أبي الفوارس بن محمد علي بن أعرج الحسيني العبيدلي الحلي وفخر الدين ابي طالب الشيخ محمد بن الحسن بن يوسف عن الشيخ نجيب الدين يحيى بن محمد بن يحيى بن الفرج السوراوي عن الشيخ هبة الله بن رطبة عن الشيخ أبي علي الحسن عن أبيه عن الشيخ أبي جعفر الطوسي عن جماعة منهم الشيخ سلار بن عبد العزيز الديلمي والشيخ أبو عبدالله الحسين بن عبدالله الغضائري والشيخ هارون بن موسى بن أحمد بن سعيد أبو محمد التلعكبري والسيد المرتضى علم الهدى علي وأخوه السيد رضي الدين إبنا الحسين الموسوي عن الشيخ محمد بن عمر بن عبد العزيز بن أبي عمر الكشي والشيخ السعيد أبي عبدالله محمد بن النعمان الملقب بالمفيد عن الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي عن أبيه علي بن الحسين بابويه وجعفر بن محمد بن قولويه عن الشيخ الامام رئيس المحدثين ثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني «قدس الله أسرارهم جميعاً» بأسانيده المذكورة في الكافي متصلة بأرباب العصمة والطهارة سلام الله عليهم أجمعين. هذه أسماء من يروي عنهم المؤلف ذكرتها مختصرة جداً.

ومن الملاحظ ان المترجم له عني بالعلوم الدينية والمعارف

الشرعية عناية فائقة بلغ بها شأواً بعيداً في العلم والعرفان الا انه وقف عندها ولم يتجاوزها الى غيرها، فلم يحفل بالعلوم الحديثة ولم يبذل في الحصول عليها جهداً مرموقاً، ولم يطلع عليها إلا في القليل النادر وعند مسيس الحاجة اليها، ومع ذلك فلم يكن من المتعصبين ضد هذه المعارف ولا من المنكرين عليها أو على أهلها، بل كان يقبلها في كثير من الأحيان ولا يجادل في بطلانها كدأب غيره من أقرانه. قال في معرض جوابه على سؤال أحدهم «إنا لا نكذب هؤلاء المتجددين في اكتشافاتهم وبعض مقالاتهم المبنية عليها ولا ننكر ذلك منهم لدعواهم الحس والوجدان شهوداً بالآلات الكشفية. . .» بل ربما نقل في كتاباته مسائل من المكتشفات الحديثة مستشهداً بها، فربما أصاب في النقل وربما أخطأ فيه. فقد ذكر مثلاً وظائف الدم في جسم الانسان وما فيه من كريات حمراء وبيضاء فكان دقيقاً فيه مصيباً مجيداً. ونقل في مكان آخر من رسائله ما ذكروه من دوران الأرض حول الشمس فزعم انهم يوعزون الى هذه الدورة ما يحدث على الأرض من تعاقب الليل والنهار، فلم يوافقهم فيه ولا أنكره عليهم، بل جعله احتمالاً مقابل الاحتمال الآخر من دوران الشمس حول الأرض. وقد عايش رحمه الله اطلاق الأقمار الصناعية الى الفضاء، فكان يستبعد حدوث ذلك بادىء ذي بدء إعتماداً على أقوال الفلاسفة الأقدمين بوجود كرة النار تحت فلك القمر، فإذا اقتربت الأجسام منها احترقت قبل ان يتسنى لها اختراقها الى الفضاء الخارجي، ولكن عندما تناقلت الأخبار نجاح اطلاق أول قمر صناعي قبل الفكرة وأذعن لها ولم يشكك في وقوعها ولم ينسب ذلك، كدأب غيره، الى الدجل الغربي واعلامه المغرض. وفي الوقت الذي كان كثير

من فقهاء عصره يرى التعليم في المدارس النظامية الحديثة حراماً من الكبائر، كان هو رحمه الله يقول بأن العلم في أي مجال كان فهو نور وهدى وسعادة ومنشأ كل خير، الا انه كان يشترط في معلم الصغار ان يكون متخلقاً بالأخلاق الفاضلة ملتزماً بمبادىء الدين إشفاقاً على الطفل من الانجراف الى غير ما يريده له أبواه. ففي اجابته على سؤال احدهم «ما المانع من دخول الفتيان المدرسة؟» قال رحمه الله «لا يستريب ذو مسكة في منافع العلم ومضرات الجهل وان العلم حياة والجهل موت وان العلم سعادة ومنشأ كل خير والجهل خلافه واصل كل شر، ونحن مأمورون بكسب العلم من المهد الى اللحد» ثم ذكر بعد قليل شرطه في صلاح معلم الفتيان والفتيات، فقال مفسراً قوله تعالى: ﴿**ثم لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم**﴾[1] أي عمن تأخذ العلم، فان كان المعلم صالحاً صلح المتعلم وان كان طالحاً فسد المتعلم وطلح. وهذا في الفتيان، وأما في الفتيات فالأمر أعظم والقيد أكثر والخطر أكبر».

---

(١) سورة التكاثر، الآية: ٨.

(٤)
انشغاله بتبعات الحياة والمرجعية والأسفار

كان المؤلف رحمه الله منقطعاً الى الدراسة الى ان بلغ عمره قريباً من ثمان وعشرين سنة. ولقد كان، وهو في هذه السن، متزوجاً للمرة الثانية وبعد ان توفيت زوجته الأولى في حادث مؤسف، فقد سقطت من شاهق، وكان قد رزق في هذه الفترة ولدين توفي احدهما في مرض وبائي أتى على كثير من الخلق، ومع ذلك فلم يكن أيام التلمذة منشغلاً باكتساب العيش اذ كان والده رحمه الله يوفر له كل أسباب العيش له ولزوجته وولديه الصغيرين، وكان هو متفرغاً الى العلم منقطعاً الى حياة التحصيل والتلمذة، بيد أن الامور أخذت تتغير تدريجياً منذ عام ١٣٣٥هـ، ولم تعد الرياح تجري باتجاه شراع تحصيل العلوم واجراء البحوث والتوسع في المعرفة، فقفل راجعاً الى كربلاء لأمر البيت والعيال ولقد كان والده يريد السفر حينذاك في زيارة لمرقد الامام الرضا عليه السلام، فكان على المؤلف، وهو أكبر أولاد أبيه ان يهتم ليس فقط

بأمر أسرته الصغيرة، بل كان مطلوباً منه أيضاً أن يشارك أباه في الاهتمام بأمر الأسرة الكبيرة، وكانت تتألف في ذلك الوقت من بضعة عشر فرداً، هم أخوته من الأشقاء وغيرهم واسر من تزوج منهم. فلم يعد العلم منذ الآن همه الوحيد في الحياة، وكان الاهتمام بأمر البيت والعيال أول الشواغل التي قيدت المؤلف عن مواصلة السير في ركاب ما أحبه من التعليم والبحث والتأليف.

وقد اضطر المؤلف الى السفر والتنقل بين البلدان المختلفة، فكان هذا هو الشاغل الآخر الذي انصرف به عن حياة التدريس والتصنيف. لقد صادف في هذه الفترة ان نضب معين العلماء الذين على رأيه في فضل أهل البيت، وقد تضاءلت همم القلة الموجودة منهم عن النهوض بواجب الدعوة الى مراتبهم عليهم السلام، فخاف على البقية الباقية من جماعته أن تضيع وسط الزحام، فشمَّر عن ساعديه للإنذار الذي أمر الله به العلماء في قوله **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون﴾**[1]، من أجل ذلك ألف المترجم له حياة السفر، فتنقل بادىء الأمر بين سوق الشيوخ والبصرة والكويت والبحرين والاحساء وتبريز ومشهد وغيرها من البلاد ثم صار يتنقل بين الكويت والاحساء وكربلاء ثم بين الكويت وكربلاء حتى توفاه الله. فكان اضطراره الى السفر والتنقل بين البلدان العقبة الاخرى في مسيرة البحث والتأليف والتدريس التي أحبها وأخلص لها النية في شبابه، وتمنى أن يكرّس سائر حياته لها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

ولما توفي والده في الخامس من رمضان من سنة ١٣٦٤هـ. صار المؤلف مرجعاً للتقليد خلفاً لأبيه، وقلّده كثير من الناس في سوق الشيوخ والبصرة والكويت والبحرين والاحساء وأذربيجان ومشهد وغيرها من البلاد، فكانت هذه المرجعية وما لها من تبعات كثيرة شاغلاً آخر له عن التدريس والتصنيف. وهكذا وجد المؤلف نفسه يبتعد قليلاً قليلاً عن الحياة التي أحبها وصرف ربيع عمره من أجلها، حياة البحث والتدريس والتأليف. ولقد ظل رحمه الله يمنّي النفس بأن تتهيأ له الفرصة يوماً للاستقرار الطويل حتى يتمكن من تأليف كتاب في التفسير يعنى بتفسير الباطن وبيان التأويل. ولم يكن يكفي لانجاز هذا المشروع ما نعم به من فترات استقرار نسبية في شيخوخته عندما كان يتنقل بين كربلاء والكويت.

(٥)
تصنيفاته المنشورة

وعلى الرغم من الشواغل التي سلف ذكرها، فقد استطاع المترجم له ان يصنف في فترة ما بعد التلمذة عدداً من الكتب قليلة لكنها قيمة تكفي للدلالة على سعة تفكيره وطول باعه في علوم الفقه والاصول والحكمة الالهية، وقد ظهرت قدرته بصفة خاصة وبرز علو كعبه في ما عالج من مسائل الحكمة والفلسفة الالهية، حتى انه رحمه الله صار يعتبر البقية الباقية من علماء مدرسة الشيخ احمد الاحسائي في الحكمة وفهم الآثار الواردة في فضل أهل البيت عليهم السلام.

وكان أول ما نشر للمؤلف رحمه الله رسالة قيّمة في ترجمة الشيخ علي نقي بن الشيخ احمد الاحسائي، حررها كما يقول «بتمام العجلة في شهر المحرم من سنة الألف والثلاثمائة والسبع والستين» من الهجرة وكان عمره إذ ذاك قريباً من اثنتين وستين سنة. وقد طبعت هذه الرسالة في الأصل كمقدمة لكتاب «نهج المحجة» لمؤلفه العلامة الشيخ علي

نقي في سنة ١٣٧٠ هجرية وتوافق سنة ١٩٥٠ ميلادية، ثم أعيد طبعها في ذيل كتاب «عقيدة الشيعة». وتتناول الرسالة بالاضافة الى ترجمة حياة الشيخ علي نقي نقداً موضوعياً للسيد محسن الأمين العاملي رحمه الله لأخطاء فادحة تاريخية وقع فيها وعقائدية نسبها الى الشيخ احمد الاحسائي ومن يرى رأيه من تلاميذه عندما ترجم لهم في كتابه «أعيان الشيعة». وقد حقق المؤلف في هذه الرسالة معنى الغلو لغةً وشرعاً وأماط اللثام عن الغلو المحظور في حق المعصومين عليهم السلام. ثم أنهى الرسالة بنصيحة طالب فيها ان يصار الى التوفيق أولاً بين الفرقة الواحدة من جماعات الشيعة الإمامية، لأن اختلاف مدارسهم ومناهجهم في معالجة القضايا الشرعية والفقهية والعقائدية لا يوجب اعتبارهم فرقاً متناحرة ولا يخرجهم ذلك عن كونهم فرقة واحدة من فرق المسلمين، فالاتفاق بينهم أولى وأسبق والتفاهم فيهم أحرى وأليق.

إن كتاب «عقيدة الشيعة» هو ثاني مؤلف خرج للمترجم له ونشر بعد تاريخ نشر مقدمة «نهج المحجة»، وقد طبعت الطبعة الأولى منه في حوالي سنة ١٩٥٥م، وطبعت الطبعة الثانية في سنة ١٩٦٤م، وتوافق سنة١٣٨٤ هجرية. ويتضمن هذا الكتاب بيان عقيدة الشيعة الامامية في أصول العقائد الخمسة، التوحيد والعدل والنبوة والامامة والمعاد. وقد راعى المؤلف في هذا الكتاب تبسيط الاسلوب في عرض الأفكار، واقتصر فيه على أهم الحجج الواردة في مجال الاستدلال على أصول الدين، وابتعد عما أثير حولها من جدل فلسفي وما قيل بشأنها من نقض وابرام، وذلك لتعميم الافادة منها وتوسيع الانتفاع بها. ويظهر من مقدمة الكتاب وخاتمته ان المترجم له قد ألف هذا الكتاب ليرد به ما كان

قد ألصق به وبأصحابه من تهم باطلة تخرجهم عن عقائد الامامية المتصلة بأصول الدين، فقد قال في مقدمة الكتاب «ان هذه نبذة يسيرة في أصول الدين والاعتقاد مما أتى به سيد المرسلين وخلفاؤه الطاهرون المعصومون، أعتقده وأدين به وأحشر عليه ان شاء الله تعالى **﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**. حررتها على سبيل الإيجاز لا التطويل والاختصار لا التفصيل الى ان قال «ليتميز الماء من السراب والتبر من التراب لإتمام المحجة وإكمال الحجة ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حييَ عن بيِّنة». وفي خاتمة الكتاب قال المؤلف بعد ان عدد شيوخه ومجيزيه من الفقهاء وغيرهم «هؤلاء أساتذتي العظام ومشايخي الكرام الذين تلمذت على أيديهم والتقطت ثمار تحقيقاتهم وجنيت فوائد إفاداتهم وبلغت ما بلغت من ألطافهم وبركاتهم، وهم أطواد أعلام وفطاحلة عظام» الى ان قال «ففي الأصول والفقه طريقتي على طريقتهم ومسلكي من مسلكهم وأنا على دينهم ووتيرتهم».

وقد خرج للمؤلف كتابه الثالث «منهاج الشيعة» وهو رسالة عملية ضمنها فتاواه وآراءه الفقهية، نشرها لينتفع بها مقلدوه، ويقع في جزأين الجزء الأول في العبادات ولم أعثر على الجزء الثاني عند اعداد هذه الترجمة، وطبع الجزء الأول منه في سنة ١٣٧٧هـ وتوافق سنة ١٩٥٨م. وكان المؤلف قبل طبع هذا الكتاب يعتمد في إيصال فتاواه الى مقلديه على ما كان يكتبها من حواشي وهوامش على رسالة والده التي كانت قد طبعت طباعة حجرية قديمة، وقد ظل رحمه الله يستخدم رسالة والده بعد وفاته مدة تقرب من ثلاث عشرة سنة، وكانت مقاليد المرجعية قد انتقلت اليه خلال هذه المدة في الاحساء والكويت والبحرين وسوق

الشيوخ واذربيجان ومشهد وغيرها من البلاد العربية والإيرانية، وهذا ان دلَّ على شيء فإنما يدل على شدة تواضعه ووفائه لأبيه ورغبته في احياء ذكره بعد وفاته. وقد تطرق المؤلف في مقدمة رسالته هذه الى ما يقال في شأن وجوب تقليد الأعلم، فنفاه بل جوّز تقليد المفضول مع وجود الفاضل لعموم ما ورد في توقيع الامام الحجة عليه السلام «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم» وغير ذلك من الآيات والروايات، ولعدم وجود الفاضل أو معرفته في جميع العلوم الشرعية، ومما قال رحمه الله في هذا الشأن «لو جمعت علماء الوقت في كل وقت واستخبرت أحوالهم رأيتهم مختلفين في الفضل في علم واحد بل في مسألة واحدة مثلاً مبحث الأمر في علم الأصول كله مما يحتاج اليه المجتهدون، فمنهم أفضل في كونه للوجوب أو للندب أو غير ذلك ومفضول في دلالته على الفور أو عدمه وآخر أفضل منهما في دلالته على التكرار أو عدمه» الى ان قال «والحاصل الفاضل في تحصيل الدليل وفي تحصيل المدلول وفي كيفية الاستعمال والاحتراز والاحتياط وبذل الجهد وأمثال ذلك مما يكون منشأ للفضل معرفته على الحقيقة في غير المعصومين أو من غير المعصومين لا تكاد توجد». وهكذا يذهب المؤلف رحمه الله في نقد القول بوجوب تقليد الأعلم الى غايته مستدلاً عليه بما لا مزيد فيه من الكتاب والسنَّة والاجماع والعقل، ويفيض في ذلك فيضاً فيه شفاء للقلوب التي في الصدور.

ثم خرج للمؤلف كتابه الرابع «الكلمات المحكمات» وهو مؤلف جمعت فيه عشر رسائل في مواضيع شتى كتبها اجابة على مسائل وردت

اليه من جماعة من العلماء والمثقفين في الاحساء والقطيف والبحرين والكويت وغيرها، وقد طبعت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٣٧٨هـ، وتوافق سنة ١٩٥٩م. ثم نفدت فطبعت الطبعة الثانية في الكويت، ونسخ هذه الطبعة هي المتداولة في الوقت الحاضر، ويجمع هذا الكتاب بين دفتيه مواضيع شتى في العلوم الشرعية، من فقه وأصول وفلسفة وحكمة وعقائد وحديث وتفسير، وقد نحى المؤلف في تفسير الآيات والروايات نحو الباطن والتأويل الى جانب تفسير المعنى الظاهر منها مع الاشارة الى جمال المبنى وخفايا المعنى. وكتاب الكلمات المحكمات هو الذي بين يدي القارىء الكريم. كما انه يحتوي على عشر رسائل في مختلف العلوم والفنون، فهو كتاب جامع فريد.

وقد خرج للمؤلف كتابه الخامس «خير المنهج الى مناسك الحج» وهو كتاب فقهي يتضمن فتاواه وآراءه في أحكام الحج والعمرة والمأثور من زيارة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة البقيع عليهم السلام في المدينة المنورة وكذلك المأثور من الأدعية في الحج والعمرة. وقد صنف هذا الكتاب سنة ١٣٨١هـ. وطبع في تبريز، ولم يتضمن الكتاب تاريخ النشر. ثم ان المؤلف اختصر هذا الكتاب واقتصر فيه على أهم الأعمال والمناسك والزيارات والدعوات وجعله في مؤلف سماه «منتخب خير المنهج الى مناسك الحج» وقد طبع هذا المنتخب في الكويت سنة ١٣٨٧هـ. وتوافق سنة ١٩٧٧م. أي بعد وفاته بعشر سنين، وكان أخوه العلامة الحاج ميرزا حسن الحائري قد أجاز لمقلديه العمل به واعتمد ما جاء فيه من أحكام. وهذا الكتاب هو آخر ما نشر للمؤلف رحمه الله تعالى.

وللمؤلف مؤلفات اخرى لم تنشر، بعضها موجود وبعضها مفقود، وفي مؤلفاته المنشورة إشارة الى بعض ما لم ينشر منها، مثل ما أشار اليه في كتابه «عقيدة الشيعة» من أن لديه رسالة مفصلة في الغيبة جاء فيها على ذكر مفصل لغيبة الامام الصغرى والكبرى وأرخ فيه لنوابه الأربعة، فقد قال في الفصل الخامس من مبحث الامامة من «عقيدة الشيعة» في معرض كلامه عن النواب الأربعة «هذا مختصر الكلام، أما تفصيل أحوال السفراء المذكورين ومدة أعمارهم ومدة أيام نيابتهم فيطلب من رسالتنا الكبرى» كما جاءت إشارات كثيرة في إجازات شيوخه إياه بأنه رحمه الله كان قد قدم اليهم تحقيقات من تصنيفه في الفقه والأصول تدل على قدرته في الاستدلال ورد الفروع الى الأصول، هذا الى جانب تدويناته الكثيرة لافادات وتقريرات شيوخه في الفقه والأصول والحكمة عندما كان يحضر لديهم دروس الخارج.

ويمكن لمن يقرأ للمؤلف رحمه الله ان يتبين في كتاباته الخصائص التالية:

١ ـ الوضوح في التعبير وتبيين الفكرة على غموضها بأقل العبارات وأقصر الجمل، مع الابتعاد عن التعقيد المنفر والتكرير الممل واجتناب الغريب الوحشي والحوشي المبتذل من الكلام. وما تركه لنا من أثر على قلته كاف في الدلالة على انه رحمه الله كان ذا موهبة أدبية يندر وجودها في كثير من فقهاء عصره وعلماء زمانه.

٢ ـ سعة الاطلاع. فقد كان رحمه الله واسع الاطلاع في مجالات تخصصه غزير العلم خبيراً بالتفريعات التي ترد على المسألة الواحدة في

الموضوع الواحد، فكان في ذلك كمن يغرف من بحر، كان رحمه الله يستوعب الفكرة بحثاً من جميع جوانبها، ولا أدل على ذلك مما جاء في نقده السالف ذكره لأخطاء السيد محسن الأمين العاملي، فقد أطنب في نقده إياه وأجاد في رده عليه، وكان يتنقل مع القارىء فيه من فكرة الى فكرة ومن موضوع الى موضوع بأسلوب متصف بالرصانة والربط بين المواضيع والتدرج في ايراد الافكار وطرح الحجج على الخصم وإفحامه بها، وذلك في حوالي ثماني وثمانين صفحة يصول فيها ويجول.

٣ ـ الالتزام بالأصول العلمية في المناقشة، فقد كان رحمه الله ملتزماً أشد الالتزام بالأصول العلمية في مناقشاته، موضوعياً لا يجرح خصمه ولا يتهجم عليه ولا يرميه بالتهم ولا ينابزه بالألقاب، وانما يدعو الى ما يذهب اليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. لقد كان رحمه الله عفيفاً في كتاباته رقيقاً ليناً في غير مداهنة ولا رياء مستقيماً دمثاً لا ينفعل ولا ينساق وراء العواطف، وذلك خلافاً لدأب بعضهم من كُتَّاب عصره ومؤلفي زمانه.

(٦)
انجازاته في أسفاره

واذا كان المؤلف رحمه الله يتصف بالاقلال في مجال تصنيف الكتب للأسباب المذكورة آنفاً، فانه كان مكثراً في مجال الخطب والمواعظ الدينية المنبرية، وكانت مجالسه تعد مدارس متنقلة تثنى له الوسادة فيها للكلام، ولو قدّر له تسجيل خطبه ومواعظه وأحاديثه في المجالس لأمكن أن يعد من ذلك مؤلفات كثيرة مفيدة في شتى العلوم والفنون، بيد أن ذلك لم يكن متوفراً في زمانه فضاعت خطبه وما كان يحدث به في المجالس، وهذا مما يؤسف له أشد الأسف. ولقد كان رحمه الله خطيباً موهوباً بارعاً في التأثير على سامعيه ماهراً في إيصال المعارف والمواعظ الى عقول الناس وقلوبهم. ولقد كان من دأبه رحمه الله ان يقدم لخطبته بآية من الكتاب الكريم مبيناً غوامضها وأسباب نزولها مشيراً الى تأويلها شارحاً معناها الظاهر والباطن وما تتضمن من مواعظ وأوامر ونواهي فيها شفاء للقلوب التي في الصدور. وقد كان من دأبه

الاطناب في الخطبة والاطالة في الموعظة دون املال في ذلك ولا إسفاف في تلك، ولم يكن من دأبه الترديد الممقوت للكلام أو التكرار الممجوج للمقال. ولقد سمعته خطيباً في مناسبات دينية في الكويت والاحساء يصوب ويصعد في تفسير آية واحدة على مدى بضعة أيام لا يتجاوز الى غيرها حتى تنتهي المناسبة التي خطب من أجلها. وكان ذلك مثاراً لإعجاب الناس به وبعلمه الواسع وفنه الباهر في امتلاك الاسماع والبصائر والابصار، فكانت هذه الخطب والمجالس سبباً في التصاق جماعة من أصحابه به وذهابهم في محبته الى أقصى الحدود واعتبارهم اياه الأعلم والأفضل، وربما تعصب له بعضهم تعصباً يخرج به عن الحدود الشرعية في وجوب اجلال العلماء وتوقيرهم وتفضيلهم على من سواهم، وكان ما يلقاه من هذا الاجلال اللامحدود سبباً في اشتداد خصومه الخصماء له وذهابهم في الانكار عليه ومعارضتهم إياه بما لا يقرهم عليه الشرع الحنيف ولا يجيزه لهم العقل المستنير ولا يرتضيه منهم المنطق السليم، فكان الناس في ذلك منه بين غال وقال.

وإذا رام امرؤ ان يتتبع جلائل أعمال المترجم له خلال العقود الأربعة التالية، أي الأعوام الواقعة بين سنة ١٣٣٥هـ، وهي السنة التي بدأ فيها سفراته فابتعد بها عن الحوزات العلمية في النجف وكربلاء وبين سنة ١٣٧٥هـ. وهي السنة التي بدأت الشيخوخة تظهر عليه فيضمر معين عطائه، نقول إذا رام امرؤ أن يفعل ذلك فانه يحصي له كثيراً منها لا تزال تحمل ذكره وتشير الى اسمه وسوف تظل كذلك الى ما شاء الله. ويمكن إجمال هذه الأعمال في أربع مجاميع رئيسية نذكرها على الوجه التالي بيانه.

١ ـ المحافظة على مدرسة الاحسائي. فقد حافظ رحمه الله بجهده على بقاء مدرسة الشيخ أحمد الاحسائي في المنهج الفلسفي العقائدي المعروف باسمه حية تنبض بالحركة والنشاط، ولقد اجمع كل المطلعين ان لولا المؤلف لكانت هذه المدرسة أثراً بعد عين لا وجود لها الا مدفونة في بطون الكتب وطوامير العلماء، فبفضل المؤلف فقط وبسبب سفراته وتنقلاته الكثيرة المتكررة وخطبه ومجالس حديثه الممتع حفظ الله نهج الشيخ أحمد الاحسائي الفلسفي العقائدي من الانقراض وأبقاه حياً في قلوب وعقول عصابة من المؤمنين منتشرين في أصقاع من الأرض مثل الكويت والاحساء والبحرين والبصرة وسوق الشيوخ وتبريز ومشهد وغيرها من البلدان.

٢ ـ إعداد العلماء والعارفين. فقد حاول رحمه الله ان يهييء نواة صالحة من الطلبة والعلماء العارفين السائرين على خطى شيوخه في النهج الفلسفي العقائدي. ومهما كان نجاحه في هذا الشأن، فقد استطاع المؤلف ان يجمع من حوله عدداً من ذوي الاخلاص والنية الصادقة تتلمذوا على يديه في الاحساء والكويت، ولم يقيض الا لقليل منهم الوصول الى درجة الاجتهاد، ونذكر من طلبته في الكويت الشيخ ابراهيم الاسماعيل البصير والشيخ حسين الصحاف وملا علي موسى النجادة والشيخ حسين الفيلي رحمهم الله، ونذكر من تلاميذه في الاحساء الشيخ محمد البقشي والشيخ عبدالله الوصبيعي والشيخ احمد أبو علي والشيخ كاظم الصحاف والشيخ علي بن شبيث والعلامة الشيخ محمد الهاجري والشيخ عبد الوهاب الغريري وغيرهم، ولقد توفي بعضهم في حياته وتوفي بعضهم بعد وفاته وما زال البعض الآخر منهم

حي يرزق، رحم الله الموتى منهم وأطال في عمر الباقين. ونذكر ممن قرأوا عليه أخاه العلامة الحاج ميرزا حسن الحائري الذي آلت اليه المرجعية بعد أطال الله بقاه، وقد حضر كاتب هذه الحروف لديه شطراً من الزمان في الاحساء. ولقد رأيته رحمه الله في الاحساء يدرس جماعة من الطلبة يربو عددهم على العشرة، فيحاضرهم في اللمعة الدمشقية وكتاب الرياض في الفقه وكتاب المطول في البلاغة، كما كان يحاضر عدداً آخر منهم في شرح العرشية وشرح المشاعر في الفلسفة الالهية. ولقد كان رحمه الله شغوفاً بدروس الحكمة حريصاً على ان يبلغ بها الغاية والنهاية، وكان ديوانه في حي الرفعاء من الهفوف كأنه خلية نحل من كثرة المترددين عليه والقاصدين له من الطلبة على مختلف مستوياتهم، وكان رحمه الله يرى مبرر بقائه في الاحساء مقصوراً على إيجاد نخبة صالحة من العلماء تستطيع ان تتولى زمام التوجيه من بعده، الا انه لم يتم له ذلك على نحو ما أراد لأسباب ليس هذا محل ذكرها، وهذا أمر يؤسف عليه أشد الأسف وأعظمه ان لا يكون قد بلغ مما أراد الغاية ولا أتى فيه على النهاية.

٣ ـ ما انجز على يديه من طباعة الكتب. فقد تم على يد المؤلف طباعة عدد من كتب قيمة في شتى العلوم بعضها من تأليفه وقد أشير اليه آنفاً، وبعضها الآخر ليس له، نذكر من هذا الأخير كتاب «نهج المحجة» في جزئين طبع الجزء الأول في النجف والجزء الثاني في تبريز، وهو كتاب تاريخي يعنى بإثبات الامامة والخلافة للإمام أمير المؤمنين وانحصارها فيه وفي ولده من بعده، ونذكر من الكتب المطبوعة على يديه أيضاً كتاب «شرح حياة الأرواح» في أصول الدين والمذاهب

الخمسة وكتاب «اللمعات والمخازن» في الحكمة الالهية، كلاهما من مؤلفات العالم الجليل الحاج ميرزا حسن كوهر، ومنها كتاب «المصباح المنير» وكتاب «حق اليقين» كلاهما في الحكمة من تصنيفات جد المؤلف ميرزا محمد باقر الحائري، كما أعيد على يديه طبع كتاب «إحقاق الحق» في العقيدة من تأليفات والده قدّس الله تربته، وطبع على يديه أيضاً كتاب «دليل المتحيرين» الذي يؤرخ احداثاً وقعت للشيخ أحمد الاحسائي وتلميذه الأكبر السيد كاظم الرشتي من تأليفات السيد كاظم الحسيني الرشتي وطبع في النجف ثم أعيد طبعه في غيرها، الى غير ذلك من الرسائل والكتيبات الصغيرة.

٤ ـ ما شيّد على يديه من مؤسسات البر، فقد أقيم على يدي المؤلف وبتحريضه ومبادرته كثير من المساجد والحسينيات في كربلاء والكويت والاحساء، والكلام يطول بذكرها جميعاً وتعدادها واحداً واحداً، لذلك فإننا نختار منها نماذج قليلة نوردها للذكرى فقط، فمنها ما جرى على يديه في الاحساء من تقويم قبلة جامعها الأكبر الواقع في حي الرفعاء والمعروف بجامع الشيخ محمد أبي خمسين، فقد كان المصلون في هذا الجامع يستقبلون القبلة منحرفين عن ضلعه الغربي، وقد بذلت قبل المؤلف جهود كثيرة ومحاولات متعددة لاصلاح هذا العيب فلم تجد شيئاً وظل هذا الانحراف قائماً الى ان قدَّر الله ان يتم اصلاحه على يدي المؤلف ويتم بسبب ذلك توسيع الجامع أيضاً. ومن طريف ما يذكر في هذا الشأن ان اصلاح المسجد على يدي المؤلف أمر كان قد تنبأ به العلامة الشيخ محمد أبو خمسين، وكان من العلماء الذين عرفوا بالكرامات والفراسة الصادقة، فانه يحكى عنه انه قال ستظل قبلة

المسجد منحرفة حتى يرد الى البلاد عالم من بلاد العجم اسمه علي يكون إصلاح القبلة على يديه، وهي من الحكايات المشهورة المتداولة بين كبار السن في الاحساء. ومن مؤسسات البر التي قامت على يديه مسجد وحسينية في حي الرقيات بالهفوف، وهما الآن من أكثر المحافل الدينية في الاحساء ازدحاماً وحضوراً بالمؤمنين. وفي الكويت جرى على يديه تشييد أول مئذنة في مساجد الشيعة، وهي هذه المنارة القائمة حالياً في مسجد الصحاف، وقد تم بناؤها سنة ١٣٦٨هـ. ومن الشعراء من أرخها بقوله «أنارها حيَّ على خير العمل»، ومما أقيم في الكويت على يديه الحسينية المعروفة بالجعفرية والحسينية العباسية ومسجد الحاكة الذي أعيد بناؤه في موقع آخر وعرف بمسجد الامام الصادق. وفي كربلاء أعيد على يديه بناء الحسينية المعروفة باسم حسينية الحائري، وقد هدمت بعد وفاته وأعيد بناؤها في مكان يقع بمنتصف الطريق في الشارع الموصل بين الروضة الحسينية والروضة العباسية. هذا غيض من فيض مما شيد على يديه من مؤسسات البر والخير في مختلف البلاد ذكرنا منه نماذج قليلة للذكرى فقط كما قلنا.

(٧)
صفاته البدنية والنفسية وأحواله

ولقد عايشت المؤلف رحمه الله مدة تربو على خمس سنوات بعد وفاة والده في الخامس من رمضان من السنة ١٣٦٤هـ. وكنت ملازماً له مثل ظله في حلّه وترحاله، وكان هو قبيل الستينات من عمره الشريف، ومع ذلك فقد كان صحيح الجسم قوي البنية لم يمرض قط ولم يعرض نفسه على طبيب، يتدفق نشاطاً وحيوية يعز وجودها في كثير من شباب عصره فضلاً عن كهوله وشيوخه. كان ربعة بطيناً عريض الكتفين أبيض مشرباً بحمرة قليلاً غائر العينين غليظ الحاجبين معقوديهما فيما بين عينيه عريض الناصية ضخم الجمجمة كثيف اللحية، وكان يسودها فلما توفي أبوه أطلقها من غير صبغ فبدت بيضاء ليس فيها شعرة سوداء، وكان ذلك يزيده هيبة ووقاراً، وكان رحمه الله وضيئاً مهيباً حيياً متواضعاً يقف لكل قادم عليه في مجلسه، واذا مشى انحنى قليلاً الى الامام، وكان قصير الخطى في مشيه سريعها ناظراً قدامه غير بعيد من موطىء

قدميه، وكان دأبه رحمه الله إزاحة الأذى عن طريقه من حجر وغيره، وكان يذكر الله في قيامه وقعوده ومشيه، قليل الكلام كثير الصمت شديد الانصات لمن يخاطبه، واذا سئل أطنب في الجواب وذكر الفروع والأصول فأخذ بالألباب واستولى على أزمة القلوب لعذوبة حديثه وسعة علمه، وكان لا ينطق في أحاديثه الارشادية ومحاضراته بغير الفصحى الا قليلاً وحيث لا مفرّ له من العامية.

وكان رحمه الله اذا قضى بين خصمين حثهما على المصالحة وذكر لهما فضل الصلح وأبان أنه أحوط للمرء في دينه وخير له في دنياه، فإذا تصالحا على شيء قضى لهما بما تصالحا عليه، والا أعانهما على الصلح من حضر مجلسه من أصحاب الخير والفضل، وما رأيته يقضي بالبيّنة واليمين الشرعيتين الا في حالات الخصومة على أموال الموتى، وما كان ذلك منه كذلك الا ترفقاً منه بالمتخاصمين كراهة أن يأثموا اذا نبذوا ما قضى به وردوا حكمه، ففي ذلك نبذ لحكم الامام عليه السلام ورد لقضائه وهو من الكبائر المهلكة.

ولقد كان رحمه الله عابداً ذاكراً، يحافظ على مواعيد الفرائض والنوافل ويكثر من قراءة القرآن والاوراد والاذكار والأدعية، وكان يجري في ذلك على نسق معروف يتكرر كل يوم. وخلال الفترة التي عايشته فيها لم أذكر انه قد تخلف قط، ظاعناً كان أم قاطناً، عن أداء الفرائض والنوافل اليومية في مواقيتها المعلومة، وما انقطع عن صلاة الليل في حضر أو سفر أو مرض، فلقد رأيته يصليها على ظهر الراحلة في القطار جالساً، وعندما أصيب بالأزمة القلبية الأولى كان ذلك في الثلث الأخير من الليل، وقد منعه الطبيب من الحركة والكلام، فرأيته

يصليها عند ذلك مضطجعاً مومئاً برأسه الى جهة القبلة، وهكذا تكون عبادة المؤمنين المخلصين.

عاش المؤلف رحمه الله فقيراً معظم حياته الا شطراً من أخريات أيامه، كان يأكل القليل ويفترش البسيط ويرتدي الضئيل، وكان يحب مجالسة الفقراء ويأنس بهم ويألفهم أشد الالفة وأحسن الانس، وكان من دأبه في الاحساء أن يدعو الى تناول العشاء معه رجلاً أو أكثر من فقراء أصحابه يسامرهم ويتجاذب معهم أطراف الحديث. وكان لا يغشى مجالس ذوي النفوذ وأصحاب السلطان الا لماماً في المناسبات التي لا مناص له فيها عن غشيانهم، فإذا جاءهم في نواديهم استقبلوه بالتعظيم والاجلال، وكان أمراء الكويت يوقرونه ويجلونه لما كان له من تاريخ مجيد ومواقف حميدة فيما تعرضت له الكويت من أزمات، مثل غزو الاخوان للجهراء بقيادة الدويش وبناء سور المدينة في السنة ١٩٢٠م، فقد ساهم المؤلف مع الشعب والحكومة في الدفاع عن المدينة وبناء السور، إذ أخذ على عاتقه تعبئة جماعته للمشاركة في بناء السور واعدادهم للدفاع عن البلاد. ولقد كان أمير البلاد آنذاك الشيخ سالم الصباح رحمه الله يترجل عن ظهر جواده كلما صادف المؤلف في الطريق وبصر به مقبلاً عليه إجلالاً له وتعظيماً لمكانته وتقديراً لمواقفه الوطنية.

قلنا صرم المؤلف أيامه فقيراً سوى الايام الأخيرة من حياته، فقد أصاب قبيل السبعينات من عمره ثروة متواضعة من عقارات كان قد اشتراها رخيصة فغلت أثمانها وارتفعت أضعافاً كثيرة في مدة قصيرة نسبياً، فأفاد من ذلك غناءً أعانه على امتلاك عقارات ودارين للسكن في

كربلاء، وقبل ذلك لم يسكن في دار من ملكه لا في كربلاء ولا في الاحساء ولا في الكويت، ففي كربلاء كان يسكن في دار أبيه ثم انتقلت ملكيتها الى ورثته بعد وفاته وصار المؤلف يشارك إخوته في ملكيتها، وفي الكويت كان المؤلف يسكن داراً موقوفة على إمام مسجد الصحاف، فلما هدمت لاغراض التنظيم البلدي صار ينتقل من دار الى اخرى من املاك الحكومة، حتى خصصت له دار من بيوت ذوي الدخل المحدود في منطقة الرميثية، ثم عاجله الموت فلم يتمكن من سكناها فسكنها الصغار من أولاده.

وقد تزوج المؤلف رحمه الله خمساً طلق منهنَّ اثنتين وماتت إحداهنَّ في حياته، ولما توفي رحمه الله ترك خلفه أرملتين، ورزق من الذرية أربعة عشر ولداً بين ذكر وأنثى، توفي في حياته منهم بنتان وابن واحد كانوا جميعاً في سن الطفولة، وما زال الباقون، وهم أحد عشر ولداً بين ذكر وانثى احياءً يرزقون، أطال الله في أعمارهم وجعلهم ذكراً حسناً لأبيهم، فالمرء يحفظ في ولده.

(٨)

وفاته وتشييعه ودفنه

وفي آخر جمعة من رمضان خطب الناس بين الظهرين، كما هو دأبه في كل جمعة يتيمة، وذكر في هذه الخطبة كلاماً فيه حث على البر والتقوى ومساعدة الفقراء واليتامى وذوي الحاجة، وحض على زكاة الفطرة واخراجها الى مستحقيها في موعدها، وجرى على لسانه في تلك الخطبة حديث من ينعي نفسه الى الناس، ومما قال فيها «اني قد لا أكون بينكم يوم العيد فالله الله في فقرائكم وأصحاب الفاقة من أرحامكم ويتامى موتاكم وجيرانكم وذوي قرباكم» وكانت هذه آخر خطبة له، فقد مات بعد ذلك في أقل من عشر ساعات لاصابته بنوبة قلبية حادة وكان إذ ذاك في الحسينية العباسية، فنقل الى المستشفى ولكن كانت روحه قد فاضت في الطريق رحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وكان له من العمر حينئذٍ أكثر من ثمانين سنة بحساب التقويم القمري وقريباً من ثمانية وسبعين عاماً بحساب التقويم الشمسي.

ولقد ساءت صحته الجسمانية في السنوات الخمس الأخيرة من عمره الشريف، فقد ظهرت عليه الشيخوخة وأخذ ينحل جسمه ويضعف بصره ويثقل لسانه وسمعه ويرق صوته حتى كان في أيامه الأخيرة يتوكأ على من يجاوره من أصحابه في مشيه وقعوده، وكاد لا يسمع صوته من فرط ما به من ضعف، الا انه لم يلزم الفراش ولم تتأثر مشاعره وأحاسيسه الباطنية بالشيخوخة. وقد مات فجأة لاصابته بجلطة قلبية، وكان قد أصيب بها قبل ذلك وعولج منها في المستشفى الأميري حيث ظل مستجماً فيه مدة تربو على شهر، ثم خرج صحيحاً قوياً معافى، وكان ذلك في أواخر ديسمبر من السنة ١٩٦٤م. ثم حج في العام الذي يليه فعاد من الديار المقدسة صحيحاً لم يصبه سوء، وكان ذلك من أعجب الأمور فقد كان وقتذاك في سن السبع والسبعين سنة، ولكن قوة الايمان ومضاء العزيمة ساعداه على ان يتحمل مشاق المناسك ويصابر على صعوبات الطريق.

ولقد كان يوم وفاة المؤلف رحمه الله من الايام المشهودة في الكويت، فقد خيم الحزن فيه على كثير من الناس، بكت لفقده الرجال وناحت على فراقه النساء والصبيان، وبقي جثمانه في الجعفرية مسجى ليومين انتظاراً لقدوم أخيه العلامة الحاج ميرزا حسن الحائري من إيران للصلاة عليه والاشتراك في تشييعه وتجهيزه، فلما تأخر أخوه وخيف عليه من الفساد صلّى عليه تلميذه الشيخ حسين الفيلي رحمه الله ونقل جثمانه في اليوم الثالث الى كربلاء في تشييع مهيب نقل أخباره عدد من وكالات الأنباء وأذيعت من إذاعة الكويت ولندن وغيرها، وخرجت لتشييعه مئات السيارات من الجعفرية الى مركز صفوان الحدودي،

فتعطل لذلك في هذا اليوم نظام المرور في الشوارع التي كان يمر بها جثمانه الطاهر، وفي مراكز الحدود فتحت للمشيعين الأبواب على مصاريعها فلم تجر مراقبة وتدقيق في الجوازات، ودفن رحمه الله في كربلاء في العقار الذي كان يملكه وكان يقع شمال شرق الروضة الحسينية المشرفة ملاصقاً لحسينية الحائري مما يلي زاويتها الشمالية الغربية. فلما هدم هذا العقار للتنظيمات البلدية في سنة ١٤٠٠هـ. نقل جثمانه الطاهر الى مثواه في مقبرة الأسرة الواقعة في باب الطاق غير بعيد من الروضة الحسينية، فدفن رحمه الله هناك الى جوار جده وأبيه وأمه وأخيه العلامة الطبيب الماهر ميرزا محمد باقر الحائري، الذي كان رفيق دربه في رحلاته وأمين سره في خلواته، وقد كان ميرزا محمد باقر هذا أول من لبى نداء ربه من أسرة والد المؤلف رحمه الله ودفن هناك. وفي سنة ١٤٠٣هـ، نقل الشيخ رياض طاهر البستاني عظامه الزكية من مقبرة الاسرة فدفنة في حسينية الحائري في موقعها الجديد بين الروضة الحسينية المشرفة والروضة العباسية المكرمة، وكان ذلك من الشيخ رياض لما كان يعرف من رغبة المؤلف في أن يكون مثواه قريباً من مكان تجمع زوار الحسين وحيث تقام المآتم الحسينية فيه.

وقد أقيمت للمؤلف رحمه الله مآتم تأبينية كثيرة في مدى أربعين يوماً بعد وفاته وفي ذكرى مرور سنة على وفاته في الكويت والاحساء والبحرين والعراق، والقيت فيها العديد من كلمات النثر وقصائد القريض والنبط. وليس هنا مقام ذكرها، ولكن أجد من المناسب أن أختم ترجمة حياة المؤلف بأبيات من الشعر الجميل تتضمن تاريخ وفاته بحساب الحروف الأبجدية، نظمها الشاعر الاستاذ عبد العظيم الربيعي،

وهي هذه الأبيات :

هــذا علــي قــد دعــاه الــى　　　جـــــوارهِ الله قلبـــــاه
وجنــة الفــردوس قــد فتحــت　　　أبــوابهــا شــوقــاً للقيــاه
فــابشــر لــك الخيــر بمــا نلــت مــن　　　فتــــح مبيـــن تتـــوخـــاه
واشكــر إلهــا «لــك» يــا عبــده　　　أرختـــــــه «ليغفـــــــر الله»

(ليغفر لك الله ١٣٨٦)

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

صالح باقر السليمي
الكويت في ٢١/ ٥/ ١٩٨٦م

تعريف بشيوخ المؤلف ومن يروي عنهم

* احمد بن ابراهيم بن محمد بن محمد بن الحسن بن أبي المحاسن بن زهرة الحلبي، ولد في رجب سنة ٧١٧هـ، وتوفي في صفر سنة ٧٩٥هـ في حلب «هذا في الدرر الكامنة» وأما في البحار انه ولد سنة ٧١٨ وتوفي بحلب في ذي الحجة سنة ٧٤٩هـ، ولعله أراد سنة ٧٩٤هـ، ودفن في مقابر الصالحين عند مقابر الخليل (ع).

* الشيخ أحمد بن زين الدين بن ابراهيم بن صقر بن داغر الاحسائي المطير في، ولد في قرية المطير في الاحساء سنة ١١٦٦هـ وتوفي في هدية قرب المدينة المنورة سنة ١٢٤١هـ، ودفن بالبقيع وله مؤلفات عديدة تنوف على المائة مؤلف في مختلف العلوم وكلها مطبوعة الا القليل ومن مصنفاته «شرح الزيارة الجامعة الكبيرة».

* الشيخ جعفر ابن الشيخ خضر بن يحيى الجناجي، له كتاب مشهور بكشف الغطاء وهو كتاب كبير في الطهارة شرحاً على طهارة الشرائع، توفي في النجف يوم الاربعاء ٢٢/ رجب/ ١٢٢٧هـ.

* **الشيخ جعفر بن محمد بن موسى بن قولويه القمي**، له تصانيف منها «جامع الزيارات» المتوفى سنة ٣٦٨هـ.

* **الميرزا حسن بن علي الشهير بـ«كوهر»**، وهو من تلاميذ الشيخ أحمد الاحسائي وله مصنفات كثيرة منها «شرح حياة الأرواح» توفي سنة ١٢٦٦هـ.

* **حسن بن محمد بن حسن الطوسي**، المتوفى في سنة ٥١٥هـ.

* **العلامة الحسن بن يوسف المطهر**، (٦٤٨ ـ ٧٧٦) ـ (١٢٥٠ ـ ١٣٢٥م) المعروف بالعلامة أشهر كتبه النكت البديعة في تحرير الذريعة.

* **حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي**، والد الشيخ البهائي، ولد أول محرم سنة ٨١٨هـ، وتوفي ٨ ربيع الأول سنة ٩٨٤م وله تصانيف في شتى العلوم منها دراية الحديث.

* **الشيخ أبو عبدالله الحسين بن عبيد الله الغضائري**، المتوفى سنة ٤١١هـ.

* **زين الدين بن علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي ابن صالح بن أشرف الجبعي العاملي الشامي**، «المعروف بالشهيد الثاني» صاحب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، واستشهد في ربيع الأول ٩٦٥هـ بأرض روم.

* **سالار أو سلار بن عبد العزيز الديلمي**، له كتاب المراسم العلوية والاحكام النبوية، توفي في ٦ رمضان سنة ٤٦٣هـ.

* **الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن طرادة (المطار بادي)،** المتوفى يوم الجمعة أول رجب سنة ٧٦٢هـ.

* **الشيخ أبي الحسن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المشتهر بالشيخ الصدوق،** صاحب كتاب من لا يحضره الفقيه، المتوفى سنة ٣٨١هـ.

* **السيد كاظم الرشتي الحسيني،** هو تلميذ الشيخ أحمد الاحسائي وله مصنفات كثيرة منها «شرح الخطبة الطتنجية» و«شرح آية الكرسي» وتوفي سنة ١٢٥٩ .

* **الشيخ المرتضى «علم الهدى» هو أبو القاسم علي بن السيد النقيب بن موسى بن جعفر الصادق (ع)،** المتوفى سنة ٤٣٦هـ، له كتاب «الشافي» في الامامة والذريعة في الأصول وكتاب «غرر الفوائد ودرر القلائد»، في الأدب والنحو والصرف.

* **السيد علي بن السيد محمد بن علي بن أبي المعالي،** «صاحب الرياض» ولد سنة ١١٦١هـ، وتوفي سنة ١٢٣١هـ.

* **محمد باقر بن محمد أكمل البهبهاني المعروف بالوحيد البهبهاني،** ولد باصفهان سنة ١١١٨هـ أو سنة ١١١٧هـ توفي سنة ١٢٠٨هـ بكربلاء.

* **الشيخ محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود المجلسي،** «صاحب البحار» المتوفى سنة ١١١٠هـ.

* **الميرزا محمد باقر بن ملا محمد سليم الاسكوئي الحائري،**

وهو تلميذ الميرزا حسن الشهير بـ«كوهر» وله مصنفات كثيرة منها «حق اليقين ـ ومصباح المنير» توفي سنة ١٣٠١هـ.

* **شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن أبي جعفر الطوسي**، صاحب كتاب «التهذيب» والاستبصار فيما اختلف من الاخبار، ولد سنة ٣٨٥هـ، توفي سنة ٤٦٠هـ.

* **الشيخ محمد بن حسين بن عبد الصمدالعاملي الحارثي المعروف بالشيخ البهائي**، ولد سنة ٩٥٣هـ ومن كتبه «الجامع العباسي في الفقه» وله أيضاً بالعلوم الغريبة مثل كتاب مشرق الشمسين وغيره المتوفى سنة ١٠٣٠هـ.

* **الميرزا موسى بن محمد باقر الحائري الاسكوئي**، وهو تلميذ أبيه الميرزا محمد باقر الحائري ومحمد بن عيثان وغيره واشهر مصنفاته كتاب «احقاق الحق» توفي سنة ١٣٦٤هـ، وهو أب المترجم له.

* **فخر الدين أبي طالب الشيخ محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي**، الملقب «بفخر المحققين» أول مؤلف له «كتاب القواعد» وعمره ١٠ سنوات حيث اجتهد بهذا السن المتوفى سنة ٧٧١هـ.

* **الشيخ الشهيد السعيد شمس الدين أبو عبدالله محمد بن جمال الدين بن مكي بن محمد بن حامد بن أحمد النبطي العاملي الجزيني**، صاحب كتاب «اللمعة الدمشقية» واستشهد سنة ٧٨٦هـ.

* **السيد تاج الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الحسين بن معية الحسين الحلي الديباجي**، وله تصانيف منها «كتاب في معرفة

الرجال» المتوفى سنة ٧٧٦هـ.

* **السيد محمد بن علي بن أعرج الحسين العبيدلي**، وهو يروي عن العلامة وإليه ينتسب آل أعرجي أخوال جد المؤلف «المترجم له».

* **الشيخ محمد بن عمر بن عبد العزيز بن أبي عمر الكشي**، صاحب كتاب الرجال المتوفى سنة ٣٦٧هـ.

* **الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن داود**، يروي عن الشيخ ضياء الدين علي ابن الشهيد الأول.

* **الشيخ قطب الدين محمد بن محمد الرازي**، «مؤلف شرح الشمسية» المتوفى سنة ٧٦٦هـ.

* **الشيخ السعيد أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام بن جابر بن نعمان بن سعيد العربي العكبري البغدادي**، الملقب «بالمفيد» ولد سنة ٣٣٦هـ من مصنفاته «الرسالة المقنعة» المتوفى ليلة الجمعة ٣ رمضان سنة ٤١٣هـ.

* **الشريف السيد أبو الحسن محمد بن أبي أحمد حسين بن موسى ابن ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق (ع)**، ولد سنة ٣٥٩هـ وله كتاب «نهج البلاغة» المتوفى سنة ٤٠٦هـ.

* **مولانا السيد مهدي بن السيد مرتضى بن محمد الحسني الحسيني الطباطبائي النجفي الملقب «ببحر العلوم»**، ولد سنة ١١٥٥هـ، المتوفى سنة ١٢١٢هـ.

* **الشيخ الامام رئيس المحدثين ثقة الاسلام محمد بن يعقوب**

الكليني الرازي، صاحب كتاب «الكافي» توفي سنة ٣٢٩هـ.

* الشيخ سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر الحلي.

بقلم كمال الدين ميرزا علي الحائري

سماحة العلامة (المؤلف) وهو على منبر الحسينية الجعفرية



آلاف المستقبلين للمؤلف في احدى سفراته الى إيران

جثمان سماحة العلامة «المؤلف» في الحسينية الجعفرية

حفل التأبين الذي أقيم في الحسينية الجعفرية

الرسالة الأولى

في دليل حرمة بعض الحيوانات
وحلية بعضها الآخر

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على ساداتنا محمد وآله الطاهرين وبعد ، فيقول الأحقر الأفقر الفاني علي بن موسى الحائري انه أتاني سؤال من البحرين والسائل يريد الجواب على سبيل العجلة ، فأتيت بما هو الميسور في أثناء السفر راجعاً من حج بيت الله الحرام وزيارة النبي وأئمة البقيع الكرام (عليهم السلام) على طريق الإحساء إلى الكويت إلى العراق مع تبلبل البال وكثرة الاشتغال وعلى الله التكلان في كافة الأمور .

قال السائل :

« ما دليل حرمة بعض الطيور وبعض الحوت وبعض حيوان البر وحلية بعضها مع مساواتها في الجنسية ؟ ويكون الدليل عليه بآية من القرآن أو دليل عقلي تقبله العقول » .

أقول وبالله التوفيق :

اعلم أن القرآن نزل معجزاً للنبي (صلى الله عليه وآله) مصدقاً

لدعواه شاهداً على حقيّته إلى يوم القيامة ، وليس متكفلاً لبيان جميع الأحكام وتفصيل كل حلال وحرام ، بل المتكفل لذلك قول الرسول (صلى الله عليه وآله) وفعله وتقريره المعبر عن الكل بالسنّة ، والذي ورد بالقرآن من الأحكام فإنما هو في الغالب لتشريع أمهاتها إجمالاً فقط ما عدا موارد الإرث ، كيف والآيات المتضمنة للأحكام لا تتجاوز عن خمسمائة آية تقريباً ومسائل الصلاة فقط تقرب من اثنتي عشرة ألف مسألة على ما قيل ، فأية آية كافلة لمداركها وشارحة لأفعالها وأقوالها وما يقرأ في ركعاتها من السور والأذكار .

مثلاً قوله سبحانه : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر** ﴾[1] إن أنبأنا عن عدد الصلوات الخمس فرضاً ، فلم يكشف لنا عن عدد ركعات صلاة الظهر أو العصر والمغرب والعشاء والفجر ، فضلاً عن الشروط والأجزاء والمقدمات ، وعمّا يقرأ في الركعات ويؤتى به من الحركات والسكتات ، فضلاً عمّا يعالج به في السهو والشكوك أو يتدارك به الخلل ، وما كنّا نستفيد من القرآن لهذه الأمور حكماً لا إجمالاً ولا تفصيلاً لولا بيان النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله وفعله وتقريره ، وكذلك شروط الزكاة ، وفي أي شيء تجب ومتى تجب غير موجودة في ظاهر الكتاب . ومثلها أفعال الحج ومناسكه الكثيرة والعمرة ومواقيتها لا تجد بيانها وتفصيلها إلا في سنّة النبي (صلى الله عليه وآله) وقسّ على ذلك أبواب الفقه طراً من الطهارة إلى الديّات ، فقوله تعالى : ﴿ **وتفصيل كل شيء** ﴾[2] لم يعن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.

ظاهره ، بل أراد ما هو أعم من الظاهر والتأويل والباطن ، ولو سلم فالاستنتاج من ظاهره لا يتأتى إلا لمن عنده علم الكتاب كله ، قال تعالى : ﴿ **كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾[1] وذلك هو المصطفى من العباد الوارث له في قوله سبحانه : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾[2] وهو الثقل الأصغر الموصى بالتمسك به في الأثر المتواتر بين المسلمين : « إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً »[3] . وبالجملة فالمتبع القرآن توأماً مع سنّة النبي (صلى الله عليه وآله) ، وظاهر القرآن وحده لا ينهض كافياً لبيان الأحكام وتفصيل فروع الإسلام من عامة الحلال والحرام كما هو واضح لمن ألقى السمع وهو شهيد .

نعم أصول الإسلام من التوحيد وبعض فروعه وختام النبوة بمحمد (صلى الله عليه وآله) والمعاد يوم القيامة فالقرآن فيه تمام الكفاية وغاية المطلب ، لأنه ما صدر إلا تثبيتاً له ولا أنزل إلا مصدقاً إياه بخلاف سائر الفروع ومسائلها ، ومن رام لكل جزئي من أحكام الإسلام مدركاً من الكتاب لا غير ولم يقبل حكماً إلا به فقد طلب متعذراً أو معسوراً ولم ينل إلا حدوداً مزجاة وعطل جل المسائل وعمدتها .

فنقول إن هذا السائل العصري الذي يطلب مدركاً لحرمة بعض اللحوم من القرآن أو من دليل العقل لا يخلو إما أنه مسلم قائل بالقرآن أو

---

(١) سورة الرعد، الآية : ٤٣ .

(٢) سورة فاطر، الآية : ٣٢.

(٣) أمالي الطوسي : ص٥٦٠ مجلس يوم الجمعة .

غير مسلم ، فإن كان الأول كما هو الظاهر من عنوان السؤال وطلبه الدليل من القرآن ، فيقال له إن قول الله (عزَّ وجلَّ) في محكم كتابه في سورة الحشر : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1] يلزمنا بالإنتهاء عن كل ما ثبت نهي النبي عنه مطلقاً بالقرآن وغيره ، ولا يختص بمحرمات القرآن ، بل ظاهر في غير نواهي القرآن ، لأن منهيات القرآن تعد من نواهي الله (عزَّ وجلَّ) لا من نواهي الرسول . وليس لهذا المسلم محيص عن الإلتزام بحرمة ما ثبت نهيه عن الرسول إما بالسنة المتوترة أو بخبر صحيح أو محفوف بقرائن الصحة كما التزم في أركان العبادات وأجزائها وشروطها وأفعالها بما ثبت من السنة ولم يطلب لها دليلاً من القرآن أو من العقل ، فلا يجوز له التوقف في حرمة ما ثبت النهي عنه ولا يسوغ له أن يحصر الدليل في القرآن أو العقل ، لأن الذي دل على اتّباع القرآن بعينه هو الذي دلّ على اتّباع السنّة بلا تفاوت .

ومن كان متّبعاً ومصدقاً (بصيغة المفعول) في شرح إجمال قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[2] وبيان أقسام الصلاة وأنواع الزكاة وشروطها كان أيضاً هو المتبع (بصيغة المفعول) في كشف القناع ورفع الأبهام عن قوله سبحانه : ﴿ **كلوا من طيّبات ما رزقناكم** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **لا تحرموا طيبات ما أحلَّ الله لكم** ﴾[4] وكان تفسيره وبيانه هو المستند في تمييز الطيبات عن

(١) سورة الحشر، الآية : ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية : ٤٣ .
(٣) سورة البقرة، الآية : ٥٧ .
(٤) سورة المائدة، الآية : ٨٧ .

الخبائث وتفصيل المحللات والمحرمات . فما بالهم يؤمنون ببعض السنة ويكفرون أو يتوقفون في بعضها ، وما ذلك من بعضهم إلا الفرار عن الانقياد ببعض التكاليف بعذر عدم وجوده في القرآن .

نعم لهذا المسلم أن يتفحص عن السر والحكمة في حرمة بعض اللحوم حتى يزيد علماً وبصيرة في الدين ويطمئن قلبه بحقّية منهجه ويقوي سلاحه في الجلب أو الدفع ، لا أن يحصر الدليل في القرآن أو العقل مع وجود السنّة المقبولة ، فيقال له حينئذ أن هذه المحرمات ليست بجمعها خاصية واحدة وجهة خاصة حتى يبين أن حرمتها كانت من تلك الجهة ، بل لكل نوع من اللحوم تأثير خاص في الضرر والفساد ، فبعضها يضر قوة الحافظة وبعضها يورث البلادة وبعضها يولد القساوة ، وقسم منها يذهب الحياء أو يورث الجبن أو البرص أو الجذام أو مرض الصداع دائماً أو نقصان العقل ، أو ينفد الحرارة الغريزية سريعاً ، أو يوجب ضعف البصر أو الدماغ أو غير ذلك ، ولا يحيط بتلك المضار والخاصيات إلا خالقها ومن أوحى إليه علمها وقد تكفل بعض الكتب (كحياة الحيوان) ونحوه لبيان بعض خواصها .

وفي هذا القرن كشف بعض علماء الغرب المتوغلين في الثقافة عن بعض الحقائق والأسرار ، لما تيسر لهم استخدام آلات الكشف ، فعرفوا سر حرمة لحم الخنزير وحرمة الخمر وسبب تبعيد الكلاب ، وحكمة بعض الواجبات والمندوبات ، وتبين لديهم أن منع الحكيم عن بعض الأمور وندبه أي بعض ليس خرساً أو جزافاً أو هوى نفس أو تنفر طبع ، بل عن مضار ومنافع ومصالح ومفاسد كامنة في تلك الحقائق ، وربما بعد حين يعثرون على غالب الأسرار والحكم الظاهرية إذا قويت

أفكارهم وتسهلت لهم الآلات .

وأما تساوي اللحوم في الجنسية ، كما في السؤال ، فلا يوجب مساواتها في التأثير ، إذ لكل نوع منها تأثير خاص غير تأثير الآخر ، كما أن النباتات والأثمار لكل منها خاصية غير الأخرى بعضها سم قاتل وبعضها مرّ لاذع والآخر حلو وصنف منها حار وآخر بارد ، مع أن الجنس واحد وكلها مساو في النباتية . كذلك أقسام الجماد والأحجار والمعادن مع تساويها في الجنسية مختلفة اختلافاً فاحشاً في التأثير والخاصية ، ولاختلاف هذه اللحوم في المضار وشتات جهاتها وعدم إمكان الإحاطة بها لا يمكن إقامة البرهان العقلي على مجموعها ، إلا فيما ثبت الضرر الحسّي فيه .

وقد كشف الحكيم بما تلقاه بالوحي الخاص من خالق الطبائع مع النهي عنها عن وجود مضار في تلك اللحوم إجمالاً وحصر الحلال من الحوت فيما له فلس والحرام في غيره ، والحلال من الطيور فيما ليس له مخلاب ، وفيما دفه أكثر من صفه ، وفيما له قانصة أو حوصلة أو صيصية ، والحرام فيما عداها . وحصر الحلال من حيوان البر في ذوات الخف والحافر والظلف والحرام في سوى ذلك ، فعرفنا من ذلك أن القسم الحرام من تلك اللحوم فيه بأس ، بمعنى أن البأس والضرر منحصران فيه ، أي في نوعه ، مثلاً في نوع ما له مخلاب من الطيور لا في كل فرد فرد ، وربما يكون بعض الأفراد والأصناف من ذلك النوع خالياً من البأس في نفس الأمر ، لكن لعسر الإطلاع على ذلك الصنف أو الفرد من آحاد البشر حرم الجميع حكمة لا علة ، فالتكليف هو الاجتناب عن الجميع في ظاهر الأمر حذراً من الوقوع فيما به بأس ،

فتبصر .

ثم إن العارف إذا تيقن من مهارة الحكيم وقوته في العلم والفكر من سيرته وقوانينه الموضوعة في الحقوق والمعاملات وغير ذلك ، ورآها كلها موافقة في نظر العقل والوجدان ، ولم يعثر على خدشة أو عثرة قط في ذلك ، ثم صادف بعضاً من قوانينه لم يعرف له وجهاً أو مدركاً ، فلا ينبغي له أن ينكر هذا القانون أو أن يطعن فيه ، بل الواجب منه أن يبذل الجهد ويتعب نفسه في معرفة سرّه ودرك مدركه بأعمال الفكر أو السؤال حتى يقف على ما يطمئن به أو يصدقه تسليماً قياساً على سائر قوانينه الثابتة المسلمة ، أو يتوقف عن مخالفته ، لأنه ما صدر إلا عن حكيم قوي مذعن له غير مجازف .

مثال ذلك أن عثر على صنعة ، كسيارة عجيبة أو طيارة بديعة ذات أدوات وآلات كثيرة محكمة ، وعرف الحكمة في عمدة هذه الآلات واطلع على سرّ وضعها وغاية صنعتها حتى اطمأن بعلمه ومهارته وإتقانه ، ثم عثر في هذه الصنعة العجيبة على آلة صغيرة لم يعرف فائدتها والحكمة في وضعها ، فهل يسوغ له أن يقدح في وضع هذه الآلة أو يجوز له أن يأمر برفعها وقلعها من حيث عدم إحاطته بسرها أو لا ، بل ينبغي له أن يرقي فكره حتى يصيب حقيقته وسرّه ، أو يسأل من صاحب تلك الصنعة أو من يساويه المهارة كي يقع على غايتها ويصل إلى معرفتها ، أو يسكت وينسب القصور إلى فهمه وإدراكه بالأخص إذا كان هذا المتفحص واثقاً بصاحب هذه الصنعة معتقداً نبوّته وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، فكيف يصح منه التردد أو الاعتراض والقدح ، بل عليه أن يقول لا بد لهذا القانون من حكمة ، لكن ذراعي

قاصرة عن منالها وفكري محجوب عن إدراكها . هذا هو معنى التسليم الوارد في كثير من الأخبار فافهم .

كل ما ذكرناه إنما يجري على السائل العصري إن كان من أهل الإسلام والإيمان وأما إن لم يكن من أهل الإسلام والقرآن ، فالكلام معه في فروع الدين وجزئياته وإقناعه من أصعب الأمور ، إذ ليس هناك بين الطرفين أصول مسلمة قاطعة للنزاع يرجع إليها ، بالأخص إذا لم يكن من أهل ملّة ودين ، بل كان طبيعياً ملحداً أو دهرياً ، فإن لم يثبت له ضرر حسّي وجداني لا ينكره أو ضرر منصوص عليه من أساتذة علم الصحة المقبولين عنده ، فهيهات من إقناعه وإدخال شيء من هذه الأمور في فكره ، فينبغي في مثل هذه الموارد الكلام معه في أصل الدين أو المذهب . وبعد إثبات حقية الأصل عليه وإلزامه به يكون الكلام في الفروع سهلاً جداً ، بل المجادلة لكل ذي مذهب مع صاحب مسلك آخر في جزئيات المذهب وفروعه تضييع للكلام وتفويت للعمر ، إن لم يكن في البين أصل مسلم أو حكم عقل قاطع . ومن اللازم حينئذ صرف الكلام إلى أصل المذهب كي يبتنى عليه الفروع .

مثلاً يصعب على الشيعي إثبات استحباب السجدة على التربة الحسينية على المسلم السنّي ، كما يعسر على هذا السنّي إثبات وجوب التكفير أو استحبابه على المسلم الشيعي ، إذ كلٌّ من الطرفين في دعواه يستند إلى نقل وحديث غير مسلم عند صاحبه ، فإذا تحاورا في أصل المذهب وأثبت أحدهما حقيقة مذهبه على الآخر هان الأمر وسهل الخطب وأمكن إثبات الفرع من غير كلفة بالأصول المسلمة في المذهب فتفطن .

هذا آخر ما سنح بالبال على العجالة في هذا المرام والصلاة والسلام على محمد وآله سادات الأنام والحمد لله الملك العلّام في الابتداء والاختتام حرر في النصف من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .

الرسالة الثانية

في شرح قول الإمام « وفيك انطوى العالم الأكبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، محمد وآله الشرفاء العرفاء ، ولعنة الله على مخالفيهم وأعدائهم اللعناء السخفاء .

وبعد ، فقد قال مولانا سيد الكونين أمير المؤمنين (عليه السلام) في الأبيات المنسوبة إليه :

دواؤك فيــــك ومـــا تشعـــــر ... وداؤك منــــك فـــلا تبصـــــر
أتــــزعـــم أنـــك جــــرم صغيــــر ... وفيــك انطــوى العــالــم الأكبــر
وأنـــت الكتــاب المبيـــن الـــذي ... بـــأحــــرفـــه يظهــــر المضمـــر

وقد سألني جناب الأكرم زبدة الأحبة والأعيان الحاج ياسين بن الحاج عبد الله آل رمضان وفّقه الله لمرضاته عن شرح البيت الثاني ، فأجبته بما هو الميسور إذ لا يسقط بالمعسور .

اعلم ، بصّرك الله بخفايا الأمور وحقائق العوالم والدهور ، أن لنا ثلاثة عوالم ، وإن شئت قلت ثلاثة أناسي : (الأول) العالم الكبير ويعبر عنه بالإنسان الكبير ، يطلق على هذا العالم الدنيوي بما فيه من

العرش والكرسي والسموات والأرضين إلى ما تحت الثرى . (الثاني) العالم الوسيط ويعبر عنه بالإنسان الوسيط ، يطلق على المولود الفلسفي ، وهو الكيمياء ومرآة الحكماء . (الثالث) العالم الصغير ويعبّر عنه بالإنسان الصغير ، وهو هذا البشر آدم وذرّيته . وهذه العوالم الثلاثة كلها على وتيرة واحدة ونسق واحد ، وفي كمال المطابقة ، بمعنى أن كل ما في العالم الكبير فهو موجود في العالمين الآخرين ، وكل منهما شرح وتفصيل لذلك ، وإن كان بعضه جلياً يعرفه كل واحد ، ولو بعد التنبيه والبيان ، وبعضه لا يعرف حتى مع التنبيه والبيان قال تعالى : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة** ﴾[1] .

وبرهان ذلك عقلاً أن الله سبحانه قادر غني عالم حكيم ، وكلما يعده العقل حسناً في الصنع يكون واجباً في فعله وصنعه تعالى ، لأن الحسن هو الراجح في الصنع ، ولا يترك الراجح إلا العاجز أو المحتاج أو الجاهل أو غير الحكيم ، والقادر الغني الحكيم لا يترك حكمة الراجح في صنعه إلا لأمر أرجح منه ، وإلا لفعل خلاف الحكمة وصدور خلاف الحكمة محال عليه تعالى ، ومن صدر منه خلاف الحكمة كشف عن عجزه أو جهله ، وإلا لم يفعل ذلك . والله (عزَّ وجلَّ) حكمته وعلمه وقدرته وغناه ثابتة بالضرورة غنية عن إقامة الدليل والبرهان ، فلا بد أن يكون صنعه في كمال الإتقان وغاية الإحكام بحيث لا يتصور في الإمكان أحكم وأتقن منه .

فنقول : لا ريب في أن العقل يستحسن أن الخالق يخلق أموراً متعددة تكون أجزاءً للكل ، وبعبارة أخرى يخلق كلاً ذا أبعاض متعددة

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠ .

إذا نظرت إلى الكل ظاهراً رأيته أمراً وحدانياً تامّاً جامعاً ، وإذا نظرت إلى الأبعاض والأجزاء رأيت أن كل جزء من الأجزاء تمام ذلك الكل ، بمعنى أن كل واحد من الأبعاض فيه تمام ما في الكل ، ويحتوي على تمام ما في الكل ، وفي البعض جميع ما في المجموع ، إذا نظرت إلى الكل شاهدت تمام الأمر ، وإذا نظرت إلى البعض شاهدت أيضاً تمام الأمر ، وكلما دققت النظر في البعض وبالغت في ذلك شاهدت حواية البعض على الكل وانطواء الكل في الجزء أبلغ ، ومهما زدت في الدقة كانت مشاهدة الحواية والانطواء أجلى وأقوى .

فأي عقل لا يحكم بحسن مثل هذا الصنع الذي يكون الكل فيه منطوياً في البعض والبعض حاكياً عن الكل ، بل كل ذي لب ووجدان يقطع برجحانه وحسنه ، والقادر الغني الحكيم لا يتعدى عنه ويختار غيره ، وإلا لترك الراجح وفعل ما هو المرجوح ، وهو قبيح قطعاً ، ولا يصدر القبيح إلا من العاجز أو الجاهل أو المحتاج أو غير الحكيم ، وتعالى الله عن كل ذلك علواً كبيراً . فلا بد أن يحمل صنع الحكيم على أكمل وجه وأتم صورة ، وإلى هذه الدقيقة ينظر الشاعر في قوله :

كل شيء فيه معنى كل شيء ... فتفطن واصرف الذهن إلي
كثرة لا تتناهى عدداً ... قد طوتها وحدة الواحد طي

ومن هذا الباب صار القرآن الكريم من أفصح الكلام وأبلغه وأتمّه وأكمله وأبدعه حتى تحدّى بقوله : ﴿ **قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[1] . وقال في مقام آخر :

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٨.

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] لما فيه هذه المزية الكبرى والخاصة العظمى ، من انطواء كله في أبعاضه وما يشاهد في كله يشاهد عيناً في جزئه .

ويشهد لذلك الرواية المعتبرة المشهورة التي لا تنكر : « كلما في القرآن فهو في الحمد ، وكلما في الحمد فهو في البسملة ، وكلما في البسملة فهو في بائها » (نقلته بالمعنى) . وهذا وأمثاله هو السر في عجز فصحاء العرب وبلغاء قريش عن إتيان مثل آية من آياته ، ولو بأقصر آية أو أخصر سورة ، ولولا هذه المزية السامية لربما أمكن لبعضهم أن يأتي بما فيه بعض الشبه لبعض الآيات .

أما قرع سمعك الحديث المروي عن الباقر أو عن الصادق (عليهما السلام) « والتردد مني » أنه بعد ما بين الإمام (عليه السلام) وشرح بعض أسرار كلمة (الصمد) قال (عليه السلام) : « لو شئت لاستخرجت جميع الشرائع والسنن والواجبات والمستحبات وجميع ما يحتاج إليه الخلق من هذه الكلمة »[2] . أي كلمة الصمد (نقلته بالمعنى) . فأنى للمخلوق أن يتمنى هذا المقام العظيم أو أن يحوم حول حمى كلام الخالق الحكيم ، فالعقول عموماً سوى العقل الكلي تعجز وتخسأ أن تحيط خبراً بما في بعض آياته من المزايا وأنواع الإعجاز ، فضلاً عن إتيان ما يشبهه أو يماثله ، ولو بنحو من أنحاء المجاز ، فلو أمكن للحادث الرقي إلى

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) البحار: ج٣ ص٢٢٥ ح١٥ بالمعنى.

مقام القديم لأمكنه أن يأتي بكلام يشبه القرآن والذكر الحكيم .

إذا عرفت ذلك فلنشرع في بعض التطبيق بين العالم الصغير والعالم الكبير ، وما انطوى من العالم الأكبر في هذا الجرم الصغير على حسب ما يمكننا بحسب الفرصة واقتضاء الظروف ، ونقول : ان في العالم الكبير عرشاً وكرسياً وسبع الشداد وأرضاً فهذه عشرة من السماوات التسع والعاشرة الأرض على نظر أهل الهيئة من القدماء أو عشر كرات وفي الإنسان هذا الجرم الصغير مثلها ، أما العرش فهو قلبه أي عقله ، كما أن العرش وهو محدد الجهات ليس فوقه جسم ، كذلك قلبه ليس فوقه من مراتبه شيء ، وكلاهما بسيطان بمعنى أن العرش ليس فيه من النجوم ولا واحد ، فكذلك عقله فيه معاني الأشياء الكليات ليس فيه من الصور وأما الكرسي في العالم الكبير الذي هو محل النجوم والثوابت والبروج والدوائر لدى القدماء ، ففي الإنسان صدره أي نفسه الناطقة التي فيها الصور والنقوش وجميع ما يتصور فهو في صدره أي في نفسه الناطقة ، فكما أن الكرسي مستمد من العرش فكذلك الصدر مستمد من القلب ، وكما أن الكرسي فيه من النجوم والثوابت ما لا تحصى فكذلك في صدر الإنسان من الصور والأنواع والألوان والهيئات ما لا تحصى . وأما السبع الشداد فهي فلك زحل وفلك المشتري وفلك المريخ وفلك الشمس وفلك الزهرة وفلك العطارد وفلك القمر ، وفي الإنسان مثلها ، أما فلك زحل ففي الإنسان تعقله الذي مقره الدماغ ، وفلك المشتري ففي الإنسان علمه الذي مقره الصدر ، وفلك المريخ ففي الإنسان وهمه ، وفلك الشمس ففي الإنسان وجوده الجسماني ، وفلك الزهرة ففي الإنسان خياله ، وفلك العطارد ففي الإنسان فكره ،

وفلك القمر ففي الإنسان حياته ، وكرة الأرض ففي الإنسان جسده فهذه عشرة عوالم في العالم الكبير الأفلاك التسعة والأرض وفي الإنسان هذه العشرة موجودة بآثارها بمعنى أنه لولا العرش ما وجد له قلب أي عقل أبداً ، ولولا الكرسي ما وجد له صدر بوجه من الوجوه ولولا زحل لما تعقل شيئاً أصلاً ، ولولا المشتري لما علم شيئاً قط ، ولولا الزهرة لما خلق له خيال أبداً ، ولولا فلك عطارد لما كان له فكر أصلاً ، ولولا القمر لما وجدت له حياة ، ولولا الأرض لما وجد له جسد ، فمن كل عالم في الأكبر شيء وأثر في الأصغر . فهذه المراتب العشرة التي هي في الأصغر كل واحد منها مأخوذ من فلك من هذه الأفلاك المذكورة . وهذا معنى قول الحكماء العارفين أن الإنسان مخلوق من عشر قبضات ، من العرش قبضة ومن الكرسي قبضة ، وهكذا إلى آخر مراتبه . وكما أنه لولا الشمس لما وجدت حرارة في الأرض وأهل الأرض ، ولولا القمر لما وجدت رطوبة في الأرض وأهل الأرض ، فكذلك مراتب الإنسان المذكورة في تكونها من العالم الكبير من أفلاكه ، لولا تلك الأفلاك والأرض لما وجدت تلك المراتب فيه . وهذا الجسد الذي هو مخلوق من هذه الأرض فيه أيضاً كل ما في الأرض من الأشياء والعجائب .

مثلاً في هذه الأرض أشجار وآجام وفي بدن الإنسان كذلك شعر بدنه وشعر رأسه ، وفي الأرض عيون مختلفة وفي الإنسان أيضاً عيون مختلفة ، عين مالحة وهي دمعة عينه أي بصره ، وفيها عين متعفنة وفي الإنسان ماء خيشومه ، وعين مرة وفي الإنسان ماء أذنه ، وعين بلا طعم فاتهة وهي في الإنسان ماء فمه وفي الأرض أنهار جارية وشطوط وفي

الإنسان دمه الجاري في عروقه الكبيرة أي الضخمة والصغيرة أي الدقيقة ودمه الجاري في أعضائه بتوسط العروق الشعرية . وفي الأرض جبال وأوتاد وفي الإنسان عظامه الكبار والصغار . وفي الأرض عروق توصل بعضها ببعض وفي الإنسان أعصابه التي تشده . وفي الأرض أحجار وفي بدن الإنسان العظام الصغار التي في رجليه ويديه وغيرهما وحجر المثانة في البعض . وفي الأرض معادن لا تحصى أو يقال أربعة وثمانون معدناً أو أقل أو أكثر ، معدن الفضة والذهب والنورة والزرنيخ والحديد والصفر والفولاذ والقار والكبريت والزيبق والدر والعقيق والياقوت والألماس والزبرجد والمرجان واللؤلؤ وغير ذلك . وفي الإنسان كل هذه موجودة في دمه وبدنه ولكل منها وزن مخصوص يكون بذلك اعتدال مزاجه وصفاء ذهنه ونشاطه وصحته وارتياحه ، فلو نقص من هذه المعادن شيء من بدنه أو نقص أو زاد لخرج مزاجه عن الاعتدال وظهر فيه المرض والاختلال ، فلذا ان الأطباء يأخذون دمه ويحللونه ويستنبطون منه المرض أو الصحة ، وأيضاً في الأرض حيوانات وحيتان وفي بدن الإنسان مثلها ، وهي الذرات الصغار غير المرئية في دمه التي بها حياته وهي الكريات الدموية السابحة في دمه الكثيرة التي تبلغ عدتها من خمسة ملايين إلى ثمانية ملايين بحسب ضعف المزاج وقوته .

وفي الأرض حيوانات مؤذية مضرة ، وفي بدن الإنسان هو الذي يعد من المكروبات الداخلة والخارجة . وفي البحر مد وجزر كذلك في دم الإنسان إذا خاف هرب دمه وجزر وغار وإذا غضب طاش دمه ومد وفار ، ومن بعض الأغذية والأهوية ما يولد في دمه الطغيان والفوران أو القلة والنقصان ، وهكذا . وعلى الفاهم البصير التطبيق والتنظير .

وأيضاً في العالم الكبير أيام سبعة ، الأسبوع ، وفي الإنسان عقله ونفسه والحواس الخمسة من الظاهرة أو الباطنة . وفي العالم اثني عشر شهراً في كتاب الله ، وفي الإنسان عقله ونفسه مع جميع حواسه الظاهرة والباطنة العشر . وفي العالم الكبير ثلاثمائة وستون يوماً ، وفي الإنسان ثلاثمائة وستون عرقاً . وفي العالم الكبير أربع طبائع على رأي القدماء أي أربعة عناصر ، الحرارة واليبوسة وهي كرة النار والحرارة والرطوبة وهي كرة الهواء والبرودة والرطوبة وهي كرة الماء والبرودة واليبوسة وهي كرة الأرض ، وفي الإنسان مثلها المرة الصفراء في الإنسان حار يابس وهي من كرة النار وكبد الإنسان حار رطب وهو من كرة الهواء والبلغم في الإنسان بارد رطب وهو من كرة الماء والسوداء في الإنسان بارد يابس وهي من كرة الأرض ، وفي غير الإنسان مثل ذلك ، وفي سائر الحيوانات بل في كل شيء مثل ما ذكر لكن في بعضها خفي جداً لا يلتفت إليها ولا يعقلها إلا العالمون .

مثلاً نقول في الملائكة طبع كرة النار جبرائيل ، وفي الرياح ريح الدبور ، وفي الطيور طاووس ، وفي الأفلاك فلك الشمس ، وفي المعادن الياقوت ، وفي الأنوار النور الأحمر ، وفي المجردات عالم الطبيعة ، وفي الألوان الحمرة ، وفي الإكسير الكبريت ، وطبع كرة الهواء في الملائكة إسرافيل ، وفي الرياح ريح الجنوب ، وفي الطيور الديك ، وفي الأفلاك فلك المشتري ، وفي المعادن الذهب ، وفي الأنوار النور الأصفر ، وفي المجردات عالم الروح ، وفي الألوان الصفرة ، وفي الإكسير الفتى الشرقي ، وطبع كرة الماء في الملائكة ميكائيل ، وفي الرياح ريح الصبا ، وفي الطيور الحمامة ، وفي الأفلاك

فلك القمر ، وفي المعادن الفضة ، وفي الأنوار النور الأبيض ، وفي المجردات عالم العقل ، وفي الألوان البياض ، وفي الإكسير الفتى الغربي ماء أشبه بالأشياء بالزيبق في الغلظة واللون ، وطبع كرة التراب في الملائكة عزرائيل ، وفي الرياح ريح الشمال ، وفي الطيور الغراب ، وفي الأفلاك ظاهر فلك زحل ، وفي المعادن الأسرب ، وفي الأنوار النور الأسود أو الأخضر ، وفي المجردات ظاهر عالم النفس ، وفي الإكسير الأرض المقدسة ، وفي الألوان السواد أو الخضرة هكذا عند بعض الحكماء العارفين .

وأيضاً ففي الأرض ملك ورعايا كذلك في الجسد الإنساني ملك وهو قلبه ورعايا وهي الأعضاء والجوارح والحواس الخمسة . وفي الأرض خير وشر ، وفي البدن الإنساني الخير هو العقل وما يصدر عنه العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان ، والشر هي النفس الأمّارة وما يصدر منها : ﴿ **إن النّفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾[1] وفي الأرض حرب بين الملوك أو غيرهم وتخت الحكم وفي الإنسان قلبه محل الحكم والملكان المحاربان العقل والنفس الأمَّارة ولكل منهما جنود كما في بعض الروايات جنود العقل خمسة وسبعون وكذلك جنود النفس خمسة وسبعون كما في الكافي ، وفي كل أمر يبدو للإنسان من خير أو شر يقع الحرب بين هاتين الطائفتين إن كان خيراً فالعقل يطلبه والنفس تمانعه ويقع الحرب بينهما ، فلذا سمي المحراب محراباً لأنه حين إتيان الصلاة وأركانها وأفعالها بحكم العقل وإرشاده فالنفس تحاربه وتدافعه حتى لا يصلي أو لا يأتي بشروطها وأركانها صحيحة

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣ .

كاملة . وإن أراد شراً بحكم النفس فالعقل يعظه ويعذله وينهاه ، وهكذا سائر الأفعال ، وكذا في العالم نبي وشيطان وفي الجسد الإنساني عقله هو الرسول الباطني ونفسه الأمّارة شيطانه ، وكذا العالم مربوب هو وجميع ما فيه وله رب يربيه ويمدّه ، وفي الإنسان الرب وهو قلبه يربي جميع ظاهره وباطنه وحواسه وقواه وباقي الجسد كله مربوبون له مستمدون منه محتاجون إليه وهو يربى ويمد غافلاً كان الإنسان أو ملتفتاً شاعراً كان أو غير شاعر نائماً كان أو مستيقظاً فتبصر .

والحاصل أن في الإنسان جميع ما في العالم وهو أنموذج العوالم الغيب والشهادة وكل ما خفي في عالم الغيب يرى تفصيله وشرحه في الإنسان وفي الشهادة يستدل به إلى ذلك العالم وليس مختصاً بالإنسان فقط بل في جميع المخلوقات كذلك كل فرد فرد فيه ما في العالم لكن في كل شيء بحسبه ومرتبته ، حتى النباتات والجماد والمعدن ليستدل به أن خالق النملة هو فاطر النخلة وأن صانع البقة هو خالق الفيلة . غاية ما في الباب أن هذا الإنسان وهو العالم الصغير شرح العالم الأكبر وتفصيله فيه أبين وأفصح من غيره وغير الإنسان فالانطواء في بعضه خفي وفي بعضه أخفى لا يطلع عليه إلا الخالق وأولياء الخالق ومن كشفوا عن عينه الغطاء وعرفوه حقائق الأشياء .

وحيث أن الإنسان نسخه العالم الكبير وأنموذجه والتفصيل فيه أجلى وأوضح قال الإمام (عليه السلام) فيما نسب إليه :

أتزعم أنك جرم صغير — وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي — بأحرفه يظهر المضمر

وهذا الجرم الصغير فيه جوهر نفيس ثمين وتطبيق شريف متين لا يقاس بجميع ما ذكر بل إنما كلف الإنسان لمعرفة ذلك ، وهو مثال الرب الملقى في هويته وهو آية ربه ولا يظهر إلا بعد كشف جميع سبحاته وإندكاك كل آنياته وهو الذي قال فيه الإمام (عليه السلام) : « من عرف نفسه فقد عرف ربّه »[1] وقال (صلى الله عليه وآله) : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه »[2] وقد كتب شيخنا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي أعلى الله مقامه رسالة نفيسة شريفة في معرفة النفس أي معرفة معنى قوله : « من عرف نفسه فقد عرف ربّه »[3] مطبوعة في المجلد الأول من (جوامع الكلم) فراجعه عسى أن تسعد بفهم ما شرحه ، والواصلون قليل ، ولولا ضيق المجال لأشرنا إلى بعض المهم من ذلك .

والحاصل أنت أيها البشر لقد أودع الله فيك قوة تتمكن من تصفية نفسك وتكميلها ورفع عمى الجهل عنها بسحق العبودية بصلاية الآداب الشرعية والأخلاق الروحانية والحقائق الإلهية حتى تنعم أجزاؤها وتتلطف وتصفي بتكرار الحل والعقد حتى تزول عنها غرائب الأرض وعوارض الأكدار . ويكشف عن عين بصيرتك وفؤادك جميع السبحات وترفع عنها الأغشية والأستار والموهومات ، فيكون قلبك نورانياً ومرآتك صافية وبصرك حديداً ، ويظهر فيك المثال الملقى في هويتك وتصل إلى المعرفة الحقيقية ، فهناك ترى حقيقة بعض الأشياء وتشاهد

---

(١) شرح نهج البلاغة : ج٢٠ ص٢٩٢ ح٣٣٩.
(٢) روضة الواعظين : ص٢٠ .
(٣) البحار : ج٢ ص٣٢ ح٢٢.

في البعض ما تشاهد في الكل وانطواء الكل في البعض ، وتحيط على حسب مقامك بالعلوم الظاهرة والباطنة إحاطة لدنية لا كسبية . وهذا هو الدواء الذي عناه الإمام (عليه السلام) في قوله :

دواؤك فيـــك ومـــا تشعـــر وداؤك منـــك فـــلا تبصـــر

فداؤك هو الجهل وتكاثر السبحات والأغشية على بصيرتك بتسليط النفس الأمّارة على عقلك والخروج عن طاعته وطاعة ساداتك وأئمتك (عليهم السلام) حتى لا تكاد تبصر شيئاً من الحق كما قال تعالى : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾[1] الحقائق والعلوم ﴿ **ولهم أعين لا يبصرون بها** ﴾[2] الحق وطريق النجاة ولا يرون الآيات في الآفاق والأنفس ولا يدركون العبر على كثرتها ﴿ **ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾[3] المواعظ المفيدة والأدوية النافعة ، وداؤك يا حبيبي هو الذي مرّ عليك قبلاً فبادر باستعماله قبل موت حقيقتك وعدم نفع الدواء فيك .

وأيم الله قسماً باراً إن فيك مرآة إذا صقلتها بما ذكرناه ورفعت الغبار والرين عنها وكشفت عن وجهها السبحات عرفت الله تعالى معرفة تامّة كاملة على حسب حدودك ومرتبتك ، والصفات الحادثة والصفات القديمة وصفات الكمال وصفات الجلال والجمال وصفات النقص والقصور وعرفت أربعة أركان الشيء من المشيئة والإرادة والقدر والقضاء والإمضاء ، وعرفت كيفية التركيب والبساطة ، ومعنى كل

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩ .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩ .
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩ .

ممكن زوج تركيبي ، وعرفت معنى البداء ووقوع المحو والإثبات ، وعرفت كيف تصدر الكثرات من الواحد الأحد البسيط من جميع الجهات ، وعرفت كيفية ارتباط العوالم بعضها ببعض وكيفية التقاء عالم الغيب بعالم الشهادة وكيفية تعلق بعض المجردات بالمركبات والماديات ، وعرفت أيضاً أحوال العالم من إحاطة العالي بالسافل وقيومية العالي للسافل وقوام السافل بالعالي بالقيام الصدوري ، وعرفت أقسام القيامات ، من القيام التحققي والركني والقيام الظهوري والقيام العروضي ، بل عرفت كل وجود من الغيب والشهادة والبسيط والمركب والمجرد والمادي والعالي والسافل واللطيف والكثيف والشريف والوضيع والقوي والضعيف والعادل والظالم والصالح والطالح والكافر والمؤمن والجن والملائكة والعقل والجهل وعليين وسجين والسموات السبع والأرضين السبع والعرش والكرسي واللوح والقلم ومقام قاب قوسين أو أدنى والملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وغير ذلك من الدرة إلى الذرة كلها تعرفها وتشاهدها في نفسك ، فإن الله جعلها فيك بأتم تفصيل وأكمل بيان وجعلك أنموذجاً للعوالم وأحسن عنوان ، قال تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾[2] وهذا معنى قول الإمام (عليه السلام) : « ليس العلم في السماء فينزل إليكم ولا في الأرض فيصعد إليكم بل هو مكنون فيكم مجبول في قلوبكم تخلَّقوا بأخلاق الروحانيين يظهر لكم » .

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢١ .

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥١ .

نسأل الله تعالى بأوليائه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين أن ينوّر قلوبنا بالمعرفة واليقين وأن يبصّرنا عيوبنا ويوفّقنا لتزكية أنفسنا ، ويرفع عنّا حجاب الجهل والعمى وموانع النفس والهوى ، وأن يرقينا بتوفيق استعمال الأدوية الشرعية إلى الدرجات العلى ، عسى أن ندرك بعض الحقائق ، ونلتفت إلى ما في عالمنا من الدقائق بفضله وكرمه وجوده ومنّه .

اللهم صلّ على محمد وآله الطيبين الطاهرين وعجّل فرجهم وارحمنا بهم ونوّر قلوبنا بمحبتهم ومعرفتهم ومعرفة مقاماتهم ومراتبهم ووفّقنا لطاعتهم وبعّدنا عن معصيتهم واختمنا بولايتهم وزدنا في محبتهم واحشرنا تحت لوائهم وفي زمرتهم بحقهم عليك وبحقك عليهم إنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

قد فرغ من تسويده مساء يوم الخميس الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني من سنة الألف والثلاثمائة والسبعين من الهجرة النبوية على مهاجرها ألف الصلاة والتحية حامداً مصلياً مستغفراً شاكراً .

الرسالة الثالثة

في تفسير قوله تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد خاتم النبيين وأخيه وابن عمه وصهره أمير المؤمنين وأولادهما الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم ومخالفيهم ومنكريهم ومنكري فضائلهم أجمعين إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن جناب الأكرم زبدة الأعزة والخلّان (الحاج ياسين ابن الحاج عبد الله آل رمضان) حرسهما الله تعالى من شرور الدهر الخوّان لحسن ظنه بالأحقر الفاني وجّه إليَّ سؤالاً من البحرين ، وهو شرح الآية الشريفة لي في سورة النجم ، وهو قوله عزّ من قائل : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة** . . . ﴾[1] الخ ، يريد مني تفسيرها بالظاهر والباطن .

وحيث انه ـ وفّقه الله لمرضاته ـ من أهل المعرفة والكمال وأهل للجواب ، وما يسعني إلا إنجاز مطلوبه والمبادرة إلى مأموله ، أسرعت

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

إلى جوابه آتياً بما هو الميسور وعلى الله توكلي في كل الأمور .

قال تبارك وتعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[1] .

التفسير الظاهر :

أما تفسيرها الظاهر فهو أن تزكية المرء نفسه قبيح جداً ، ولا يزكي نفسه إلا من عرف أصله ومبدأ أمره ، وأنها ما نشأت إلا من أرض السعادة ، لا من الخبال ولا من أرض الإلحاد أو أرض الشقاوة ، أي من الأراضي السبعة التي هي بإزاء السموات السبع ، وهي أرض الممات ، وأرض العادات ، وأرض الطبع ، وأرض الشهوة ، وأرض الطغيان ، وأرض الإلحاد ، وأرض الشقاوة ، كما لا يزكي نفسه إلا من علم إذ كان جنيناً في بطن أمّه أن قد كتب الملك على جبينه بأمر الله تعالى أنه سعيد وصوّره بصورة السعادة ، وعلم أيضاً أن مستقبل أمره وعاقبته إلى خير .

فمن كان يجهل هذه الأمور كلها كيف يزكي نفسه ؟ وعلم هذه الأشياء مختص بالخالق سبحانه ، فلذا قال بنحو الحصر : ﴿ هو أعلم بكم ﴾[2] أي لا غيره ﴿ إذ أنشأكم من الأرض ﴾[3] أي أنشأ أباكم من أديم الأرض وأنشأكم من لطائف الأغذية التي أصلها من الأرض ، فلذا قال تعالى : ﴿ خلقكم من تراب ثم من

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٢.

نطفة ﴾[1] أي خلق أصلكم ومادتكم الأولى الدنيوية من تراب وأنتم ما تعلمون من أي أرض خلقكم ومادتكم ، فكيف تزكون أنفسكم ؟ ثم قال تعالى : ﴿ **وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم** ﴾[2] أجنّة جمع جنين كأعزّة وعزيز وأجلّة وجليل ، أي لما كنتم أجنّة في الأرحام وصوّركم الملكان الخلّاقان المقتحمان من أفواه الأمهات كما في الأخبار ، ما تعلمون أنهما صوراكم بأمر الله سعداء أو صوّراكم أشقياء ، وما تدرون ما الذي مكتوب على نواصيكم ، أهذا مؤمن أم هذا كافر ، فمن جهل هذه الأمور ولم يحط بها علماً كيف يسوغ له تزكيته لنفسه ، بل إنما بارئكم وخالقكم هو أعلم بكم فلا تزكوا أنفسكم وهو أعلم بمن اتقى ، إذ ربما أصل المرء من الأرض السبخة أو من الخبال أو ربما صوّر بصورة الشقاوة ، وإنما صدر منه بعض أفعال السعداء أو شيء من الطاعات والخيرات لخلطه ومزج طينته بطين المؤمنين وتربيته في حجور أهل الإيمان ، ثم يرجع إلى أصله ومبدئه .

فلذا قال مولانا الباقر (عليه السلام) كما في العلل : « لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه فإن الله أعلم بمن اتقى »[3] وانظر إلى ما قاله إمامنا إمام المتقين في كتابه إلى إمام أهل الشام : « لولا ما نهى الله من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين . . . »[4] الخ ، انظر كيف يتوقف عن تزكية نفسه ولا يرضى بها ؟! مع أنه (عليه السلام) علم

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١١.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٣) تفسير الصافي: ج٥ ص٩٤ نقلاً عن العلل.
(٤) نهج البلاغة: الكتاب ٢٨.

التقى وكلمة التقوى ، ولا يزكو عمل إلا بولايته ومحبته ، ومن خلا عن ولايته ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾[1] ولا يجوز على الصراط أحد إلا ببراءة من يده أو صك منه ، وإلا أكبّه الله على منخريه في النار باتفاق من المسلمين .

هذا كله لم يمنعه (عليه السلام) من القول : « لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه . . . »[2] الخ ، فإذا كان المخلوق من نور الله والمتقلب في طاعة الله هذا قوله ومنطقه فسائر العباد ماذا يكون حالهم وكلامهم ؟؟ ليس لهم إلا أن يقصروا عن كل تزكية ويكفّوا عن أية أنانية ويسلكوا سبل الرب ذللاً ويمشوا على الأرض هوناً ولا يمشوا في الأرض مرحاً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

نعم إن كان هناك ضرورة من دفع تهمة عن نفسه أو إثبات حق أو تحديث بنعمة الرب فلا بأس إن زكى نفسه أو عمله ، كما في العياشي عن الصادق (عليه السلام) ، لما سئل هل يجوز أن يزكي المرء نفسه قال : « نعم إذا اضطر ، أما سمعت قول يوسف ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾[3] ، وقول العبد الصالح ﴿ **وأنا لكم ناصح آمين** ﴾[4] »[5] .

ومن هذا القبيل تزكية مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) نفسه يوم السقيفة ويوم الشورى لبيان أحقيته وأولويته ، وكذا خطبه السامية

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٦٨.
(٥) تفسير العياشي: ج٢ ص١٨١ ح٤٠.

المبينة لبعض فضائله ومناقبه على المنابر ، إما لتثبيت القاصرين والمستضعفين ، أو لإتمام الحجة على المنافقين والمعاندين ، أو إظهار قدرة رب العالمين مما يراه (سلام الله عليه) من المصالح ، وإن كانت التزكية لا تليق إلا له ولا تسوغ إلا منه وهو أهلها ومحلها ، وهكذا تزكية سيدة نساء العالمين في خطبتها الغرّاء التي هي دون كلام الخالق فوق كلام المخلوق .

ومن هذا القبيل تزكية ابنتها ووارثتها كعبة المصائب في مجلس ابن زياد ومجلس أميره يزيد ، إذ كان مقصدها إثبات حقهم (عليهم السلام) وإتمام الحجة على مخالفيهم والمقصرين عن نصرتهم .

هذا الذي ذكرناه التفسير الظاهر .

التفسير الباطن :

وأما التفسير الأدق الأخفى ، والأمتن الأقوى ، فاعلم أن نطفة الرجل حار يابس ونطفة المرأة بارد رطب ، وإذا اجتمعتا في الرحم يكون بينهما تنافر وتضاد تام ، لأنهما كالنار والماء فلا تأتلفان ولا تمتزجان ، فلا يمكن الجمع بينهما ولا يحصل العقد منهما ، فيأمر الله (عزَّ وجلَّ) الملك فيقبض من الأرض قبضة من البقعة التي يدفن فيها ذلك المولود فيماثها بين النطفتين ، وقبضة التراب بارد يابس ، فيبوستها توافق نطفة الرجل وبرودتها توافق نطفة المرأة ، فتكون هذه القبضة سبباً وواسطة لانعقاد النطفتين ، فيحصل العقد بقدرة الله وإذنه .

ولا يخفى عليك أن تلك القبضة ليست عين هذا التراب الخشن

الكثيف بنفسه ، بل هي تتلطف وتتكلس فتسري في غذاء الأم ، فتخرج مع نطفتها لتكونها من غذائها أو تخرج بتوسط دم الحيض ، وغير بعيد أن تكون هذه القبضة من إحدى وسائل السعادة أو الشقاوة لطيب الأرض المقبوض منها أو خبثها ، وينطبق عليها قوله تعالى : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض** ﴾[1] أي الأرض الطيبة أو الخبيثة .

ثم اعلم أن كل شيء له مادة وصورة ، وهو مركب منهما ، فالمادة هي شيء ساذج لا يرى عليه السعادة أو الشقاوة إلا باكتسائه ثوب الصورة ، فإن لبست ـ أي المادة ـ الكسوة الطاهرة تكون سعيدة ، أو لبست الكسوة النجسة تكون شقية ، كالخشب والحديد والفضة والذهب ، فإنها من حيث أنفسها لا حكم لها بشيء من السعادة أو ضدها ، لكن إن صنعت منها ضريحاً لقبور الأئمة والأولياء أو باباً للمساجد وشباكاً لها تكون سعيدة ويتبرك بها ، وإن صنعت منها أصناماً أو آلة لهو وقمار تكون شقية يجب كسرها وإتلافها ، والمادة واحدة ، بل الحبر والورق إن كتبت بها وعليها آيات من القرآن أو أسماء الله تعالى لا يجوز مسّها إلا بالطهارة ﴿ **لا يمسّه إلا المطهرون** ﴾[2] ويحرم مس الجنب والحائض إياها ، ويحرم إهانتها ، وإن كتبت بها أو عليها أسماء الجبت والطاغوت واللات والعزى جاز هتكها ووطيها بالنعال بقصد الإهانة وجاز حرقها وإلقاؤها في النجاسة . والمادة ليست إلا حبراً وكاغداً ليس لهما حكم من تلك الأحكام لا احترام ولا هتك ، وإنما جاءها الاحترام أو الهتك من قبل الصورة فقط ، فالسعادة والشقاوة

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

تابعتان للصورة لا للمادة .

والفقهاء (رضوان الله عليهم) حكموا في حيوان تولد من كلب وشاة إذا نزا الكلب عليها بأنه إن أشبه المتولد منهما الكلب فهو حرام نجس ، وإن أشبه الشاة فهو حلال طاهر ، أو أحد الحيوانات المحللة فهو حلال ، أو أحد الحيوانات المحرمة فهو حرام ، أو لم يشبه شيئاً منها فهو حرام طاهر ، فالمادة شيء واحد ، وإنما جاء اختلاف الأحكام من ناحية الصورة فجميع الأحكام بل جميع الأسماء تتبع الصورة وإن كان الأصل هو المادة .

إذا عرفت ذلك فنقول : كما أن تفصيل الصور يكون في بطن الأم ورحمها ، وفي صلب الأب لا توجد صور شخصية ولا تفصيل كالمادة ، ناسب أن يعبر عن المادة بالأب وعن الصورة بالأم ، كما اصطلح عليه شيخنا الأوحد الإحسائي أعلى الله مقامه في (الفوائد) وغيره ، على عكس تعبير الحكماء حيث عبروا عن المادة بالأم وعن الصورة بالأب ، والدليل والوجدان لا يساعدانهم ، فالصورة هي الأم المعنوية للشيء . كما أن المادة أب معنوي له . فقول الإمام (عليه السلام) : « السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه »[1] يشمل الصورة أيضاً ، بل ربما تكون هي المرادة . حيث أن مدار السعادة والشقاوة على الصورة وإن كان في بطن الأم الظاهرية البشرية أيضاً يكون التفصيل والامتياز ، لكن هذا الامتياز في بطن الأم ليس إلا بالصورة أيضاً ، ولولا الصورة لما وجد الامتياز حتى في رحم الأم ولما عرف الذكر من الأنثى والخنثى ، والجميل من القبيح ،

---

(١) التوحيد : ص٣٥٦ ح٣.

والأسود من الأبيض .

فالمدار في عالم الكون غيباً وشهادة عموماً على الصورة . فهذا عقل وتلك روح أو نفس أو طبيعة وهذا إنسان وذلك ملك وذا بقر وذاك شاة أو طير أو حجر أو شجر أو فاكهة بأقسامها ، أو در أو ياقوت ، كلها امتيازها بالصور النوعية والأصل واحد .

وهذه الصور منها صور سعيدة ، كصورة الإنسان والملك والغزال والغنم والإبل والبقر والطيور الطيبة غير الممسوخة وغير ذلك من الصورة الطيبة ، ومنها صور شقية ، كصورة الكلب والخنزير والقرد والدب والضب والعقارب والحيّات وغيرها . ولا يدخل الجنة إلا الصور السعيدة الطيبة ، كما أنه لا يدخل النار إلا الصور الخبيثة ، فلا ترى في النار صورة إنسان أبداً لأنها صورة التوحيد ، وهي شريفة لا تدخل النار أبداً ، والكفار الذين يدخلون النار تسلب عنهم الصورة الإنسانية ويكسون الصورة المنحوسة ، ويحشرون يوم القيامة على صور أعمالهم وصور ملكاتهم التي ماتوا عنها ، فما ترى في النار إلا قردة وخنازير وكلاب والضب والدب وأمثالها ، كما أنه لا يدخل الجنة مثل هذه الصور أبداً ، وكلب أصحاب الكهف حيث أنه موحد يدخل الجنة بعدما ينزع عنه الصورة الكلبية ، ويلبس صورة امرأة كما في الخبر فافهم .

فكم ترى من إنسان ظاهره إنسان وباطنه ليس بإنسان بل حيوان إما قرد أو كلب أو غير ذلك . وكفى بذلك شاهداً رواية (ما أكثر

الضجيج وأقل الحجيج)[1] قال الراوي : وكيف ذلك يا سيدي ؟ فمسح الإمام (عليه السلام) يده الطاهرة على عينه ، فما رأى أحداً منهم على صورة إنسان ، بل رآهم كلاباً قردة خنازير دببة وغير ذلك ، ثم قال الإمام (عليه السلام) : « ما حجَّ إلا أنا وناقتي وعلي بن يقطين في البصرة »[2] (نقلته بالمعنى) .

ومثلها ما رواه في صحيفة الأبرار في (ص ١٨٤) عن كتاب الهداية للحسين بن حمدان بإسناده عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جده السجاد (عليهم السلام) : « أن رجلاً من شيعته دخل عليه ، فقال يا ابن رسول الله ما فضلنا على أعدائنا ونحن وهم سواء ؟ بل منهم من هو أجمل منّا وأحسن زيّاً وأطيب رائحة ، فما لنا عليهم من فضل ؟ قال (عليه السلام) : تريد أن أريك فضلك عليهم ؟ قال : نعم ادن مني ، فدنا منه فأخذ يده ومسح عينيه وروح بكفه عن وجهه وقال : انظر ماذا ترى ؟ فنظر إلى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وما رأى فيه إلا قرداً أو خنزيراً أو دبّاً أو ضبّاً ، فقال : جعلت فداك ردّني كما كنت فإن هذا منظر صعب قال : فمسح عينيه فرده كما كان » .

ويشهد بذلك أيضاً الخبر المروي في الصافي والمجمع في سورة (عم) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً** ﴾[3] عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه سئل عن هذه الآية

---

(١) البحار : ج٢٤ ص١٢٤ ح١ .
(٢) أنظر البحار : ج٤٧ ص٧٩ باب ٢٧ ح٥٨ .
(٣) سورة النبأ الآية : ١٨ .

فقال: « يحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين وبدّل صورهم، فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكوسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثم يسحبون عليها وبعضهم عمي يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتناً من الجيف وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم »[1] إلى آخر الحديث. فغالب الناس مستورون بهذه الصورة الإنسانية وباطنهم مخفي إلا على الخالق أو من أطلعه الله على الحقائق.

فقوله تعالى: ﴿ **وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم** ﴾[2] غير بعيد أن يشير تعالى إلى هذا المعنى، أي إذ أنتم مخفيون ومستورون في بطون صوركم الظاهرية التي هي الأمهات المعنوية، والجنين إنما سمي جنيناً لاختفائه واستتاره في الرحم، وكل ما يشتق من هذه الكلمة فهو بمعنى الستر والاستتار كالجن والجان، سميا بذلك لأنهم مستورون عن أعين الناس، والجنة (بفتح الجيم) والجنان لأنها مستورة بالأشجار والأغصان والأزهار، والمجنون لأنه مستور عقله، والجنة (بضم الجيم) لأنها يستر بها عن السيوف والسهام. ومنه قوله تعالى: ﴿ **فلما جن عليه الليل** ﴾[3] أي ستر عليه الليل.

---

(١) مجمع البيان: ج٦ الجزء ٣٠ ص٩.
(٢) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٧٦.

فتكون معنى الآية الشريفة ـ والله العالم ومن عنده علم الكتاب ـ أنه ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض** ﴾[1] أي التربة التي ماثها الملك في رحم الأم بين نطفتي الرجل والمرأة ، وهو أعلم بكم ﴿ **وإذ أنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم** ﴾[2] أي مستورون في بطون وحجاب صوركم الإنسانية المشهودة ، يعلم أن باطنكم كظاهركم إنسان أو أن باطنكم على خلاف ظاهركم من الصور الممسوخة ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾[3] إذ ربما ظاهركم إنسان وباطنكم قرد أو خنزير أو غير ذلك والعياذ بالله . وقال تعالى مبكتاً في سورة النساء : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً** ﴾[4] الفتيل هو الخيط الذي في شق النواة .

أقول إن هذه الآية الشريفة تشمل كل أهل الدعوى من الأمم السالفة من اليهود الذين يقولون ﴿ **نحن أبناء الله** ﴾[5] وهم النصارى الذين يقولون ﴿ **لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى** ﴾[6] ومن الأمة اللاحقة المنتحلين للمناصب التي ليست لهم من الخلفاء الجور والعلماء السوء والأئمة الذين ليسوا على الجادة الحقة ، والمفتين الذين ليس لهم أهلية الفتوى إما علماً أو عملاً أو اعتقاداً ، فإن من ينتحل الخلافة ويدعو الناس إلى بيعته لولا أنه يرى نفسه أهلاً ويزكي نفسه لما

---

(١) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٢) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٣) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٤) سورة النساء الآية: ٤٩.
(٥) سورة المائدة الآية: ١٨.
(٦) سورة البقرة الآية: ١١١.

فعل ذلك ، وكذا المفتي لولا أنه يرى نفسه من أهل الفتوى والتقليد لما تصدى لذلك ولما جعل نفسه في ذلك المنصب العالي ، وكل ذلك تزكية نهى الله عنها والله هو العليم بظاهره وخافيه وأنه من أهل ذلك أو لا ، وهو العالم بالسرائر المطلع على الضمائر والعالم بعواقب الأمور وتصاريف الدهور .

فلذا قال سبحانه : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾[١] ورب رجل أصله طيّب وباطنه كظاهره أيضاً طيّب ، لكن عمله الذي يأتي به من الصلاة والزكاة وغيرهما مشوب بالرياء والعجب أو عدم خلوص النية أو عدم اجتماع شروط الصحة ، وأمثال ذلك من القوادح . فلذا قال مولانا الباقر (عليه السلام) في الخبر الذي سبق عن العلل : « لا يفتخرن أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لأن الله أعلم بمن اتقى »[٢] .

ثم إن الوصول إلى العمل الصحيح الزكي والتوفيق لمراتب التزكية وحصول شروطها والبقاء على ذلك والاختتام بحسن العاقبة وعلى حالة الإيمان والمحبة وعدم الانقلاب عما هو عليه ، لا يكون إلا من فضل الله تعالى ورحمته ، قال (عزَّ وجلَّ) في سورة النور : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم** ﴾[٣] .

كم وكم من رجل صالح ورع مواظب على الطاعات ومستمر على

---

(١) سورة النجم الآية : ٣٢.
(٢) تفسير الصافي : ج٥ ص٩٤ نقلاً عن العلل.
(٣) سورة النور الآية : ٢١.

النوافل والحسنات ثم تكون عاقبته سيئة ومنقلبه غير كريم ، فلذا قال (عليه السلام) : « الناس كلهم هالكون إلا العالمون والعالمون هالكون إلا العاملون والعاملون هالكون حتى ينظر ما يختتمون عليه » نسأل الله من فضله بأوليائه الطاهرين (عليهم السلام) أن يمنَّ علينا بحسن العاقبة والمنقلب الكريم غير مخز ولا فاضح ، بل بالمتجر الرابح على الصراط الواضح والميزان الراجح . ولنكتف بهذين التفسيرين .

وأما التفسير الباطن الذي طلبتم في سؤالكم فلا يحتمله ظرف عصرنا هذا ولنضرب عنه صفحاً ، لكن نشير إشارة لمن عرفها ونرمز رمزاً لمن عرف لحننا وكان من أهله ، فنقول : إن الأرض قد يراد منها أرض الماهية وقد يراد أرض الولاية ، ويكون هذا الذي نشأ منها لا يعلم هل نشأ من شعاعها أو شعاع شعاعها كي يكون زكياً أو من ظل شعاع شعاعها أي عكس شعاع شعاعها كي لا يكون زكياً ؟ ويكون المراد من الأم أم الكتاب ، ويكون المرء جنيناً أي محجوباً في بطن ﴿ **إن كتاب الأبرار لفي عليين**﴾[1] أو في بطن ﴿**إن كتاب الفجّار لفي سجّين** ﴾[2] والعلم عند الله تعالى وعند أوليائه الطاهرين (عليهم السلام) .

وهنا أسرار جمّة كتمانها في الصدور أولى من إبرازها في السطور والحمد لله أولاً وآخراً . حرّره بيمناه الداثرة الأحقر الفاني علي بن موسى الحائري في اليوم الرابع عشر من الربيع الثاني سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .

---

(١) سورة المطففين : الآية : ١٨ .

(٢) سورة المطففين : الآية : ٧.

الرسالة الرابعة

في تفسير قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح . . . ﴾[1] الخ

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٨٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الأرواح ، وجاعلها مستقرة في الأجسام والأشباح ، والصلاة والسلام على من أوحى الله إليه الروح من أمره ، واصطفاه لهداية من شاء من عباده بنوره ، محمد صاحب الروح الكلية الإلهية ، وعلي وصيّه وابن عمّه علي ذي النفس اللاهوتية الملكوتية ، وعلى أولادهما الطيبين الطاهرين ، الذوات الحقيقية والنفوس القدسية المطمئنة الزكية والشجرة المباركة الزيتونة التي لا شرقية ولا غربية ، ولعنة الله على أعدائهم ومخالفيهم وظالميهم أرباب النفوس الأمّارة الشقية ، والشجرة الملعونة الخبيثة .

وبعد ، فيقول الأحقر الفاني (علي بن موسى بن محمد باقر الحائري) عاملهم الله بفضله الجسيم ولطفه العميم ومن عليهم بالرحمة الخاصة والقلب السليم : إن جناب الأجل الأكرم والمعتمد الأفخم ، ذي النفس الزكية الأبية والملكة السامية السخية ، الفاضل الأديب والشاعر الأريب (الحاج يوسف ابن المرحوم موسى أبو علي الإحسائي) سلّمه الله وأبقاه ومن كل مكروه حفظه ووقاه ، قد وجّه إلي

سؤالاً يريد مني جوابه على سبيل الاستعجال ، وأنا مع تراكم الأشغال وتبلبل البال عن التفصيل معذور ، ولا يمكنني إلا الإتيان بما هو الميسور لأنه لا يسقط بالمعسور ، وجعلت سؤاله ـ سلمه الله تعالى ـ كالمتن وجوابي له كالشرح ، وعلى الله التكلان وعلى أوليائه الأطهار في جميع الأمور .

ما هي الروح ؟ :

قال سلّمه الله تعالى (جناب حضرة سماحة العلاّمة الحكيم الإلهي الحاج ميرزا علي الحائري أيّده الله تعالى ، مولاي أرجوكم أن تتفضلوا علينا بتفسير وشرح الآية الكريمة : ﴿ **يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾[1] وكيفية ارتباطها بالجسد الإنساني . . . الخ) .

أقول وبالله التوفيق قال سبحانه في سورة بني إسرائيل : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[2] اعلم ـ وفّقك الله تعالى ـ أن للروح تعاريف أو رسوماً عند الحكماء والفلاسفة ، فقال بعضهم : « الروح جوهر مجرد يتعلق بالأبدان كتعلق الماء بالورد » وهو من المجردات على اصطلاح القوم ، والتعرض لكلماتهم وما ذكروه في تعريفها وما عليه المتجددون في معنى الروح وحقيقته يستدعي تسويد أوراق كثيرة وسعة في الوقت ، وفي الوقت الحاضر لا يساعدني ولا في الوقت مجال لتكثير المقال ونقل الأقوال ، فلنقتصر على ما هو التحقيق عندنا ، فنقول :

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٨٥.
(٢) سورة الإسراء: الآية: ٨٥.

إن الروح من الأمور الغيبية ، وهو من عالم الملكوت إن كان الروح إنسانياً ، ومن عالم الأفلاك إن كان حيوانياً ، ويأتي تفصيلهما ، وليس هو من الأمور الحسية التي يشار إليها بأحد الحواس الظاهرة ، بل هو أمر غيبي ، وكل أمر غيبي من شأنه أنه لا يدرك بالعيان ولا تشاهده العينان ، بل إنما تدرك بالآثار ، كما أن خالق الأرواح وصانعها الذي هو غيب الغيوب لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، فلا يعرف تعالى إلا بمخلوقاته ، قال تعالى : « خلقت الخلق لكي أعرف » (حديث قدسي) إذ لا طريق إلى معرفة الذات لأحد أبداً كائناً من كان ، من أشرف خلقه وأدناهم (الطريق إليه مسدود والطلب مردود) فالروح كذلك ليس من الأمور الحسّية كي تدرك بالحواس الظاهرية ، بل هو من الأشياء الغيبية التي آثارها تدل عليها وبالآثار يستدل عليها ، فلذا إن الله تعالى أجمل الكلام وأبهمه ، وما زاد على قوله (عزَّ شأنه) : ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾[1] تلميحاً إلى أنه لا يوصف بشيء من الأمور الحسّية ولا يعرف إلا بكونه من أمر الرب ، فكما أن أمر الرب لا يشاهد بالعيان ، فكذلك ما منه صدر أو منه ظهر ، ثم أنه لما صرّح تعالى بقوله : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[2] عرفنا بأن علمنا لا يحيط بكنه معرفة الروح .

ثم أنه قال تعالى : ﴿ **من أمر ربي** ﴾[3] ولم يقل : من ربي أو من الله ، لأن الشيء لا يصدر من ذات الله سبحانه ، وإلا لتولد منه

(١) سورة الإسراء: الآية: ٨٥.
(٢) سورة الإسراء: الآية: ٨٥.
(٣) سورة الإسراء: الآية: ٨٥.

وصار الذات غاية له ، إلى غير ذلك من التوالي الفاسدة ، فلا جرم أن كل شيء لا يصدر إلا من أمر الله أي من مشيئة الله لا غير . وأمر الله يطلق على شيئين :

أحدهما : أمر الله الفعلي وهو المشيئة ، قال تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾(١) .

وثانيهما : أمر الله المفعولي ، قال سبحانه : ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾(٢) وهو محل أمر الله الفعلي وأول صادر منه .

فإن أريد في هذه الآية ، أي آية الروح من أمر الله أمر الله الفعلي ، كان معنى قوله : ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ أنه صادر من أمر ربي ، فيكون قيامه بالمشيئة قيام صدور .

وإن أريد به فيها أمر الله المفعولي ، أي محل المشيئة ، كان معنى قوله : ﴿ **من أمر ربي** ﴾ ظاهر من أمر ربي لا صادر منه ، لأن شعاع أمر الرب المفعولي يكون مادة للروح ، ويكون الروح من تنزلات أمر الرب ، فيكون قيامه بأمر الرب قيام ظهور لا قيام صدور .

إطلاقات الروح :

ولهذه الروح إطلاقات :

قد يطلق ويراد منه الروح الكلي الأولي ، وهو العقلي الكلي الذي ركن أيمن العرش الأعلى الساطع منه النور الأبيض ، وهو المصباح في عالم الكون ، وهو السراج المنير ، وما سوى الله مخلوق

---

(١) سورة يس : الآية : ٨٢.
(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٣٧.

من أشعته وأشعة أشعته المعبر عنه بالحجاب الأبيض وبعمود النور في الأخبار وبروح القدس ، قال الإمام العسكري (عليه السلام) : « روح القدس في الجنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة » وهو المسدد لأشرف الخلق والنازل عليه أو عنده بكليته وبرمته ، والمسدد لسائر الأنبياء بوجه من وجوهه لا بكليته ، وهذه الروح هي التي لما سئل الصادق (عليه السلام) عن هذه الآية كما في تفسير الصافي عن الكافي والقمي ، قال (عليه السلام) : « خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو مع الأئمة (عليهم السلام) وهو من الملكوت »[1] . وفيه أيضاً عن العياشي عنه (عليه السلام) لما سئل عنه قال : « خلق عظيم أعظم من جبرائيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد ومع الأئمة (عليهم السلام) وليس كلما طلب وجد »[2] وهو الروح الموحى لنبينا (صلى الله عليه وآله) في قوله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾[3] والكلام فيه طويل وعليك بالكتب المطولة ، بالأخص كتب الشيخ أحمد الأحسائي (أعلى الله مقامه) . ولعل هذه الروح هي المسؤول عنها في قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾[4] .

وقد يطلق فيراد منه الروح الكلية التي هي برزخ بين العقل الكلي

---

(١) الكافي : ج١ ص٢٧٣ ح٣.
(٢) الكافي : ج١ ص٢٧٣ ح٤ .
(٣) سورة الشورى : الآية : ٥٢ .
(٤) سورة الإسراء : الآية : ٨٥.

وبين النفس الكلية الإلهية ، وهي المعبر عنها بالحجاب الأصفر الساطع منه النور الأصفر ، وبعالم الرقائق .

وقد يطلق ويراد منه إحدى الأرواح الثلاث :

الأولى : الروح النباتية المعبّر عنها بالروح الطبيعية .

الثانية : الروح الحيوانية المعبّر عنها بالروح الفلكية .

الثالثة : الروح الإنسانية المعبر عنها بالروح الملكوتية .

بيان ذلك على نحو الاختصار ، أنه نرى حسّاً ووجداناً إذا ألقي البذر الجماد في الأرض الصالحة للنبات وسقي بالماء النافع ، تحرك البذر فنما طولاً وعرضاً ، فصار إما شجرة أو نخلاً أو زرعاً ، وإن انقطع عنه الماء ذبل ويبس . نظيره النطفة تلقى في الرحم فتنمو في الإنسان إلى أربعة أشهر نمواً بلا حركة ، ثم تحل فيه الروح الحيوانية ، فيكون فيها نمو وحركة ، فبهذا الأثر الواضح الشهودي نستدل على حدوث روح فيه غيبية مؤثرة لذلك ، تسمى روحاً نباتية ، ولا نشاهد عين الروح ، بل نرى أثرها وهو النمو ، وغير بعيد أن يشير إلى هذه الروح من عرفها بقوله : « إنها جوهر مجرد يتعلق بالأبدان كتعلق الماء بالورد » .

ونرى ـ ثانياً ـ في الحيوان مضافاً إلى ما فيه من النمو والذبول ، أنه يتحرك بإرادته إلى ما يشاء ويتمكن ، وله حواس ظاهرة ، من البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وفي الجنين في الإنسان بعد أربعة أشهر من حمله ، يحصل له تقلب وحركة مع النمو ، فهذه الآثار تدلنا على أن في الحيوان روحاً ثانية تؤثر هذا الأثر غير الروح النباتية ، ولا

نشاهدها عيناً ، بل نشاهدها أثراً واستدلالاً .

ونرى في الإنسان مضافاً إلى ما فيه من الأثر النباتي والأثر الحيواني أن له قوة فكرية قوية تدرك الكليات وتدرك الأشياء الغائبة عن الحواس ، ونستدل من الآثار على المؤثرات ، ومن الشهادة على الغيب ، ومن العبودية على الربوبية ، وله ذهن دراك وقّاد تنقش فيه صور الأشياء ، كما تنقش في المرآة صور المحسوسات ، فنستدل بذلك على أن للإنسان روحاً ثالثة غير تينك الروحين .

بعبارة أخرى ، نرى في الإنسان أموراً ثلاثة :

فيه النمو والذبول في بدنه وأعضائه وشعره وأظفاره وغير ذلك كما في النبات .

وفيه أيضاً التقلب والحركة بالإرادة والحواس الظاهرة والرضا والغضب كما في الحيوان .

وفيه أيضاً درك الكليات والأمور الغائبة عن الحواس ، فنستدل بذلك على أن في الإنسان الروح النباتية ، وذلك من أول ما يلقى نطفته في الرحم ، ونستدل على أن فيه الروح الحيوانية ، وذلك عند تجاوز أربعة أشهر من حمله ، ونستدل على أن فيه الروح الإنسانية ، وذلك لدى الولادة الدنيوية فهذه أرواح ثلاث نشاهدها في الإنسان ونستدل عليها بآثارها ولا نشاهدها بعينها .

لذا حمل بعض فحول الحكماء الإلهيين سر وجوب الأغسال الثلاثة للميت على تلك الأرواح الثلاثة ، لخروجها جميعاً عند موته ، فغسل السدر لأجل خروج الروح النباتية وغلظتها ، وغسل الكافور

لأجل خروج الروح الحيوانية ، لكونها أرق وألطف من سابقتها ، وغسل ماء القراح لخروج الروح الإنسانية ولرقتها ولطافتها بالقياس إلى الروحين الأخريين .

ولقائل أن ينكر تعدد الأرواح في الحيوان وتعددها في الإنسان . ويقول : أن في الحيوان روحاً واحدة قوية شديدة ، تؤثر في نموّه وذبوله ، وتؤثر في حركته وتنقلاته وغرائزه ، وكذلك في الإنسان روح واحدة غير أنها أقوى وأشد من روح الحيوان تؤثر في النمو والحركة ودرك الكليات . . . ويرد هذا القول :

أولاً ـ إن تعدد الآثار يدل على تعدد المؤثر بحكم العقل والوجدان .

وثانياً ـ تفصيل مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) للأرواح الثلاث ، في حديث كميل وحديث الأعرابي ، المعروفين والمشهورين ، حيث جعل لكل واحدة منها انبعاثاً وأصلاً وقوى خمس وخاصتين يثبت ما قلنا من التعدد ، ولا بأس إن أشرنا إلى بعض فقرات الحديثين وبعض نكاتها لتوضيح المطلب :

قال مولانا (عليه السلام) في الروح الإنسانية ويعبر عنها بالنفس الناطقة القدسية : « قوة لاهوتية بدأ إيجادها عند الولادة الدنيوية » أي إذا تولد الجنين وخرج من بطن الأم حياً . فهناك تلج الروح الإنسانية ، ويقال له إنسان ، وإلا فما دام هو في بطن الأم ولم يخرج إلى الدنيا لا يقال له إنسان ، وإن كانت له حياة واضحة وحركة بيّنة يقينية في بطن الأم ، بل هو حيوان حينئذ وليس بإنسان . ولذا لا يرث إلا إذا خرج حياً

إلى الدنيا بحياة مستقرة ، لأن الإرث يكون للإنسان لا للحيوان ، وقبل الخروج فهو حيوان صرف لا يرث ولا يورث ، وإن قطع بحياته في بطن أمه .

ثم قال (عليه السلام) : « مقرها العلوم الحقيقية الدينية موادها التأييدات العقلية فعلها المعارف الربانية » أي لا تستقر هذه النفس الناطقة القدسية إلا بالعلوم الحقيقية الدينية ، وإلا فلا مقرّ لها وهو في القالب الصوري الظاهري إنسان . وفي الواقع ليس بذاك ، والتأييدات العقلية لها كالمادة وهي لها كالصورة ، وفعلها وعملها المعارف الربانية . من المعرفة بالبيان والمعاني والأبواب والإمامة على مراتبها في الجميع . فهذه وأمثالها هي شغلها وعملها وتأثيرها .

وقال (عليه السلام) جواباً لسؤال كميل : « لها خمس قوى : فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة . وليس لها انبعاث أشبه الأشياء بالنفوس الملكية ولها خاصيتان : النزاهة والحكمة »[1] فقوله (عليه السلام) : وليس لها انبعاث ، يعني ليس لها في الجسم الإنساني عضو وجارحة تنبعث هذه الروح منه ، كما أن للروح الحيوانية عضواً تنبعث منه ، وهو القلب . والروح النباتية تنبعث من الكبد على ما يأتي من بيان الإمام (عليه السلام) .

وقال (عليه السلام) للأعرابي في الروح الحيوانية المعبّر عنها بالنفس الحيوانية : « هي قوة فلكية وحرارة غريزية أصلها الأفلاك وبدء إيجادها عند الولادة الجسمانية فعلها الحياة والحركة والظلم والغشم

---

(١) البحار : ج٥٨ ص٨٥ باب حقيقة النفس والروح وأحوالهما .

والغلبة واكتساب الأموال والشهوات الدنيوية مقرها القلب » إلى آخر ما قاله (عليه السلام) في حديث الأعرابي .

وقال (عليه السلام) في جوابه لكميل بن زياد : « والحسّية لها خمس قوى : سمع وبصر وشم وذوق ولمس ولها خاصيتان : الرضا والغضب وانبعاثها من القلب »[1] .

وهذه الفقرات كلها تحتاج إلى شرح وبسط للكلام فيها ، بالأخص الفقرات المذكورة في النفس الإنسانية في حديثي الأعرابي وكميل . ومن أراد التفصيل والبيان الشافي الوافي مع الإشارة إلى بعض البواطن البعيدة عن الأفهام الظاهرة . فعليه بكتب الشيخ الأوحد الأحسائي (أعلى الله مقامه) وكتب تلامذته وتابعيه . بالأخص أواخر كتاب (شرح المشاعر) للشيخ المذكور (أعلى الله مقامه) ، فإن فيه من التفسير والبيان ما لا يوجد في كتب الحكماء الأعيان من أهل عصرنا وسالف الأزمان . ولا يحضرني الكتاب حتى أنقل منه بعض ما يشفي العليل ويروي الغليل . فلنعرض عن التعرض إلى بيان فقراتها ، لكن لا يسعني إلا التنبيه والإشارة إلى معنى قوله (عليه السلام) في الحيوانية : « قوة فلكية وحرارة غريزية أصلها الأفلاك » .

فنقول : إن للقلب الصنوبري تجاويف فيها الدم المعبّر عنه بالعلقة وهي في الجانب الأيسر أكثر منه في الجانب الأيمن . وهذه العلقة يتعلق بها الدم الأصفر حاملاً البخار المؤلف من الطبائع الأربع . أعني أنه يتألف من أبخرة أربعة ، جزء واحد من بخار حار يابس ،

(١) البحار : ج٥٨ ص٨٥ باب حقيقة النفس والروح وأحوالهما .

وجزء من بخار حار رطب ، وجزآن من بخار بارد رطب ، وجزء واحد من بخار بارد يابس ، فتختلط هذه الأبخرة وتمتزج ، والحرارة والرطوبة تطبخها بتأثير أشعة الكواكب والعناصر طبخاً كاملاً حتى تنضج الأبخرة نضجاً معتدلاً وتصير بخاراً واحداً في غاية اللطافة والاعتدال ، بحيث تساوي لطافة فلك القمر واعتداله ، فتؤثر فيها نفس فلك القمر وروحه ، فتلج فيه الروح الحيوانية ، فتشرع (بإذن الله تعالى) بالتحرك الحيواني بحركته على ما حققه شيخنا الأوحد الأحسائي في (شرح الزيارة) شرح فقرة « وأنفسنا وأنفسكم » .

وربما يستبعد هذا التحقيق ، فيقال : كيف يمكن تأثير نفس فلك القمر في حياة الجنين في بطن أمه بفاصلة هذه المسافة البعيدة وكيف يمكن تعقله ؟ فيجاب عنه بأن المدار في التلقي والتحمل على الاستعداد والقابلية ، لا على القرب والبعد الظاهريين ، فرب قريب لا استعداد له ، ورب بعيد في أتم البعد الظاهري وله الاستعداد التام للتلقي والتحمل ، وهذا هو القرب المعنوي الذي عليه المدار .

مثاله السراج في قربه الحجارة وفي البعد المرآة ، فإن المرآة البعيدة هي التي تحكي السراج في صفاته وتتقبل مثال السراج وعنوانه ، والحجارة مع قربها لا تحكي شيئاً من صفات السراج ، كأبي لهب عم النبي (صلى الله عليه وآله) ، مع قربه الظاهري بعيد عن ابن أخيه بعداً لا يوصف حتى نزل في حقه ﴿ **تبّت يدا أبي لهب وتب** ﴾[1] وسلمان المحمدي مع بعده الظاهري قريب منه (صلى الله عليه وآله) قرباً يأتيه السلام من الحق سبحانه توأماً مع سلام النبي (صلى الله عليه وآله)

---

(١) سورة المسد: الآية: ١.

ويكون حاملاً لعلم البلايا والمنايا ، فيترشح من وجوده العلوم الزاخرة والكرامات الباهرة .

وكذلك هذا البخار الذي حامله الدم الأصفر في العلقة ، لتمام صفائه واعتداله الكامل ومساواته في اللطافة والاعتدال مع فلك القمر صار مع بعده الظاهري قريباً من فلك القمر قرباً معنوياً مستعداً للكمال ومشابهاً له ، فتمكن من أن يكتسب الروح الحيوانية من نفس فلك القمر وحياته . كما أن الخشب اليابس إذا كان قريباً من النار بحيث لا تصل إليه النار ولا تمسه لكنه قريب منها مقابل لها ، فإن الخشب بحرارة النار يصفر ثم يحمر ثم يسود فحماً ثم يشتعل ناراً ، أي يكسب الاشتعال من النار بالقرب منها وتوجهه إليها . وهذا حيث ان وجه الخشبة تكلس بالقرب وصار مساوياً لمحل النار في الاستعداد فاشتعل .

كذلك البخار الحيواني الذي الدم الأصفر في علقة القلب ، لصفائه واعتداله التام يكون مساوياً لصفاء فلك القمر واعتداله مشابهاً له ، فيكتسب الحياة والحركة من نفس فلك القمر وحياته . فهذه الحياة هي الحياة الحيوانية أي من الروح الحيوانية المنسوبة إلى الفلك على ما نسبه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً : « قوة فلكية أصلها الأفلاك » .

وقال (عليه السلام) في الروح النباتية المعبر عنها بالنفس النباتية : « وهي قوة أصلها الطبائع الأربع بدؤ إيجادها عند مسقط النطفة ، مقرّها الكبد ، مادتها من لطائف الأغذية ، فعلها النمو والزيادة » إلى آخر كلامه (عليه السلام) . وقال (عليه السلام) في

جوابه لكُميل : « فإن لها خمس قوى ماسكة وجاذبة وهاضمة ودافعة ومربية ، ولها خاصيتان الزيادة والنقصان وانبعاثها من الكبد »[1] .
فبالتدبر في كلام مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديثي الأعرابي وكميل يحصل لك العلم بأن الأرواح الثلاث : الإنسانية والحيوانية والنباتية ، كل واحدة منها غير الأخرى ومميزة عن صاحبتها ، مقراً وانبعاثاً وظهوراً وفعلاً وتأثيراً وقوى وخاصية ، والروح الإنسانية لا انبعاث لها ، والروح الحيوانية انبعاثها من القلب والروح النباتية انبعاثها من الكبد ، فكل من هذه الثلاث غير الأخرى بلا ريب ، لا أنه في الجميع روح واحدة ، في النبات ضعيف وفي الحيوان قوي وفي الإنسان أقوى ، أي فيه روح واحدة لكنها أقوى وأشد مما في النبات والحيوان ، فإنه خلاف التحقيق وخلاف الحس والوجدان وخلاف مفاد الأخبار ، فتفطن وتبصر .

وأما المتجددون والأطباء المحدثون ، فهم يزعمون أن حياة الإنسان بالكريات الدموية ، بقسميها الحمر والبيض ، فالحمر منها حاملة للحياة ومتنفسة جالبة للهواء ، والبيض منها مجاهدة ومدافعة ، فمهما يرد في جسد الإنسان من المكروبات الغريبة المضرة ، تهجم عليه الكريات البيض فتقتلها وتجلوها عن محيطها ، وهي أي الكريات بصنفيها في الإنسان عدتها من خمسة ملايين إلى ثمانية ملايين . . . إلى آخر ما ذكروا .

أقول : إنا لا نكذب هؤلاء المتجددين في اكتشافاتهم وبعض مقالاتهم المبنية عليها ولا ننكر ذلك منهم ، لدعواهم الحس والوجدان

(١) البحار : ج٥٨ ص٨٥ باب حقيقة النفس والروح وأحوالهما .

شهوداً بالآلات الكشفية ، لكن نقول : هل هؤلاء أحاطوا علماً بأصل الحياة ومنشئها ؟ إذ ربما خفي عليهم ذلك ، وهم قصارى كشفهم أنهم أدركوا هذه الكريات الدموية وما رأوا غيرها ، فقد يكون هناك أصل ومنشأ لمدد الحياة لهذه الكريات ، وهم لم يكشفوها بعد . إذ ما خفي عليهم مما حواه وتضمنه هذا الأهاب البشري من العجائب والغرائب أكثر مما اكتشفوه واطّلعوا عليه . وهناك خفايا في زوايا هذا الإهاب لم يحيطوا بها علماً . كيف وهذا الإنسان نموذج العالم الكبير ؟ وأي بشر مهما بلغ علمه وإحاطته بالجزئيات والخفايا والأسرار فهو أقصر باعاً من الإحاطة بما أودع فيه خالقه من الأعاجيب ؟!

ليت شعري هل علموا أن هذه الملايين من الكريات كيف تقتنص الحياة بعد مضي أربعة أشهر من عمر الجنين دفعة واحدة ، فتتجول في محيطها وتشتغل بوظيفتها ؟ فهل كل واحدة منها مستقلة يأتيها الحياة في هذا البحر الدموي بلا أصل ولا منشأ أو هناك أصل واحد يفيض الحياة على الجميع دفعة واحدة أو تدريجاً ؟ وهل هذه الملايين لها مدير يدير أمرها ، كالنحل لها يعسوب أو لا ، بل مثلها مثل الحيتان في البحر ؟؟

والحق أن يقال : إن هذه الكريات الدموية كلها وسيلة الحياة وسبب بقاء الحياة ، لا أنها هي أصل الحياة ومادتها ، بل الحياة الحيوانية إنما تفاض على هذه الكريات بذلك البخار الفلكي الذي مرّ ذكره وشرحه فبحركة ذلك البخار المساوي والمشابه لفلك القمر الذي هو فلك الحياة تتحرك تلك الكريات وتتصرف في الإنسان ، وبسكونه يسكن الجميع ، ففي الحقيقة هذا البخار هو أصل الحياة وتلك الكريات تكون عمال الحياة ووسائلها ، والعلم الإحاطي بهذه الأمور عند الخالق

الباريء وأوليائه الطاهرين (عليهم السلام) بعد سيدهم وأميرهم الذي يمير لهم العلم ميراً وهو المولى باب مدينة العلم الذي عنده علم كل الكتاب ، ومن أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، ومن علمه النبي (صلى الله عليه وآله) من العلم ألف باب ينفتح له من كل باب ألف باب ، وعنده ما تزداد الأرحام وما تغيض وعلم الأصلاب والأنساب . وقد أشار إليه سلام الله عليه في الحديثين الآنفين من حديث الأعرابي وحديث كميل من أصل الحياة الحيوانية وبدء إيجادها وفعلها وقواها وخواصها وانبعاثها . وقد مرّ بعض الإشارة إلى ما أوعز إليه (عليه السلام) : طوبى لمن عرف المراد والشرح ورشح عليه من بعض الطفح .

ارتباط الروح بالجسد :

قوله (سلّمه الله) : « وكيف ارتباطها بالجسد الإنساني ؟ » .

أقول : اعلم أن ارتباط كل عال بسافل وكل علوي بسفلي وكل غيب بشهادة ، بل كل باطن بظاهر لا يكون طفرة ، بل إنما يرتبط بوسائط ذوات جنبين ووجهين ، أو ذوات طرفين طرف أعلى وطرف أسفل ، وتسمى الوسائط برازخ في الاصطلاح .

مثلاً عالم العقل وهو عالم المعنى (عالم الجبروت) لا يرتبط بعالم النفس وهو عالم الصور (عالم الملكوت) إلا ببرزخ ، وهو عالم الأرواح (عالم الرقائق) ليس في الإجمال كعالم العقل ولا في التفصيل كعالم النفس ، وكذلك عالم الملكوت كلية لا يرتبط بعالم الأجسام (عالم الملك) إلا ببرزخ ، وهو عالم المثال ، وجهه الأعلى

مع عالم الملكوت ووجه الأسفل مع عالم الملك والأجسام ، وكذلك العرش الذي هو أول عالم الأجسام له محدب ومقعر ، محدبه ألطف من مقعره ، يتلقى الفيض بأعلاه ، وبمقعره يوصله إلى الكرسي .

وهكذا الأفلاك هي برازخ بين الكرسي والكرات وتأثيرها في السفليات بالكرات إلى أن يصل إلى الأرض ، ومن الأرض بالأبخرة المتصاعدة منها والنازلة مطراً حتى يكون نباتاً ويكون ثمراً ، ثم يأكله الأبوان ، فيدخل في الكيلوس والكيموس ، فيتلطف فيدخل في الكبد بعد عروق (ماساريقا) والكبد يترجم ويجعل الخالص منياً ودماً ويفيض لطيف الدم لأعالي البدن ، ويعطي كثيفه وغليظه لأسافل الجسد أيضاً بالوسائط . وهذا المني بتوسط الكليتين وآلات التناسل بوسيلة قوة الشهوة ينصب في الرحم ، فيكون نطفة فعلقة فمضغة وكسوة لحم ثم إنشاء خلق آخر ، أي تلج الروح الحيوانية بتوسط ذلك البخار اللطيف المساوي في الاعتدال والصفاء لذلك القمر المشابه له المتعلق بالدم العلقي في تجاويف اللحم الصنوبري فعند الولادة الدنيوية تتعلق الروح الإنسانية بالبدن ، فالجسم مركب الروح النباتية ، والروح النباتية مركب الروح الحيوانية ، والروح الحيوانية مركب الروح الإنسانية ، وهذه الروح الإنسانية متعلقة بالبدن تعلق تدبير وإشراق لا تعلق امتزاج ، كامتزاج الروح الحيوانية والروح النباتية وليس معنى الإشراق أنه خارج من البدن ويشرق إلى داخله ، كالشاخص يشرق في المرآة وهو خارج ، بل المراد أن هذه الروح غير ممتزجة بالبدن كامتزاج الروح الحيوانية والنباتية به ، فهو وإن كان في داخل البدن لكنه ممتاز في مركزه ، أما القلب أو الدماغ ويدير مملكة البدن ، كالسلطان في مركزه ، وليس

بممتزج بالبدن ، فافهم .

والحاصل أن الروح الإنسانية لا تتعلق بالجسد رأساً بلا واسطة ، بل تتعلق بالروح الحيوانية والنباتية ، وكذلك الروح الحيوانية لا تتعلق بالجسم بلا روح نباتية ، فالروح النباتية واسطة لتعلق الروح الحيوانية وكلتاهما واسطتان لتعلق الروح الإنسانية المجرّدة عند القوم . ومن قال لك : إن الروح النباتية تترقى فتكون روحاً حيوانية في الحيوان وتترقى الروح الحيوانية فتكون روحاً إنسانية في الإنسان ، فقد أخطأ فاحشاً ، وقد حقق فساده في (شرح العرشية) وغيره ، فراجع .

كيف تفارق الروح الجسد وكيف تتنعم أو تعذب ؟ :

قال (سلّمه الله تعالى) : « وعن استقامتها في عالم البرزخ الذي هو من حين مفارقتها للجسد إلى يوم القيامة ، وكيف يمكنها التنعم أو ينالها العذاب وهي روح مجردة ؟» .

أقول : إعلم وفقك الله تعالى ، قال النبي (صلى الله عليه وآله) : « كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تحشرون »[1] إذا نام الإنسان تخرج روحه بجسم مثالي ، أي أن الروح تنتزع من البدن جسماً شفافاً لطيفاً مثالياً ، فتطير إلى ما تريد ، لأن الروح لا تستقر بلا مركب فمركبه هو هذا الجسم المنتزع من هذا البدن ، فتمضي إلى أي مكان تشاء أو أي بلد تريد ، فتكشف عن الأمور المستقبلة والأمور الماضية ، وإذا استيقظ يرى في اليقظة عين ما يرى في الحلم أو تأويل ما رأى فيه بشرط أن لا تكون الرؤيا متولدة من أبخرة المعدة ، بل كانت من الرؤيا

---

(١) البحار : ج٧ ص٤٧ ح٣١.

الصادقة التي هي جزء من سبعين جزءاً من النبوة ، كما في الأثر ، وقد بيّن في محله شروطها وقتاً وحالاً ، ولدى الاستيقاظ تأتي تلك الروح مع الجسم الشفّاف المثالي بواسطة الريح المتصل إليه ، فتنطبق على بدنه فيستيقظ .

والموت نظير النوم إذا مات الإنسان تنتزع الروح من جسده جسماً مثالياً شفّافاً كما تنتزع الحية قشرها والجراد من قشره ، فتمضي الروح بالجسم المثالي إلى جنة الدنيا إن كان مؤمناً فيتنعم هناك إلى نفخة الصور (الصعق) لا إلى يوم القيامة ، كما يتنعم في الرؤيا بالجسم المثالي ، وإن كان كافراً وفاسقاً تمضي روحه إلى جحيم الدنيا والبرهوت ، فتتعذب هناك بجسمه المثالي إلى نفخة الصعق (نفخة الجذب) لا إلى يوم القيامة كما تتعذب في الرؤيا .

والفرق بين النوم والموت أن في الموت تقطع الروح علقتها كلياً من الجسد ، فتخرج وتخرج الروح الحيوانية والنباتية ، فلا علقة ولا حركة ولا نمو ، بخلاف النوم ، فإن العلقة موجودة فيه ، والروح الحيوانية على حالها والبدن في النمو أو الذبول .

هذا حال روح الميت ، وأما بدنه أي جسده ، فإنه يبقى في قبره كسحالة الذهب مستديراً بعد فناء عوارضه الدنياوية اللاحقة له ، ومعنى كونه مستديراً أنه تكون أجزاء الرأس في مقام الرأس وأجزاء الرقبة في محل الرقبة وأجزاء الصدر في محل الصدر ، لكنه متفككة الأجزاء فلا تكون أجزاء الرأس في مقام الرقبة ولا أجزاء الرقبة في مقام الرأس أو موضع الصدر ، وذلك بقدرة الله تبارك وتعالى ، وإن امتزجت كلها

وتداخلت بعضها في بعض مزجاً كلياً . لكنه في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، بل لو امتزجت أجزاء جميع البشر من الأولين والآخرين واختلطت اختلاطاً كلياً ونسفت من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق والجنوب والشمال والبر والبحر كذلك . فإن ذلك كله في ملكه تعالى لا يخرج من ملكه شيء . فإن القدرة تحصي الجميع ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وتخص كل جزء لصاحبه وكل جزء لمحله من الرأس والصدر والرقبة وغير ذلك ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[1] .

فإن كان الميت مؤمناً فقبره يكون روضة من رياض الجنة ينفتح له من قبل رأسه روشنة إلى جنة الدنيا ، فيصل إليه روحها وريحانها . وإن كان كافراً أو فاسقاً يكون قبره حفرة من حفر النيران ينفتح له من طرف رجليه روشنة إلى جحيم الدنيا . فيصل إليه لهبها ودخانها . هذا في المؤمن المحض والكافر المحض . وأما المستضعف ، فيلهى عنه في القبر حتى تقوم الساعة ، فيكلف بالتكليف الثالث ، وهو الصعود على جبال من نار تدعى بالفلق . فإن أجاب وهم بالصعود أو صعد امتثالاً لأمر ربه ، فيكشف عن إيمانه ويدخل في حظائر الجنان . وإلا فإن أبى ولم يصعد ، فيكشف عن كفره فيدخل في حظائر النيران .

وعند نفخة الصعق ، وهو نفخة الجذب ، لا يبقى حي في الوجود إلا وجه الله الحي القيوم . وهو الباقي الذي لا يهلك ولا يفنى . ويموت ما سوى وجهه ، حتى أهل البرزخ من جنان الدنيا وجحيمها وأهلهما وأهل السماوات والأرضين والجبال ، فلا حس ولا محسوس

---

(١) سورة يس: الآية: ١٢.

إلى أربعمائة سنة كما في الأخبار .

كيف يبقى الجسد في قبره وكيف ينعم أو يعذب ؟

قال (سلّمه الله تعالى) : « وعن كيفية بقاء الجسد في قبره إلى يوم النشور وهل يناله الثواب والنعيم أو العذاب والألم مع أنه جسم جمادي ؟ أفيدونا بالتفصيل ظاهراً وباطناً أدام الله ظلكم العالي » إلى آخر ما قاله سلّمه الله تعالى بحسب ظنّه .

أقول : فقد طلب (أطال الله بقاه) مني التفصيل في هذه الكتابة وبيان الظاهر والباطن ، فلما اعتذرت منه شفاهاً عن ذلك لكثرة أشغالي وتوفّر الأسئلة علي عذرني سلّمه الله تعالى ، وقنع مني بالجواب ما تيسّر ولو مختصراً ، ولا قوة إلا بالله .

اعلم أن المبدأ الأول كله حياة ونور وشعور ، وما يصدر عنه يشبهه في الأمور الثلاثة ، الحياة والنور والشعور ، فلا يمكن أن يصدر من المبدأ الأول إلا ما كان كذلك ، لأن الأثر يشابه صفة المؤثر ، وكلما بعد عن المبدأ ضعفت فيه الأمور الثلاثة من السلاسل الطولية ، الأنبياء ومؤمني الإنس والملائكة ومؤمني الجن ومؤمني الحيوانات ومؤمني النباتات ومؤمني الجمادات ومرتبة الجماد آخر مراتب السلسلة ، وهي غير فاقدة للأمور الثلاثة المذكورة بل هي موجودة فيها ، لكن في غاية الضعف ، ففيها حياة ونور وشعور لا كشعور ما فوقها من المراتب ، فحياتها ليست كحياة النبات والحيوان فضلاً عن حياة الإنسان ، وكذا شعورها من عالمها ، لا كشعور الحيوان والنبات فضلاً عن شعور الإنسان .

فمن يقول إن للجماد شعوراً لا يقول أن شعوره وحسّه كشعور الحيوان والإنسان وحسّهما ، بل يقول بشعوره وحسّه من عالمه وبحسب مقامه ورتبته ، فكما أن للحياة والنور مراتب كثيرة ، فكذلك الشعور له مراتب ، فآخر مراتبه وأضعفها يكون في الجماد ، لكونه في أقصى مراتب السلسلة الطولية نزولاً ، وبحسب شعوره يكون مكلفاً ويكون له تسبيح وعبادة . هذا بدليل الحكمة ، حيث أن الأثر يشابه صفة مؤثره كما ذكرنا ، كلما قرب الأثر قوي شبهه ، وكلما بعد ضعف شبهه ، لكنه غير فاقد للشبه ولو ضعيفاً .

وأما بحسب النقل ، أي الآيات والأخبار فكثيرة في ذلك ، قال تعالى : **﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾**[1] ولفظ الشيء نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، أي كلما يطلق عليه شيء من أي مرتبة كان فهو يسبح . والتسبيح عبادة لا يكون إلا بتكليف ولا يكلف إلا بشعور . وهذا التسبيح ليس تسبيحاً كونياً كما زعم البعض أن من باب دلالة الأثر على المؤثر بمعنى أن كل شيء يدل على أن له خالقاً وصانعاً . لأن هذه الدلالة ليست مما لا تفقه ، بل هي دلالة واضحة لكل أحد ويفقهه كل ملتفت فقوله سبحانه : **﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾** أوضح شاهد على أن هذا التسبيح هو تسبيح تشريعي تكليفي . وتسبيح خاص بشعور وإخلاص ولكن لا يفقهونه ، لا تسبيح كوني حالي . وقال تعالى في سورة الحج : **﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من**

---

(١) سورة الإسراء، الآية : ٤٤ .

الناس ﴾[1] قد أثبت للشمس والقمر والجبال والجماد كلها ، وللشجر والدواب سجوداً ، والسجود عبادة ولا تكون إلا بتكليف ، ولا يكون التكليف إلا بالشعور ، ولولا أن الأشياء المذكورة لها إدراك وشعور من عالمها وفي رتبتها لما صح نسبة السجود إليها .

والقول بأن هذا السجود هو السجود التكويني أي دلالتها على المؤثر وكونها آية للصانع وليس بسجود تشريعي ، قول خال عن الصواب والتحقيق ، لأن قوله تعالى : **﴿ وكثير من الناس ﴾** يدفع هذا القول لأن الناس كافة حتى الكافر والمشرك يدل على وجوده وعلى صانعه وعلى المؤثر فكلهم خاضعون تكويناً لربهم لا كثير منهم فقط ، فقوله سبحانه : **﴿ وكثير من الناس ﴾** ثم تعقيبه بقوله : **﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾**[2] أقوى حجة لما قلناه ، لأن معنى قوله : **﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾** أي لم يسجدوا لله ولم يخضعوا له وضلّوا عن طريق العبادة ، أنهم لم يأتوا بالعبادة التشريعية والسجود التكليفي العبادي ، فلذا حق عليهم العذاب والسجود التكويني مساوق لوجود كل مخلوق ، فجميع الخلق فضلاً عن جميع الناس بلا استثناء وجودهم يدل على صانعهم وخالقهم وعلى مؤثرهم وموجدهم ، مؤمنين كانوا أو كفاراً أو مشركين ، وكلهم ساجدون وخاضعون ومسبحون تكويناً ، وإلا لما دخلوا في عرصة الكون ، ولما صاروا موجودين ، وكلهم متساوون في حكم التكوين بحكم قوله تعالى : **﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾**[3]

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٨ .
(٢) سورة الحج، الآية: ١٨ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣ .

وبقوله تعالى : ﴿ **أتينا طائعين** ﴾[1] وإنما اختلفوا وكانوا شيعاً في الحكم التشريعي لقوله تعالى : ﴿ **فاختلفوا** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾[3] فهذه الآية ، أي آية السجدة المذكورة حجة قاطعة لإثبات الإدراك والشعور للمذكورات فيها ، من النبات والجماد والدواب ، بحكم إثبات العبادة التشريعية لها .

وقال أيضاً عزّ من قائل في آخر سورة الأحزاب : ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان**﴾[4] فالعرض على السماوات والأرض والجبال وأبائها من حملها وإشفاقها منها ، لا تكون إلا للشاعر المدرك ، ثم الإتيان بنون الجمع المؤنث العاقل في قوله : ﴿**فأبينَ**﴾ ولم يقل : فأبت ، وقوله : ﴿**أن يحملنها**﴾ ولم يقل : أن تحملها وأشفقت منها ، دليل الشعور والإحساس من عالمها ورتبتها من الوجود ، فيكون تكليفها بحسبها وعبادتها بحسبها .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين** ﴾[5] ولا شك أن الطوع ضده الكره وكلاهما لا يكونان إلا بإرادة وعلم وشعور ، ثم إتيانه بلفظ (طائعين) بالياء والنون اللذين هما علامة جمع الغائب العاقل ، وما قال : طائعات أو طائعة ، دليل على حسهما وشعورهما ، ولو

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١ .
(٢) سورة يونس، الآية: ١٩ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣ .
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢ .
(٥) سورة فصلت، الآية: ١١ .

تدبرت كلام الله المجيد لرأيته مشحوناً بما يدل على المراد والمطلوب ، كقوله تعالى في سورة يس : ﴿ **وكل في فلك يسبحون** ﴾[1] أي وكل من الشمس والقمر في فلك يسبحون (بالواو والنون) ولم يقل سابحة أو يسبح ، وكذلك قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ **إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين** ﴾[2] بالياء والنون ، ولم يقل : ساجدة إلى غير ذلك .

وكذا الأخبار ففيها مما يدل على حس الجمادات وشعورها ما لا يحصى كثرة ، كتسبيح الحصيات في كف النبي (صلى الله عليه وآله) ، وحنين الجذع اليابس ، وبكاء الحجارة وجريان الدموع منها في مضي النبي مع أخيه أمير المؤمنين (عليهما السلام) إلى الطائف وبكائها في رجوعها من الطائف ، وجواب الحجارة لأمير المؤمنين لما سألها بأمر النبي : « مم ولم بكاؤك ؟ قالت في البكاء الأول عند مضيهما إلى الطائف : « لخوفي أن أكون حجارة جهنم التي في الآية » وقالت في البكاء الثاني : « لسروري لما بشرتني أني لم أكن تلك الحجارة إنما هي حجارة كبريت »[3] .

وكذا تكلم الحصيات الثلاث لداود (عليه السلام) حين مضيه إلى طالوت لقتال جالوت ، إلى غير ذلك مما يجدها المتتبع كثيراً ، حتى أن الحمى التي هي من الأعراض أيضاً لها حس وشعور ، لما خاطبها إمامنا الحسين (عليه السلام) في عيادته لعبد الله بن شداد

---

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤.
(٣) البحار: ج٨ ص٢٩٧ ح٥٠.

بقوله : « يا كباسة » فسمع الحاضرون الصوت وما رأوا الشخص يقول : « لبيك » فقال (عليه السلام) لها : « ألم يأمرك أمير المؤمنين ألا تقربي إلا عدواً لنا أو مذنباً لكي تكوني كفارة له ؟ فما بال هذا ؟!»[1] فالخطاب لا يصلح إلا لما يعقل ويحس ، والجواب لا يمكن إلا ممن يحس ويشعر .

فإذا ثبت بما ذكرنا من البرهان والأدلة أن الجماد له حس وشعور من عالمه وإن كان حسه بالنسبة إلى الحيوان والإنسان ضعيفاً جداً كلا حس ، عرفت أن له نعيماً أو ألماً وعذاباً من عالمه ، فالأجساد في حفرها تتنعم وتتعذب بحسب ما عندها من الحس والشعور ، كما مرّ تفصيله .

سؤال : ما ذنب الأجساد في العذاب والألم وإنما هي اكتسبت الملاذ الجسدية والمعاصي البدنية بأمر الروح وسلطتها ، ولولا الروح ما تمكنت من عمل أصلاً ولا اكتسبت شيئاً بوجه ؟

الجواب : نعم ، الأمر كما ذكر ، لكن الروح أيضاً وحدها لولا الجسد ما تمكنت من الملاذ البدنية ، ولا صدر منها شيء من الطاعات ولا المعاصي الجسدية أصلاً ، فهما ـ أي الروح والجسد ـ مشتركان في العمل ، فلولا الروح فالجسد ميت لا حراك له ولا اقتدار له على شيء أبداً ، ولولا الجسد فالروح خامل لا عمل له ، وإنما عمله بهذا الجسد ، إنما يبصر أو يسمع بالجسد أو يبطش أو يمشي أو يخطب أو يستغيب بالجسد ، أو يصلي أو يسرق أو يزني بالجسد ، فكل مسعاه

---

(١) البحار : ج٤٤ ص١٨٣ ح٨ (بالمعنى).

وتقلباته ليس إلا بالجسد . ومثلهما في الأعمال مثل الأعمى صحيح الرجلين مع المقعد صحيح العينين واليدين في السرقة من مكان مرتفع أو محل ناء أو ثمرة من شجرة شاهقة ، فالأعمى يحمل البصير المقعد فيجتني ما يريد من الثمر أو يسرق من مكان ناء أو مكان عال ما يحب بدلالة البصير وبتناوله بيديه ، فالبصير عين ويد والأعمى رجل وسلم فلولا الأعمى وسعيه ما درج المقعد ولا تمكن أخذ شيء وتناوله ، ولولا البصير ما اهتدى الأعمى على شيء ولا أدركه أبداً . فكلاهما مشتركان في السرقة ، ويجري الحد الشرعي على كليهما فكذلك حال الروح والجسد . فافهم فإن الله لا يظلم أحداً أبداً .

وإذا قامت القيامة الكبرى أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور نفخة الدفع ضد النفخة الأولى نفخة الجذب فتمطر الأرض من بحر صاد ورائحته كرائحة المني وتربو الأرض وتمخض مخض السقاء ، فعند ذلك تجتمع الأجزاء المتفرقة والأوصال المتشتتة ، فتأتي الروح وتلج في الجسم المثالي ثم تلج بهذا المثالي في الجسد الأصلي الدنياوي ، فيقوم بإذن الله تعالى وينفض التراب عن رأسه ، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله) فيما مر : « كما تستيقظون تحشرون »[1] فيعود هذا الجسد المحسوس الملموس الدنيوي صافياً شفّافاً عارياً عن العوارض الغريبة وعن الكدورات والكثافات البرزخية والدنياوية ، فيثاب ويعاقب ويجازى الروح بهذا البدن الدنياوي المعاد .

هذا آخر ما أمكنتني الفرصة من تحرير هذا المختصر جواباً لهذه الأسئلة ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على ساداتنا محمد وآله

(١) البحار : ج٧ ص٤٧ ح٣١ .

الطاهرين في النصف من شهر رجب المرجب سنة الألف والثلاثمائة والأربع والسبعين من الهجرة ، وأنا الأحقر الفاني (علي بن موسى الحائري) عفي عنهما .

الرسالة الخامسة

في الإجابة عن مسائل متنوعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه ومظهر لطفه وأشرف بريته محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين ، الذين علاهم بتعليته وسمى بهم إلى رتبته ، ولعنة الله على أعدائهم ومخالفيهم وغاصبي حقوقهم الذين هم شر خليقته .

وبعد ، فيقول الأحقر الفاني (علي بن موسى الحائري) عفى الله عن آثامه وجعل مستقبله خير أيامه : إن في أوان توجهي إلى زيارة سيدي ومولاي أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) لدرك فضيلة نصف شعبان تحت قبّته ، وذلك في العشرين من شهر رجب المرجب من سنة الألف والثلاثمائة والخامسة والستين من الهجرة ، أورد علي مسائل نفيسة جناب الأجل الأكرم والخل المعظم صاحب الفضل والمنبر وذو الشرف والفخر ، الصفي الوفي (الملا مكي ابن المرحوم الحاج قاسم بن أحمد بن مدن ابن الشيخ حسن الجارودي الخطي) سلّمه الله وأبقاه ومن كل مكروه حرسه ووقاه ، يريد مني جوابها وكشف نقابها ، وحيث كنت على جناح سفر تأخر إنجاز ما أراد إلى بعد قضاء الوطر ،

ولدى قفولي إلى الإحساء سارعت إلى الجواب سائلاً من الله تعالى وأوليائه الأطهار الهداية إلى الصواب مع ما أنا عليه من كثرة الأشغال وتبلبل البال ، لكن لا يسقط الميسور بالمعسور ، والله حسبي وعليه توكلي في كل الأمور ، وجعلت سؤاله كالمتن وجوابي له كالشرح .

قاله (سلّمه الله تعالى) بعد السلام والثناء على حسب حسن ظنّه .

المسألة الأولى

تأويل : ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر . . . ﴾ الخ

الاولى : ما يقول شيخنا (أيّده الله) في تأويل قوله تعالى : وإذ قلنا يا موسى ﴿ **اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتي عشرة عيناً** ﴾ فمن موسى ومن العصا وما الحجر وما العيون ؟ .

أقول ـ ولا قوة إلا بالله ـ أن الآية الشريفة ليست كما ذكره السائل (سلّمه الله تعالى) بل هي في سورة البقرة ، هكذا : ﴿ **وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم** ﴾[(١)] وفي سورة الأعراف هكذا : ﴿ **وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم** ﴾[(٢)] ومراد السائل (سلّمه الله تعالى) هو الكشف عن تأويل الآية الشريفة وباطنها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

لا ظاهرها ، لأن ظاهرها معروف مشهور لا خفاء فيه ، ومع ذلك لا بأس أن أشرنا إلى الظاهر اختصاراً ثم عطفنا الكلام إلى الباطن .

التفسير الظاهر

فنقول : لما اشتد العطش في التيه على بني إسرائيل ، التجأوا إلى نبيهم ، نبي الله موسى (عليه السلام) ، وتضرعوا إليه . فسأل الله تعالى أن يسقيهم فأوحى الله إليه أن اضرب الحجر بعصاك التي كانت لك آية باهرة التي ضربت بها البحر فانفلق والتي صارت ثعباناً تلقف ما يأفكون ، وهي التي حملها آدم من الجنة إلى الأرض ، فكانت عند نبي الله شعيب (عليه السلام) ، فدفعها إلى موسى ، وكان طولها عشرة أذرع كطول موسى ، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً فضرب بها الحجر داعياً بمحمد وآله الطاهرين (عليهم السلام) ، وكان ذلك حجراً مخصوصاً ، كما كانت العصا كذلك وما كان من عرض سائر الأحجار كما قيل بل روي أنه نزل من الجنة ، كما في التفسير المسمى (ببيان السعادة) عن إمامنا الباقر (عليه السلام) أنه قال : « نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام إبراهيم وحجر نبي إسرائيل والحجر الأسود »[1] فكما أن العصا كانت آية باهرة كذلك كان ذلك الحجر فلذا إذا ظهر الحجة المنتظر (عجّل الله فرجه) حمل معه ذلك الحجر فينادي مناديه : « ألا لا يحملن أحدكم طعاماً ولا شراباً ولا ينزل منزلاً إلا انفجرت من ذلك الحجر عيون فمن كان جائعاً شبع ومن كان ظمآناً روي ورويت دوابهم حتى ينزلوا ظهر الكوفة النجف »[2] .

---

(١) تفسير الصافي: ج١ ص١٢١.

(٢) تفسير الصافي: ج١ ص١٢٢.

فلما ضرب موسى بعصاه الحجر انفجرت (كما في سورة البقرة) وانبجست (كما في الأعراف) الانفجار هو الجريان بقوة وكثرة والانبجاس هو الجريان بضعف وقلة . ولا منافاة بينهما ، إذ يحتمل أن يكون الانبجاس في أول الضربة وأول الجريان ثم يتقوى بعد ذلك فيكون انفجاراً . كما هو العادة والمتعارف غالباً في بعض العيون الذخّارة . أو أنه ينبجس عند حمل الحجر وينفجر عند وضعه ، أو أن الأمرين يجريان على حسب الحاجة فلدى الحاجة إلى القليل ينبجس وإلى الكثير ينفجر ، كما قيل ولا بأس به ، بل هو جيد .

قال تعالى : ﴿ **فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم** ﴾[1] العيون على عدد الأسباط ، حيث كانوا اثني عشر سبطاً . فلكل سبط عين ماء عذب فرات في جدول خاص إلى ذلك السبط على قدر حاجته . ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ وكان يشرب كل يوم منه ستمائة ألف نسمة ، جلّت قدرته وبهرت وعظمت آيته . هذا ظاهر التفسير .

التفسير الباطن

وأما الباطن والتأويل فموسى الحقيقي هو نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) وموسى نبي إسرائيل إنما سمي موسى لأن آل فرعون التقطت صندوقه الذي كان فيه من نهر النيل بين الماء والشجر فسموه موشى (بالشين المعجمة) على اللغة العبرانية ، كلمة (مو) عبارة عن الماء و (شى) عن الشجرة ، فلما نقل إلى العربية قيل موسى (بالسين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

المهملـة) وكـذا كـل شيـن (بـالمعجمـة) فـي العبـرانيـة هـو سين (بالمهملة) في العربية ظاهراً ، وعيسى في لغتهم عيشى بالمعجمة ، وهكذا .

ونبيّنا (صلى الله عليه وآله) هو الذي تخلّق من ماء الوجود النازل من سحاب المشيئة الإلهية ، إذ لا خلق قبله ، ومن شجرة صورته وإنيته وماهيته التي هي الشجرة المباركة الأولية التي لا شرقية هي ولا غربية ، برزخ البرازخ لا وجود حق ولا وجود مقيد ، بل وجود مطلق ومفعول مطلق لم يقيد إلا بالمشيئة لا غير ، أو أنه لا وجود مطلق وهي المشيئة الكلية ولا وجود مقيد الذي أوله الدرة وآخره الذرة ، بل أمر بين الأمرين ، وهو نور الأنوار ومادة المواد واسطقس الأسطقسات ، وهنا مطالب كتمانها في الصدور خير من إبرازها في السطور ، فيكون موسى الحقيقي الأصلي الأولي هو نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) ، وهو الذي عناه مولانا ومولى الكونين أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله : « أنا عصا موسى لا موسى نبي إسرائيل » وإلا لزم أن يكون من هو أفضل وأشرف بمراتب لا يحصيها إلا خالقه آية ومعجزة لمن هو أدنى وأنزل منه بمراتب كذلك ، وكيف تكون الآية أفضل وأشرف من ذي الآية ؟ ومحمد وآله الطاهرين (سلام الله عليهم) أفضل من كل نبي وملك ومن كل ما سوى الله تعالى ، والأنبياء عامة خلقوا من فاضل أنوارهم وشعاع أجسامهم الشريفة ، كما هو منطوق الأخبار المستفيضة ، بل المتواترة ، بل هم الوسائط لتكون وجوداتهم ، فيكون مقامهم بالنسبة إلى الأنبياء مقام العلة والمؤثر ، فكيف يكون العلة والمؤثر آية ومعجزة للمعلول والأثر وهذا خلاف

الحكمة ، بل هو في الحقيقة انقلاب للحقيقة . فثبت أن موسى الذي عناه مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله : « أنا عصا موسى » هو نبيّنا (صلى الله عليه وآله) لا غير ، كي يوافق كونه عصا له وآية ومعجزة وبرهاناً لنبوّته ، فافهم .

ومن هذا البيان ظهر لك معنى العصا في الآية الشريفة تأويلاً ، وأنها هي إمامنا أمير المؤمنين علي (عليه الصلاة والسلام) ، فكما أن موسى الظاهري إنما ظهرت نبوته وقهر عدوه وفرعون زمانه بعصاه ، وغلب السحرة بتلك العصا ، وبها فلق البحر وضرب الحجر فانفجرت العيون منه ، وغير ذلك مما صدر منها ، فصارت العصا آية باهرة ومعجزة سماوية له لا ترد ولا تبطل ، فكذلك علي (سلام الله عليه) بالنسبة إلى نبيّنا هو آية الله الكبرى ومعجزة نبينا العظمى وعصاه التي لا تنثني ولا تنثلم ولا ترجع قهقرى ، ويتكأ عليها في جميع أموره ويهش بها على غنمه وأمّته ورعاياه وله فيها مآرب أخرى في الدنيا وفي البرزخ والأخرى ، وما ظهرت بل وما استقرت نبوّته إلا بعلي (عليه السلام) ، بل لم يؤمر بالتبليغ وإظهار البعثة إلا بعد تولده (عليه السلام) وبلوغ سنّه عشر سنوات ، فشد به إزره وأشركه في أمره وأيّده به ونصره ، فجعل يدافع عنه ويذب عنه الجهّال وعتاة المشركين وطغاة المنافقين ، ويرغم آناف صناديد قريش ، وما حضرت معضلة إلا كشفها علي (عليه السلام) ولا مشكلة إلا وحلّها ولا كربة إلا وفرّجها ولا غزوة إلا وحضرها وصار الفتح والنصر على يدُيه ، ولا زال يغوص الشدات وينغمر في لجج الكربات فيتخلص عنها نجياً ، وينجو منها ظافراً مهدياً ، وما برح يكشف الكرب عن وجه

رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الحروب والغزوات وغيرها حتى استقرت نبوّته وثبتت شريعته ونفذت كلمته واتسعت دائرته وانتشرت دعوته ، فكان له (صلى الله عليه وآله) كما أفصحت عنه سكنه وزوجته وكفوه رضيعة الوحي وأرض الولاية في خطبتها قائلة : « أو نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله سيداً في أولياء الله مشمراً ناصحاً مجدّاً كادحاً . . الخ »[1] . ولولاه لما قام عمود الإسلام وما اخضر عوده ، ولولا حسامه ما كمل الدين ولا تنشبت عروقه ، فهو العصا الموجه بها في جميع حاجات الرسول ومأربه والناهض المكافح الناطح الساعي المجد في عامة مطالبه . فحق له (عليه السلام) إذا قال : « أنا عصا موسى » ومثل هذه الآية العظمى والمعجزة الكبرى لا تليق إلا لمثل ذلك النور الأتم والتجلي الأعظم ، الرسول الأكبر وخير كافة الخلق والبشر ، صلى الله عليه وعلى عصاه وآلهما الطيبين الطاهرين .

وأما الحجر في تأويل الآية ، فهي سيدتنا الزهراء والصدّيقة الكبرى التي على معرفتها دارت القرون الأولى ، كما في أمالي الشيخ عن الصادق (عليه السلام) . وكما أن ذلك الحجر نزل من الجنة كما مرَّ في الرواية عن إمامنا الباقر (عليه السلام) ، فكذلك هذه السيدة الطاهرة كان نورها مودعاً في شجرة من أشجار الجنة ، كما عن عيون المعجزات . فلما دخل والدها رسول الله الجنة أوحي إليه أن اقتطف

---

(١) الإحتجاج: ص١٠٠.

الثمرة من تلك الشجرة وأدرها في لهواتك فخلقت من ذلك النور .

ولما أراد الله سبحانه نجاة الخلق من تيه الضلال ، وترويهم من آداب المعرفة والكمال ورزقهم من فنون العلم ، وكل فيض كوني وشرعي دنيوي وأخروي ، أوحى الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) أن اضرب بعصاك الحجر ، أي زوّج النور من النور . فنهض ممتثلاً بأمر الله قائماً بوظائف ذلك الازدواج مهتماً لما قدّر الله منهما من عظيم النتاج ، حيث قال تعالى : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾[2] .

بعد ما جرى في الملأ الأعلى والعالم العلوي من الله سبحانه في هذا الزواج من الاهتمام وعظيم الاعتناء بما لم يجر لأحد من الأولين والآخرين من إجراء الله (عزَّ وجلَّ) عقد المزاوجة بنفسه جلّ وعلا ، وخطبة راحيل عنه سبحانه في البيت المعمور في جمع من أهل السماوات وترجمة جبرائيل أيضاً عن الله (جلّ وعلا) بنظير تلك الخطبة وتزيين الجنان بأمر خازنها رضوان ونثار الياقوت والمرجان وجعل المهر والنحلة ربع الدنيا وأنهارها الأربعة العظمى وجنة المأوى والشفاعة الكبرى تدخل الجنة من شاءت من مواليها والنار من معاديها . وكل ذلك مقتضى الروايات الكثيرة وغير ذلك من عنايات الله تعالى وكرامته على هذه البضعة المباركة التي هي الحجر المكرم لتلك العصا ، وهي الأرض المقدسة البيضاء لسماء الولاية الكبرى ، فلا

---

(١) سورة الرحمٰن، الآيات: ١٩ ـ ٢٠ .
(٢) سورة الرحمٰن، الآية: ٢٢ .

موقع لتلك العصا إلا هذا الحجر ، كما أنه ليس لهذا الحجر قرين إلا تلك العصا .

وأما تأويل العيون في الآية ، فهي الأئمة الاثني عشر المنبجسة من الحجر المعنوي المتشعبة من تلك الأرض النقية النوراء ، وهم الهداة للخلق والدعاة إلى الحق ، كل في زمانه وأيامه على حسب الظاهر ، وفي جميع الأزمنة والدهور باطناً وواقعاً . ما عرف أحد ربه وما علم الناس بل وكل الخلق على طبقاتهم مشربهم إلا بهم ، وبواسطتهم . وما وصل لأحد من خير أو فيض أو علم إلا منهم وعنهم وبهم ، فهم أصل كل خير في جميع العوالم . كما في نص الزيارة الجامعة ومبدأ كل فيض ومعرفة لعامة الخلق من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين جميعاً إلا سيدهم محمد (صلى الله عليه وآله) . وكل طبقة من المخلوقات يتلقّى الفيض عنهم (عليهم السلام) من الله تبارك وتعالى . وكل أحد على مقدار إقباله وسؤاله ينال من فضلهم وجودهم . وهذا تأويل قوله سبحانه : ﴿ **فسالت أودية بقدرها** ﴾[1] فهم العيون المتفجرة العذبة لما سوى الله على مراتبهم ودرجاتهم من سلسلة الموجودات ، فخذها قصيرة من طويلة .

وهذا التأويل المذكور للعصا والحجر والعيون مستفاد من بيانهم وتفسيرهم ، وعليك بكتاب (صحيفة الأبرار) في الصفحة (١٥٠) الحديث التاسع من الجزء الثاني ، حيث قال : وفيه ، أي في كتاب الحسين بن حمدان مسنداً إلى جابر الجعفي ، قال : قال سيدي الباقر محمد بن علي (عليهما السلام) في قول الله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ وإذ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾[1] قال (عليه السلام) : « إن قوم موسى لما شكوا الجدب والعطش استسقوا بموسى فاستسقى لهم فسمعت ما قال الله لهم ومثل ذلك قال المؤمنون إلى جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالوا له : يا رسول الله تعرفنا من الأئمة من بعدك فما مضى نبي إلا وله وصي وأئمة من بعده وقد علمنا أن عليّاً وصيك فمن الأئمة من بعده فأوحى الله إليه أني قد زوّجت علياً بفاطمة في سمائي تحت ظل عرشي وجعلت جبرائيل خطيباً لها وميكائيل وكيلها وإسرافيل القابل عن علي وأمرت شجرة طوبى فنثرت عليهم اللؤلؤ الرطب والدر والياقوت والزبرجد الأحمر والأصفر والأخضر ومناشير مخطوطة بالنور فيها أمان الملائكة من سخطي وعذابي فنثار فاطمة تلك المناشير في أيدي الملائكة يفتخرون إلى يوم القيامة وجعلت نحلتها من علي ونحلتها عني خمس الدنيا وثلثي الجنة وجعلت نحلتها في الأرض أربعة أنهار الفرات ونيل مصر وسيحان وجيحان فزوجْها أنت يا محمد بخمسمائة درهم تكون إسوة بها لأمّتك بابنتك فإذا زوجت فاطمة من علي فعلي العصا وفاطمة الحجر يخرج منها أحد عشر إماماً من صلب علي يتم اثني عشر إماماً لعلي حياة لأمتك تهتدي كل أمة بإمامها في زمنه ويعلم كل قوم مشربهم كما علم قوم موسى مشربهم فهذا تأويل هذه الآية وكان بين تزويج علي بفاطمة في السماء وتزويجها في الأرض أربعون يوماً » انتهى الحديث الشريف .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

فقد صرّح الإمام (عليه السلام) بأن العصا علي والحجر فاطمة والعيون الأئمة الاثني عشر ، فإن قلت : إذا كان العصا هو أمير المؤمنين والحجر فاطمة الزهراء والذين تولدوا منهما هم أحد عشر إماماً فأين الاثنتي عشرة عيناً ؟ فإن عدّ علي من العيون لتكميل الاثنتي عشرة فأين العصا ؟ ومن تكون هي ؟ والمفروض أنه هو العصا ، قلت : إن لأمير المؤمنين مقامين ورتبتين :

مقام به يختص ولا يشاركه أحد من الأئمة ولا غيرهم من الأنبياء والأوصياء ، وهو مقام كونه أصلاً للتفاصيل ومقام كونه سيد الأوصياء وأميرهم يميرهم العلم ميراً ، فلذا لا يجوز لغيره أن يقال له أمير المؤمنين لأن المؤمنين الحقيقيين هم الأئمة أولاده الطاهرون ، فلا يكون غيره أميراً لهم ، ففي هذا المقام هو (سلام الله عليه) عصا لا غير ولا يشاركه غيره .

والمقام الثاني مقام كونه إماماً للخلق كسائر الأئمة وهادياً لهم تنتفع الخلق منه كما تنتفع منهم ويأخذون أحكامهم ومعالم دينهم منه كما يأخذون من باقي الأوصياء ، ويهتدون بنوره وعلومه كما يهتدون بنور سائر الأئمة وعلومهم ، ويعرفون به ربهم وخالقهم كما يعرفون بأولاده المعصومين ، ففي هذا المقام يكون علي (عليه السلام) مساوياً مع أولاده الأئمة (عليهم السلام) في سد احتياج الخلق وكفاية أمورهم وهدايتهم ودعوتهم إلى الله تعالى ، وإن كان أفضلهم وسيدهم فهو حينئذ عين من العيون وقائد من القادة وسيد من السادة يشارك الأئمة في وظيفتهم ولباسهم ، بخلاف مقام كونه عصا ، فإنه مقام يمتاز به

ويختص له ولا يشاركه أحد فيه بوجه ، وهو (سلام الله عليه) في مقام كونه عصا غير مقام كونه عيناً من العيون ، فلا ينافي أنه مع كونه عصا في المقام الأول يكون مكملاً لعدد العيون الاثنتي عشرة في المقام الثاني ، فهو من جهة عصا ومن جهة عين من العيون ، فارتفع الإشكال بحول الله ، فخذها وكن من الشاكرين .

ونظيره في هذا الإشكال والجواب عنه الحديث المعروف « أن نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) لما سبح في البحور الاثني عشر ثم إلى تمام العشرين وتمّت سبحاته في هذه الأبحر قطرت منه مائة ألف قطرة وأربع وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله تعالى من كل قطرة نبياً من الأنبياء فصارت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً »[1] نقلت الحديث بالمعنى ، وهو معروف مشهور .

وجه الإشكال أن تكميل الأنبياء بذلك العدد إنما يكون بنبينا محمد (صلى الله عليه وآله) ، فهم به يبلغون ذلك العدد لا غير ، والحال أن الظاهر من هذا الحديث أن ذلك العدد خلقوا من قطراته ، فيكون هو غيرهم ، لأن القطرات غير المقطور منه ، فإما أن يكون عدد الأنبياء زائداً على ذلك العدد ، أي يكون عدتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وواحداً بنبيّنا محمد (صلى الله عليه وآله) ، وهو خلاف المتّفق عليه بين المسلمين ، وإما أن تكون القطرات ناقصة بقطرة واحدة حتى يكون بنبينا مكملاً لعدتهم وهو خلاف ظاهر الحديث في عددها .

(١) انظر البحار : ج١١ ص٢١ وص٣٠ ح٢١ .

وبعبارة أخرى أن القطرات غير المقطور منه ونبيّنا يكون من عداد الأنبياء بتلك العدة ، فكيف يكون من عدّتهم وهو أصل القطرات وعلّتها ؟ فإما أن يكون نبينا من عداد القطرات ومكمل أعدادها فكيف يكون مقطوراً منه ؟ وإما أن يكون مقطوراً منه فلا يكون من عداد تلك القطرات فكيف تكون عدتها مائة ألف وأربعاً وعشرين ألفاً ، بل ينبغي أن تكون ناقصة بقطرة واحدة ، حتى يبلغ عدتهم بنبينا إلى ذلك العدد ، وإلا فمع نبينا يزيد على عدتهم بواحدة وهو خلاف المتّفق عليه من العدد ، ويكون نبينا قطرة ومقطوراً منه وهو واحد ، أي علة ومعلولاً مؤثراً وأثراً ، وهذا غير معقول .

والجواب يظهر مما حققناه في العصا والعيون . ومجمله أن لنبينا (صلى الله عليه وآله) حالتين :

الحالة الأولى : هو فيها علة الخلق جميعاً وواسطة بين الله والأنبياء وهم طراً مخلوقون من أشعة نوره ، إذ كان (صلى الله عليه وآله) سراجاً منيراً لعالم الإمكان والأكوان ، لا سراج هناك غيره ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾[1] فهو وقتئذ هو السراج وحده لا سراج غيره ، فتكون الأنبياء أشعة له ومعلولين لوجوده ومستضيئين كالكواكب من شمس حقيقته .

والحالة الثانية : أنه يلبس بأمر الله لباس النبوّة ، فيصير كأحد الأنبياء أرسله الله تعالى لهداية البشر وإنقاذهم من حيرة الضلالة وعبادة

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتين: ٤٥ ـ ٤٦ .

الأوثان والدعوة إلى الله سبحانه وتكميل آدابهم وتتميم محاسن أخلاقهم كما أرسل سائر الأنبياء وأوحى إليه كما أوحى إليهم ، وصدّقه بالمعجزات وخوارق العادات كما صدقهم ، فهو في هذا المقام واحد منهم بيد أنه خاتمهم لما كان سيدهم وأفضلهم ، فلذا كان يقول : أخي إبراهيم وأخي موسى وأخي عيسى لجهة المماثلة في لباس النبوة ، كما كان يقول : أخي جبرائيل مع أنه خادمهم وخادم شيعتهم والعبد والخادم لا يكونان أخوين للمولى والسيد ، وحاشا ثم حاشا ، والأخوة تستدعي المساواة والمماثلة ، وذلك لما لبس في عالم الأنوار لباس الأملاك ، فعلمهم التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ومعرفة الرب وعبادته ، فصار بذلك اللباس أخاً لهم ، وكما أن أمير المؤمنين أمر ابنه الحسن قائلاً امض إلى عمّك الأسود المقطوعة يده وائتني به ، فصار الأسود عمّاً للإمام لما تلبّس من المحبة والولاء والإيمان وكما أنه (عليه السلام) أيضاً أمر جويرية وقال : « كن مع أخيك الأسد حتى تدفنه » وكيف يكون الحيوان أخاً للإنسان ؟ وليس إلا لمماثلته معه في الإقرار بولايته والثبات والاستقامة ، فأخوّة الأنبياء لنبيّنا (صلى الله عليه وآله) كأخوّة الملائكة المقرَّبين له ليست إلا لتنزّله إلى مقامهم وتلبّسه بلباسهم في عالمهم ، وإلا فهو (صلى الله عليه وآله) لا مثل له ولا نظير أبداً وليس له أخ حقيقي إلا وصيه وابن عمه أمير المؤمنين (عليه السلام) لا غير فهو الذي كان نظيره ومثله في كل شيء إلا النبوّة ، فلذا اختصّه لنفسه يوم المؤاخاة واختاره أخاً ، وما كانت تلك إلا مؤاخاة سماوية حقيقية تكشف عن الحقائق وتنطق عن رتب الخلائق ، وكيف لا يكون أخاً حقيقياً له وقد حكم الله سبحانه في

آية المباهلة أنه نفسه في قوله تعالى : ﴿ وأنفسنا وأنفسكم ﴾[1] ؟ وليس إلا لاتحاده معه في الصفات والشرف والرتبة والعلم والمعرفة .

والحاصل أن نبينا (صلى الله عليه وآله) لما لبس لباس النبوَّة صار واحداً منهم ومن جملتهم ومكمّلاً لعددهم ، وإن كان أفضلهم وأشرفهم ، وإن كانت أيضاً نبوّة عامة كلية ونبوّة سائر الأنبياء بالنسبة إلى نبوّته خاصة جزئية ، فهذا اللباس يعد قطرة من قطراته ورشحة من رشحاته ، وبهذا اللحاظ صار معدوداً من سلسلتهم ومحسوباً من عدادهم وواحداً من عددهم ، بخلافه على اللحاظ الأول ، فإنه بذلك اللحاظ علّة لهم وواسطة بينهم وبين بارئهم وشفيع لهم وصراطهم إلى الحق وبابهم للفيض الكوني والشرعي . فإذا اتقنت ذلك كله عرفت أن الأنبياء (عليهم السلام) مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، ونبينا من ذلك العدد وداخل فيهم بلباس النبوة وهو مع ذلك لم يخل مقامه من كونه أصلاً للقطرات والرشحات . كما هو مقتضى الحديث المذكور ، ولا يتوجه عليه أي إشكال ولا بعض سؤال فافهم واغتنم ، فإنك لا تجد نحو هذا البيان والتحقيق إلا ممن شرب من العين الصافية التي لا كدر فيها ولا ملوحة ولا مجاج وذاق من الحكمة التي لا خلل فيها ولا اعوجاج .

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

المسألة الثانية

تأويل قوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾[1]

قال (سلمه الله): المسألة الثانية قول عيسى (عليه السلام): ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ .

أقول ولا قوة إلا بالله : هذه الآية في أواخر سورة المائدة ، والظاهر أن سؤاله إنما هو بالنسبة إلى الفقرة الثانية أي قوله : ﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾ من حيث ان ما موصول وفي نفسك ظرف له والظرف غير المظروف بالبداهة ، فإن كان المراد من تلك النفس ذات الله القديمة يلزم أن يكون ظرفاً ، والمظروف إن كان قديماً تعدد القدماء ، وإن كان حادثاً صار القديم محلاً للحوادث ، وكلاهما باطلان . وأيضاً الظرف والمظروفية من صفات الحدوث والقديم أجل من ذلك وتعالى شأنه .

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦ .

وأما الفقرة الأولى ، أي قوله : ﴿ **تعلم ما في نفسي** ﴾ فليس لأحد فيه إشكال ولا هي محل سؤال ولا يستريب فيه أحد ، إذ ما في نفس عيسى مخلوق كنفس عيسى ، ولا يستشكل ذو مسكة في إحاطة علمه تعالى بمخلوقه ، وأنه لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ، كما هو صريح الآية وصريح آية : ﴿ **قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله** ﴾[١] وآية : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[٢] على كلا الاحتمالين ، من كون الموصول ، وهو لفظ (من) فاعلاً ليعلم أو مفعولاً له والعائد محذوف ، أي من خلقه ، فيكون ما في النفس وما في الصدور مخلوقاً له تعالى ، وإلا ما تم التعليل بقوله : ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ وكان منفصلاً عما قبله ، بل كان لغواً وغير صحيح .

وهذا ظاهر لا غبار عليه وإن وقع الخلاف بين الحكماء في أن علمه بالأشياء ذاتي أو إشراقي أو غير ذلك .

والحق أن علمه إشراقي كما حقق في محله وليس المقام موضع التفصيل فالسؤال إنما هو عن الفقرة الثانية ، وهي قوله : ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾[٣] وقد تقدم وجه السؤال والإشكال ، ومجمله أن ما في النفس غير ذات النفس ضرورة ، فهل ما في النفس قديم ؟ إذن ليتعدد القدماء ، أو حادث ؟ إذن ليكون القديم محلاً للحوادث ، وبطلانهما واضح ، ولا ثالث في البين .

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الملك، الآيتين: ١٣ ـ ١٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

والجواب من أحد وجهين ، ظاهر وباطن .

أما الأول فبأن عيسى إنما عبّر بقوله : ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾[1] من باب التنظير والمشاكلة في التعبير مع قوله : ﴿ **تعلم ما في نفسي** ﴾ المعدود من الاستحسانات البديعية ، فهو تعبير قشري ومقابلة في اللفظ فقط من غير قصد للظرف والمظروف ، فإنه تعالى أجل وأقدس من أن يكون ظرفاً للأشياء أو تحل فيه المعاني أو يكون له نفس أو روح أو قلب ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[2] والمراد أنك محيط بي ولست بمحيط بك ، أو تعلم سري وغيبي ولا أعلم سرك وغيبك ، أو تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه .

ويشهد بذلك ما رواه في الصافي عن العياشي عن الباقر (عليه السلام) في تفسيرها : « أن الإسم الأكبر ثلاث وسبعون حرفاً فاحتجب الرب بحرف ، فمن ثمة لا يعلم أحد ما في نفسه (عزَّ وجلَّ) ، أعطى آدم اثنين وسبعين حرفاً فتوارثتها الأنبياء حتى صارت إلى عيسى (عليه السلام) فلذلك قول عيسى : ﴿ **تعلم ما في نفسي** ﴾ ، يعني اثنين وسبعين حرفاً من الاسم الأكبر ، يقول أنت علّمتنيها فأنت تعلمها . ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾ ، يقول لأنك احتجبت من خلقك بتلك الحرف فلا يعلم أحد ما في نفسك»[3] .

فكشف هذا الحديث عن معنى تلك الفقرة بأنك تعلم ما أخفيه أنا وهو الاثنان والسبعون حرفاً ، وقد أخفاه عن الخلق لا عن الله تعالى ،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦ .
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١ .
(٣) تفسير الصافي: ج٢ ص١٠١ .

ولا أعلم ما أخفيته أنت من تلك الحرف المحجوب بها ، فليس هناك ظرف ومظروف إلا في التعبير والمقابلة لا غير .

واعلم أن كشف النقاب عن إشارات الحديث ورفع الحجاب عن رموزه وكناياته يحتاج إلى بسط وتفصيل ليس هنا محله .

وأما الثاني فهو أن يراد بالنفس النفس المخلوقة التي من عرفها لم يشق أبداً ومن جهلها ضل وغوى .

بيانه أن الله سبحانه لما خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ، وكان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار ، فخلق محمداً وآله الأطهار (عليهم السلام) من نوره لصفاء زيتهم ونورانية قابليتهم ، وسبق إجابتهم وجعلهم بحال مشيئته والسن إرادته وأقامهم في الأداء مقامه ، فصاروا بذلك مظاهر أفعاله ومصادر آثاره ومجالي صفاته الفعلية ، لقربهم إليه وتلاشي إنياتهم في جنبه واندكاك جبلتهم دونه ، بحيث لم يبق لهم مشيئة وإرادة لذواتهم إلا مشيئته وإرادته ولا ميلان لطبعهم وحقيقتهم إلا إلى رضاء ومحبة بارئهم ، وذلك لأنهم خلقوا باختيارهم على هيئة مشيئته وصبغوا بلون إرادته ، فلا يظهر منهم إلا ما يشاء ولا يصدر منهم إلا ما يحب ولا يفقدهم فيما يحب ولا يجدهم فيما يكره أبداً ، فحكوا صفاته وظهرت عنهم أفعاله ، فجعل الله معرفتهم معرفته وإطاعتهم إطاعته ومحبتهم محبته وغضبهم غضبه وأسفهم أسفه ورضاهم رضاه وسخطهم سخطه ، « من عرفكم فقد عرف الله ومن جهلكم فقد جهل الله ومن أطاعكم فقد أطاع الله ومن عصاكم فقد عصى الله ومن أحبكم فقد أحب الله ومن

أبغضكم فقد أبغض الله ومن اعتصم بكم فقد اعتصم بالله » . فصاروا بذلك وجه الله وآيته ووليه ودليله وصراطه ويده ولسانه وأذنه وعينه وقلبه ونفسه ، أي لشدة قربهم إلى بارئهم وكمال إتصالهم به في الأفعال نسبهم إلى نفسه وقال : هم يدي ولساني ووجهي وقلبي وأذني ، كما قال : الكعبة بيتي ﴿ **وطهر بيتي للطائفين** ﴾[1] وعيسى روح الله وكلمة الله ، ففي الزيارة السابعة لأمير المؤمنين (عليه السلام) : « السلام على وجه الله الذي من آمن به أمن ، السلام على نفس الله القائمة فيه بالسنن وعينه التي من عرفها يطمئن ، السلام على أذن الله الواعية في الأمم ويده الباسطة بالنعم وجنبه الذي من فرط فيه ندم » ، وهم (سلام الله عليهم) مع ذلك عبيد مخلوقون مربوبون فقراء إلى بارئهم محتاجون كل آن إلى مدده تعالى ، لو انقطع المدد عنهم آناً ما لفنوا واضمحلوا ، هو المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، والأفعال التي تجري على أيديهم كلها أفعال الله لا أفعالهم ، فلا ضير إذا قيل لهم أعين الله وألسنة الله ووجوه الله وأيدي الله ، ولا بدع ولا غلو إذا قيل الإمام قلب الله أو نفس الله ، كما هو مفاد الأخبار المستفيضة والزيارات الكثيرة ، أي قلب مخلوق منسوب إلى الله تعالى لشرافته ، ونفس حادثة منسوبة إلى الله لعزّتها ، وإلا فذات الحق تعالى في عزّ ذاته منزّهة عن هذه النسب وأجل من أن يكون لها قلب أو نفس أو روح أو غير ذلك .

إذا اتقنت ذلك فنقول في الآية الشريفة : أنه لا يبعد أن يراد

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٦.

بالنفس في قوله : ﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾[1] النفس الحادثة المخلوقة ، كما مرَّ في الزيارة السابقة ، لأن نفسه هي النفس الكلية الإلهية الملكوتية المحيطة التي لا يعلم ما فيها إلا خالقها ، لا عيسى ولا موسى ولا غيرهما من سائر الخلق ، عدا محمداً (صلى الله عليه وآله) ، ونفس عيسى جزئية مخلوقة من شعاع تلك النفس الملكوتية ، وهي تحتها ومحاطة بها وأثرها ، وأنى للأثر والجزئي أن يصل إلى مقام المؤثر ويحيط بما في الكلي . هيهات ثم هيهات !! وإلا انقلب الأثر مؤثراً والشعاع شعلة والجزئي كلياً ، وهو محال في الحكمة .

وإذا صح أن يراد بالنفس تلك النفس الحادثة المنسوبة إلى الله صار ما في النفس مشاكلاً ومماثلاً لها في الرتبة ، أي صار المظروف من سنخ الظرف في الحدوث والإمكان وجرياً على حقيقتها من الظرفية ، فلا يتأتى الإشكال المذكور في السؤال من لزوم تعدد القدماء ، أو كون القديم محلاً للحادث ، ولا نحتاج إلى تكلف أن هذا التعبير في هذه الفقرة من باب المشاكلة والمقابلة مع الفقرة الأولى ، وأنه لا ظرف ولا مظروف واقعاً ، وإنما هما تعبير وتنظير ، فافهم وتبصر ولا تنكر ما لم تحط به خيراً .

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦ .

المسألة الثالثة

شرح آية النور

قال (سلّمه الله تعالى) : « المسألة الثالثة قوله تعالى : ﴿ **الله نور السمٰوات والأرض** ﴾[1] إلى آخرها » .

أقول ، ولا قوة إلا بالله : اعلم أن القرآن كله إعجاز وصادر بواسطة العقل الكلي ، ولا يحيط بمزايا ظاهره وظاهر ظاهره عقول البشر ممن تقدم أو تأخر ، فضلاً عن باطنه وباطن باطنه إلى السبع والسبعين بطناً ، كيف والقرآن رمز بين الحبيب والمحبوب ولا يطلع على خفاياه إلا من خوطب به ونزل في داره !! وأنى للعقول الجزئية الإحاطة بما صدر من العقل الكلي !!! بل لو اجتمعت الجن والإنس على أن يحيطوا علماً بدقائق إعجازه ولطائف إشارته ورموزه لرجعوا خائبين وارتدوا خاسرين خاسئين !! وهيهات للمخلوق أن يحيط خبراً بكلام الخالق وقد قال تعالى على سبيل الحصر : ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

والراسخون في العلم ﴾[1] . والراسخون هم المصطفون الذين ورثوا الكتاب ونزل الوحي في دارهم ، فهم أيضاً يعلمون تأويله .

والحق أن (الراسخون) عطف على (الله) لا أنه مبتدأ كما زعم وإلا لزم أن يكون القرآن لغزاً وأحجية ، فما الفائدة إذن في تنزيله لو لم يعلم أحد حتى من خوطب به ، مضافاً إلى أن قول **﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾**[2] لا يبتني على الرسوخ في العلم بل يكفي فيه التسليم أو طفح العلم ، ولو قال : «والمسلمون أو المخبتون أو العالمون أو العارفون» يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، لكفى ولأغنى عن كلمة الرسوخ ، بل كانت أنسب ، ولما قال **﴿ والراسخون ﴾**[3] علمنا أن محمول هذا الموضوع والمترتب عليه أمر لا يتأتى لغير أهل الرسوخ ولا يناله من عداهم ، وهل هو إلا تأويل القرآن النائي عن درك كل عاقل والمرتفع عن مشعر أي شاعر ، فافهم .

وانتقل إلى أن مثلي وأمثالي لا يحق له أن يحوم حول هذا الحرم المنيع ولا يسوغ له أن يدنو دون ذاك الجبل الرفيع ، فضلاً من أن يخوض لجج هذا البحر العميق أو أن يجول في ميدان ذاك البر السحيق ، سيما وبعض الآيات لها تمام الامتياز قد حازت أعلى مراتب الإعجاز ، مثل هذه الآية ، آية النور التي هي نور على نور ونور فوق طور ، وقد شرحوا لها شروحاً كثيرة من الخاصة والعامة ، وأخصرها كلاماً وأوفاها مراماً تفسير الحكيم الأوحد الإلهي الشيخ أحمد

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية : ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية : ٧.

الإحسائي (أعلى الله مقامه) في المجلد الأول من (جوامع الكلم) ولعمري لقد جمع في كلماته اليسيرة أطراف مطالب جمة تعجز عن إحاطته أفهام الفحول ، وأشار إلى نبذة مطالب تتشعب من بعضها عدة أبواب وفصول ، ولو رمنا أن نشرح هذه الآية الشريفة بفهمنا القاصر ما ظهر لنا بعض أسرار ظاهرها مما يمكننا إظهاره ، لأدّى إلى مجلد ضخم ، لكن حيث كنت مسؤولاً ، ولا بد لكل سؤال جواب ، ولا يسقط الميسور بالمعسور ، أتيت بما سنح للخاطر في الوقت الحاضر مع ضيق المجال وعدم مساعدة الحال .

فنقول : إنه يلزمنا أن نشرح أولاً على مقتضى ظاهر الآية مختصراً ثم نردفه بالإشارة إلى بعض تأويلها وباطنها

التفسير الظاهر

قال عزّ من قائل : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[1] أي استنارتهما وامتياز بعضهما من بعض ، والنور المنبسط عليهما من الله سبحانه لا ممن زعمتم من الشركاء له ، كهبل واللات والعزى وغيرها ، فهو الذي نورهما بالشمس والقمر والكواكب لا غيره .

قال تعالى : ﴿ **مثل نوره كمشكاة** ﴾[2] قيل هي القنديل ، وقيل هي الكوة في الجدار غير النافذة يوضع عليها الزجاجة ومن خلفها يوضع المصباح ، أي السراج ، فنور المصباح ينبعث من نور الزجاجة ويقع على حائط الكوة وينعكس منه إلى الزجاجة ، فهذه الأنوار ، أي

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

نور المصباح ونور الحائط ونور الزجاجة تنعكس بعضها على بعض ، فتراكم وتتشعشع على خلاف ما لو كان المصباح مجرداً وحده ، فلا يرى إلا نور واحد . ولا يبعد أن تكون المشكاة عبارة عن جام واسع محيط على الزجاجة التي فيها المصباح الذي يقال له بالفارسية (مردنگي) وكانت مستعملة سابقاً كانوا يتخذونها ليظهر ضياء المصباح من وراء الزجاجة ، والمشكاة في غاية الجلاء والصفاء ويحفظ السراج عن الانطفاء .

قال تعالى : ﴿ **كأنها كوكب درّي** ﴾[1] إما بضم الدال وتشديد الراء والياء منسوب إلى الدر ، أي يشبهه في الصفاء والتلألؤ ، أو بكسر الدال وتخفيف الراء والياء بهمزة بعدها من درأ يدرأ إذا دفع ، لدفعه الظلام ، أي كأن الزجاجة التي فيها المصباح التي في المشكاة كوكب دافع للظلام وداريء لغيهب الليل وغسقه وحندسه .

قوله تعالى : ﴿ **يوقد** ﴾[2] بياء الغائب أي يوقد ذلك المصباح ، أو بتاء التأنيث ، أي توقد تلك الزجاجة .

قوله تعالى : ﴿ **من شجرة مباركة زيتونة** ﴾[3] أي من دهن شجرة الزيتون ، وهي مباركة لكثرة منافعها ، يسرج به ويوقد بحطبها ويغسل الابريسم برماده ، ولأن دهنها أضوأ وأصفى ، ولأنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وبارك فيها سبعون نبياً أفضلهم إبراهيم (عليه السلام) .

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

قوله : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾[1] أي ليست من أشجار بلاد الشرق ولا من أشجار بلاد الغرب ، حتى تكون أقل دهناً وأضعف ضياءً ، بل هي من أشجار البلاد المتوسطة بين الجهتين كالشام وما والاها ، فكانت أكثر دهناً وأقوى ضياءً ، أو أنها ليست بشرقية لا تصيبها الشمس لدى غروبها ولا شرقية حتى لا تصيبها الشمس لدى طلوعها ، بل هي شرقية غربية حائزة الطرفين ولا تفارقها الشمس ، فتتضاعف ثمرتها ويكثر دهنها ويقوى ضوؤها .

قوله تعالى : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾[2] أي لكمال صفاء هذا الزيت ولتمام لطافته واستعداده للاشتعال يكاد يشتعل ويضيء قبل إصابة النار ومسها ، أو يقتبس الاشتعال من بعد قرب النار منه .

قوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾[3] أي نور الزيت ونور المصباح ، أو نور المصباح ونور المشكاة والزجاجة ، نور فوق نور .

قوله تعالى : ﴿ يهدي الله لنوره ﴾[4] الذي هذا مثله وللإيمان به والاهتداء بضيائه ﴿ من يشاء ﴾[5] من عباده ممن منّ عليه بالبصيرة وعدم اتباع الهوى .

---

(١) سورة النور، الآية : ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية : ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية : ٣٥.
(٤) سورة النور، الآية : ٣٥.
(٥) سورة النور، الآية : ٣٥.

قوله تعالى : ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾[1] من الأمثال التي هذا المثل أظهرها وأجلاها وأعظمها. ﴿**والله بكل شيء**﴾[2] من نفس الأمثال ومن محالها ومواقعها ومن تفيده الأمثال وينتفع بها ﴿**عليم**﴾[3] لأنه خالق الأشياء وصانعها ، فكيف لا يعلمها ولا يعلم الأمثال ؟ وكيف لا يعلم مواضعها ومن يؤثر فيه الأمثال ممن لا يؤثر فيه ؟ ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم** ﴾[4] .

هذا بعض الكلام على مقتضى ظاهر الآية وترجمة الألفاظ .

التفسير الباطن

وأما الكلام على باطنها وتأويلها بحسب الميسور ومقتضى الحال والمقام وتحمل الظروف ، فنقول :

قوله تعالى : ﴿ **الله نور السمٰوات والأرض** ﴾[5] . اعلم أن الله سبحانه ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء ولا يتولد منه شيء ، وذاته أجل من أن يشبه بالنور أو يتولد منه نور ، فقوله : ﴿ **الله نور** ﴾ لا يمكن أن يراد منه ذاته (عزَّ وجلَّ) بأن يكون ذاته نوراً ، بل هو خالق النور ومبدعه والنور المحسوس خلق من مخلوقاته فكيف يكون هو نوراً ؟ فلذا فسره بعضهم بأن معناه الظاهر في نفسه المظهر لغيره ، كما أن النور ظاهر في نفسه مظهر لغيره ، وفسره آخر بأن معناه هادي

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.

السمٰوات والأرض أو مزين السمٰوات والأرض وغير ذلك ، فذاته تعالى أجل وأقدس من أن يطلق عليه نور ، وكذا صفاته الذاتية لا تطلق عليها نور ، لأن الصفات الذاتية عين الذات ، كما أن ذاته لا تدرك ولا توصف بالصفات الخلقية كذلك صفاته الذاتية لا تدرك ولا توصف بصفة خلقه بوجه . نعم صفاته الفعلية وظهوراته الحادثة وشؤونه جلّ وعلا توصف بالنور وغيره .

ولا بد لنا لدفع الاشتباه ودفع سوء الفهم من تقديم مقدمة مختصرة نافعة .

وهي أن لله تبارك وتعالى صفات خاصة لنفسه قبل أن يخلق الأشياء والآن كما كان وهي صفاته الذاتية ككونه عليماً سميعاً بصيراً حياً قادراً وهي ثابتة له تعالى قبل الخلق بلا قبلية وبعد الخلق بلا بعدية وهي عين ذاته لا فرق بينها وبين الذات ، قل علم أو قل ذات ، قل سمع أو قل ذات وهكذا باقي صفاته فهو يسمع بما يبصر به ويبصر بما يسمع به ويعلم بما يقدر ويقدر بما يعلم ، لا أن في الذات علم وبصر وقدرة ونحوها حتى تكون هناك أمور متعددة أو ظرف ومظروف وحال ومحل ، ولا أنه شيء واحد ذو جهات ، جهة علم وجهة سمع وجهة بصر وغير ذلك ، فإن كل ذلك خلاف التوحيد ومن لوازم الحدوث بل الذات الأقدس أحد بسيط من جميع الجهات وفي عين بساطته كامل من جميع الجهات غير ناقص بوجه من الوجوه وهي صفات قديمة كذاته لا تدرك وليس كمثلها شيء ولا حظ لمخلوق قط في معرفة كنهها ودركها ، الطريق مسدود والطلب مردود .

وله تعالى صفات أخر فعليه يوصف بها لظهوره (عزَّ وجلَّ) بكل واحد منها ، بعبارة أخرى له ظهورات حادثة وتجليات وشؤون لكل واحد اسم يعبر به عنه وهذه الظهورات عناوين لمعرفته . ولولا هذه الظهورات ما عرف سبحانه أبداً .

مثلاً لما أوجد الموجودات ظهر لنا بصفة الألوهية بإيجادها وإحداثها فدعي وسمي الله ، ولما أعطى كل ذي حق حقّه وساق إلى كل مخلوق رزقه ظهر لنا بصفة الرحمانية فسمي بالرحمٰن وهي صفة العدل ، ولما منّ على المؤمنين بالسعادة والإيمان والتوفيق وهي صفة الفعل سمي رحيماً ، ولمَّا رزقهم وظهر بالرازقية سمّي بالرّازق ، ولما أحياهم سمّي بالمحيي ولما أماتهم سمّي بالمميت ، ولما هداهم قيل يا هادي ولمَّا سبب الأسباب قيل يا مسبب ، ولما كشف الكرب وفرج الهموم قيل يا كاشف ويا مفرج وهكذا فهذه كلها ظهروات له لم يكن لها وجود قبلاً ولا كانت في الذات فظهرت ، بل أوجدها في محلها ومقامها فصار كل صفة ظهوراً من ظهوراته وعنواناً من عناوينه ومقاماً من مقاماته ، فدعي باسمها المناسب لها وتعرف لنا بهذه الظهورات ، وهذا معنى الحديث القدسي « فخلقت الخلق لكي أعرف أي ظهرت بإيجاد الخلق بعدما كان ظهوري كنزاً مخفياً .

فلنمثل لك مثالاً ليتضح لك المطلب تمام الوضوح ، إذ الحق يعرف بالمثال والباطل بالجدال وهو أن زيداً له صفات ذاتية مساوقة لكينونيته ككونه ممكناً حادثاً مخلوقاً مركباً محتاجاً لا تفارقه هذه الصفات بوجه ولا يتغير عنها ولا يتبدل ، وله صفات أخر غير ذاتية ،

بل اتصف لنا وظهر بتبدلاته وانتقالاته من حين دخوله في عرصة الكون والوجود بأطوار شتى وألبسة مختلفة من عالم العقل والروح والنفس والطبيعة والمادة والمثال ، ثم إلى العرش والأفلاك والكرات إلى أن وصل الأرض والأثمار والفواكه ثم إلى صلب الأب ورحم الأم ، وفي رحم الأم بأطوار النطفة والعلقة والمضغة والعظام وكسوة اللحم وإنشاء خلق آخر ، ثم تولد فصار متولداً رضيعاً فطيماً طفلاً غلاماً وهكذا تتعاور عليه الصفات والأسماء بتعاور ظهوراته وألبسته وكلها صفات حادثة ليست بذاتية ، لأنها تتبدل وتتغير والذاتي لا يتغير ولا يتبدل فهو دائماً يلبس ويخلع وتتجدد ظهوراته ، وكذلك حالاته وأطواره من قيام أو قعود أو تكلم ونطق وأكل ونوم وخياطة وبناء وضرب وقتل وزرع وحرث ، أي أنه لما قام وقعد قيل له يا قائم ويا قاعد ، وقبل ذلك لا يقال له قائم وقاعد ، ولما خلط وتكلم قيل له يا خياط ويا متكلم وهكذا يا بناء ويا صائغ ويا خطيب ويا ضارب ويا ضاحك ويا قاتل وقبل اتصافه بهذه الأمور ما كانت تطلق عليه هذه الأسامي ، فهذه وأمثالها كلها صفات حادثة لزيد يتطور بها ويتصف ويسمى بها ، وليست ذاتية له ، وهذه ظهوراته تعرف لنا بهذه الظهورات ودعوناه بأسامي ظهوراته ، وكل ظهور منه عنوان له نعرفه به وندعوه ، ولولا تلك الظهورات ما عرفناه بالقيام والقعود والضحك وغير ذلك ، وتكون هذه مقامات زيد وعلاماته يعرفه بها من عرفه لا فرق بينه وبينها في مقام التعريف والتعرف إلا أن هذه الظهورات والصفات كلها خلقه وملكه فتقها ورتقها بيده إن شاء خلعها وهدمها ففتق وإن شاء تلبس بها وظهر فرتق[1]

(١) الفتق مأخوذ من فتقت الثوب والرتق هو رتق الفتق، تقول رتقت الثوب بعد فتقه.

إذا عرفت هذا المثال واتقنته فاستدل بها على الله تعالى ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾[1] واعرف بأن لله تعالى أيضاً صفات ذاتية قديمة كما سبق من العلم والسمع والبصر والقدرة ، وهي عين ذاته لا تعدد فيها ولا اختلاف لا ذهناً ولا خارجاً ولا اعتباراً ولا مصداقاً ، بل ولا مفهوماً بالنسبة إلى ذاته ، وقد حقق في محله بما لا مزيد له ، ولا توصف بصفة من صفات خلقه لا بالنور ولا بغير النور .

وله تعالى صفات أخر حادثة ، وهي ظهوراته التي لم تكن من قبل فظهر بهذه الصفات وعرفناه بها ، ولولا تلك الظهورات وتعرفه لنا بها لما عرفناه بوجه ، وهذه الظهورات كلها خلقه ومقاماته وعلاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان ، وهي تلك الشؤون ، أي كل يوم يظهر بشأن غير شأن ، لا أن الذات تنتقل من شأن إلى شأن ومن حال إلى حال الموجب لتغير الذات الذي هو من صفات الحدوث الممتنع عن الأزل وهذه الشؤون والظهورات هي التي توصف بصفة النور لأنها هي الظاهرة بنفسها المظهرة لغيرها ، وهي التي كانت كنزاً مخفياً لا ذاته ، لأن الذات على ما هي عليه من خفائها كما كانت .

وبعبارة أخرى أن كونه إلهاً رحماناً رحيماً خالقاً رازقاً محيياً مميتاً كانت كنزاً مخفياً فخلقها أي ظهر بها فكان ظهوره بها خلقها وخلقها ظهوره بها فافهم . فلما أحدث الأشياء أوجد الموجودات من الدرة إلى الذرة ، أي من العقل إلى الثرى ظهر تعالى بالألوهية أي عرف أنه إله الخلق ، فليس شيء من الخلق إلا ظهوره ، فناسب أن يوصف بالنور

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

ويحمل عليه ويقال الله نور السموات والأرض ، أي الظاهر بالألوهية وإيجاد الموجودات هو نور السموات والأرض أي ظاهر في نفسه ومظهر لغيره وذلك لأن كل ظاهر سواه فإنما ظهر بفضل ظهوره وغيب ما سواه ظهوره فهو أظهر من كل ما سواه ، فلذا قال مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) : « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله أو معه » وقال إمامنا الحسين (عليه السلام) : « أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ »(١) .

وأما أنه مظهر لغيره فلأن ما سواه من كافة الممكنات والموجودات إنما أظهرها وأوجدها بفعله وصنعه ، فما وجد شيء ولا يوجد ولن يوجد إلا بأمره ، ولولا أمره ما ظهرت الأشياء ، فهو نور السموات والأرض المظهر لهما وما فيهما وما بينهما ، كما هو ظاهر لنفسه أو هاد لهما إلى معرفة ظهوره بالألوهية . أو أن الظاهر بالألوهية منير السموات والأرض بما خلق من الأنوار ، فخلق العقل الكلي منيراً به الأكوان من الغيب والشهادة وخلق الشمس والقمر منيراً بهما المجموعة الشمسية وخلق الكواكب وسائر الشموس والأقمار منيراً بها عوالمها وهكذا ، لا أن ذاته تعالى يسطع منه النور فينير ، لأن سطوع الشعاع أو الضياء من الشيء نوع خروج وتولد ، وذاته سبحانه أجل من ذلك وأقدس ، لم يلد ولم يولد .

وأيضاً إن الشعاع ينتهي إلى منيره فيكون محدوداً بالمنير ويكون

---

(١) مفاتيح الجنان : ص٥٢١ دعاء الامام الحسين في يوم عرفة .

المنير حداً وغاية له . وأيضاً أن النور له ضد وهو الظلمة وهو تعالى لا ضد له ولا ند . وكل ذلك من صفات الحدوث والله أجلّ من ذلك وأعلى فليس إلا أنه تعالى يخلق نوراً فينير به . وهذا معنى كونه تعالى نوراً ومنيراً وهادياً أو مزيناً وهكذا .

ومعنى الظهور هو الذي كررنا غير مرة من كون خلقه هو ظهوره أنه أوجد الخلق فكان إيجاده إياه ظهوره له ولغيره وهو ظهور المؤثر بالأثر ، لا أن الذات تنزل إلى مقام الخلق والعياذ بالله ولا أنه حل في خلقه حلولاً أو أنه تلبس بخلقه ومازج خلقه ، ولا أنه صار مادة للموجودات ، فإن كل ذلك كفر وإلحاد ، بل نفس الخلق ظهوره . كما أن الكاتب ظهر بكتابته والنجار بنجارته والخياط بخياطته وكل صانع ظاهر بصنعته ، أي أن كتابته وصنعه يدل على وجود كاتبه وصانعه وعلى كماله أو عدم كماله . ويستدل بهذه الآثار على مؤثرها صفة استدلال لا صفة تكشف عنه .

ومهما أطلقنا لفظ الظهور واستعملناه في تصانيفنا ومذاكراتنا فلا نعني منه إلا هذا الذي ذكرناه من الظهور الوصفي الأثري لا الظهور الذاتي فافهم .

وبالجملة معنى كونه نوراً أي منيراً أو هادياً أو مزيناً للسموات والأرض أنه نور السموات والأرض بفعله وخلقه وظهوره وهداهما بفعله وخلقه وزينهما كذلك أي بخلقه ، أي بالكواكب وبالهادين من الأنبياء والأوصياء والعلماء والمؤمنين لا بذاته ، فإن الذات أجل وأقدس من ذلك بل هو موجد كل منير وكل هاد وكل مزين ومبدعها

وخالقها وصانعها لا من شيء وإنما خص السموات والأرض بالذكر مع دخول فلك العرش والكرسي وسائر الأفلاك العظام والصغار في الإرادة لكونهما هما المعروفان عند عامة الناس .

وأيضاً إن كونه تعالى نوراً بالمعاني التي ذكرت عام لجميع المخلوقات من الملائكة والإنس والجن حتى الشياطين والحيوانات ، فهو نور العالمين لأنه رب العالمين وليس مختصاً للسموات والأرض فقط ، وإنما خصّهما بالذكر إما لأنهما خزائن علل الأشياء وأسبابها ومطارح الأنوار ، أو أن المراد بالسموات مطلق العلويات من عالم العقول والأفلاك وغيرهما ، ومن الأرض مطلق السفليات كعالم الطبيعة وعالم المثال وغيرهما في كل عالم بحسبه ، أو أنه أريد بهما ما هو أعم منهما ومما فيهما وما بينهما من الخلق توسعاً وإطلاقاً ، كما تطلق القربة عليها وعلى أهلها جميعاً ، ويطلق البيت عليه وعلى أهله أيضاً توسعاً ، وهو إطلاق شائع متعارف .

قوله تعالى : ﴿ **مثل نوره** ﴾[1] .

أقول : حيث أنه خفي نوره لشدة ظهوره مثل له مثالاً وشبّهه من باب تشبيه الكامل بالناقص بقوله : ﴿ **كمشكاة فيها مصباح** ﴾[2] لما عرفت أن ظهوره إنما هو بخلقه لخلقه في خلقه ، وليس شيء من خلقه إلا وهو ظهوره ، فكان ظهوره بعدد الخلائق . كما أن الطريق إليه بعدد أنفس الخلائق ، فلا جرم كان ظهوره غير متناه وعلى مراتب لا تتناهى على عدد خلقه وحسب مراتبهم التي لا تحصى من الخلق الأول فنازلاً

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

إلى نهاية السلسلة الطولية على مراتبها الكثيرة العريضة ، فمنها ما يدل على وجوده فقط كبعض الجمادات ، ومنها ما يدل على قدرته الكاملة كالسموات والأرض وبعضها يدل على حكمته البالغة ، وبعضها على سعة ملكه وبعضها يدل على شيء من صفاته الفعلية وبعضها على جملة من صفاته الفعلية وبعضها على كثير من صفاته أو جميع صفاته عزّ اسمه وكلها آثاره وظهوراته .

مثاله الإنسان له ظهورات متعددة على مراتب ، منها ما يدل على وجوده فقط كأثر الأقدام ولا يدل على أنه عربي أو أعجمي أسود أو أبيض كامل أو ناقص عالم أو جاهل حي أو ميت ، ومنها ما يدل على وجوده مع شيء من هيئة فعله كالكتابة من حيث هي مع قطع النظر عن جودتها وعدمها ، فإنها تدل على وجود الكاتب مع حركة يده تحكي استقامة حركة يده أو اعوجاجها وفيها رعشة أو لا ، وإن لوحظت الكتابة من حيث جودتها وعدمها دلت أيضاً على بعض كمال كاتبه وعدمه ، وإن تعددت الأقلام بالكوفية والعربية والفارسية والأقلام الخارجة بالألسنة المتعددة دلّت على تفنّنه وكماله من جهة الأقلام ومن جهة الألسنة ، وإن اشتملت الكتابة على علم أو فن أو تحقيق حكت المذكورات كلها مع زيادة أنه عالم في ذلك الفن أو جاهل له ملكة ضعيفة أو قوية ، فالكتابة أثر من آثاره وظهور من ظهوراته ، كلما زادت شؤوناً وجهاتاً زادت حكاية عن كمال فعل الكاتب ، لكن لا تحكي عن طوله وقصره أو سواده وبياضه أو حريته وعبوديته أو حياته ومماته ، فإن حصل له رسم لشخصه فربما حكى هذا الرسم طوله وقصره وأنه أسود أو أبيض ، وربما يستنبط من شمائله وهيئته أنه عربي أو عجمي هاشمي

أو غيره ولا يدل على أنه حر أو عبد حي أو ميت ، وإذا تجلى في المرآة الصافية دلّت الصورة على كثير من أوصافه الخَلقية (بفتح الخاء) والخُلقية (بضم الخاء) قيافة حتى على حياته وهكذا ، لكن هذه الصورة تقصر عن حكاية ملكاته المعنوية وخصاله الباطنية إلا بالقيافة والكهانة على بعضها ، وإذا مارست هيكله البشري الذي هو عنوانه الكلي واسمه الأعظم الحقيقي اطلعت على مجموع صفاته الظاهرة والباطنة ، فمن منطقه تستدل على ميزان عقله وقوة فكره وفصاحته وبلاغته ، لأن الكلام دليل عقل المتكلم ، ومن سمعه وبصره وسائر قواه تعرف موازينها وبسيرته وأخلاقه ينكشف لك بعض ملكاته الباطنية من حلمه وعزمه وصبره وكرمه وشجاعته وجسارته وأضدادها وغير ذلك .

ومن هذا المثال نستدل على ظهورات الله (عزَّ وجلَّ) في خلقه وأن جميع أفراد خلقه ظهوره وإن اختلفت مراتب ظهوره بحسب مراتب خلقه فمن ناقص من جميع الجهات ومن ناقص من بعض الوجوه ومن حائز بعض الكمال وحائز جملة من الفضل والكمالات وحائز أكثر الفضائل والفواضل والكمالات ، ومن كامل من جميع الوجوه ومن أكمل وأكمل وهكذا ومهما حاز الخلق شيئاً من الفضيلة والكمال فاز بمقداره من الظهور ومتى فقد الكمال خسر ذلك الظهور ، وكلما تضاعف كماله اشتد الظهور له بنسبته وهكذا ، كالملائكة والأنبياء والأولياء ومن حاز جميع مقامات الكمال من جميع الجهات بحيث لا يرى فيه شيء من القصور والنقص بوجه من الوجوه ونحو من الأنحاء فقد فاز بأعلى مراتب الظهور وأعظم جوامع النور ، بحيث لا يرى فيه

إلا نوره ولا يسمع إلا صوته وصار أشرف من عامة الموجودات وأفضل من كافة المخلوقات لشرف كماله الأتم وفضل التجلي الأعظم كما في دعاء ليلة المبعث : « اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم في هذه الليلة من الشهر المعظم والمرسل المكرم » فبالأحرى أن يكون هذا الكامل المطلق هو مثلاً لنوره ومجلى لظهوره ، وإن كان ما سواه على الإطلاق أيضاً ظهوراً له ودليلاً عليه ، لكن لا يكون مثالاً ومثلاً ودليلاً لظهوره الكلي الذي هو نور السموات والأرض على إطلاقاتهما إلا الكامل المطلق الأكمل . ولا يكون الناقص مثلاً لذلك الظهور الكلي ، وإن كان هذا الناقص أيضاً أحد ظهوراته ، لأن الناقص المطلق ظلمة صرفة ، وما فيه النقص مشوب بالظلمة ، ولا يكونان مثلاً للنور الكلي الصرف الخالص ، فافهم .

ولذا فسّر هذا المثل في قوله تعالى : ﴿ **مثل نوره** ﴾[1] في أكثر الأخبار بأشرف المخلوقين وأفضل الأنبياء والمرسلين أو بأولاده الطاهرين ، لأنهم (عليهم السلام) نفسه (صلى الله عليه وآله) ونورهم من نوره ، قد طهرهم الله من كل ظلمة ودنس ، كما في الصافي عن التوحيد عن الصادق (عليه السلام) قال : « ﴿ **مثل نوره** ﴾ محمد (صلى الله عليه وآله) ﴿ **كمشكاة** ﴾[2] صدر محمد ﴿ **فيها مصباح** ﴾[3] قال فيه نور العلم يعني النبوة ﴿ **المصباح في زجاجة** ﴾[4] قال علم رسول الله إلى قلب علي (عليه السلام)

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾[١] قال ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لا يهودي ولا نصراني ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾[٢] قال يكاد العلم يخرج من فم العالم من آل محمد من قبل أن ينطق ﴿ نور على نور ﴾[٣] قال الإمام في أثر الإمام »[٤] .

وبمضمونه أخبار أخر وقريب منه ما عن الباقر (عليه السلام) : « أن قوله ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾[٥] وهو نور العلم في صدر النبي (صلى الله عليه وآله) والزجاجة صدر علي (عليه السلام) علمه النبي فصار صدره ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل ﴿ نور على نور ﴾ إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في أثر إمام من آل محمد (عليهم السلام) وذلك من لدن آدم إلى وقت قيام الساعة هم خلفاء الله في أرضه وحججه على خلقه لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم »[٦] .

أيضاً في (الصافي) عن (الكافي) عن مولانا الباقر (عليه السلام) في حديث يقول : « أنا هادي السموات والأرض مثل العلم الذي أعطيته وهو نوري الذي يهتدي به مثل المشكاة فيها المصباح ، فالمشكاة قلب محمد (صلى الله عليه وآله) والمصباح

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) التوحيد: ص١٥٧ باب ١٥ ح٣.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٦) التوحيد: ص١٥٨ باب١٥ ح٤.

نوره الذي فيه العلم ، وقوله : ﴿ **المصباح في زجاجة** ﴾[1] يقول إني أريد أن أقبضك فاجعل الذي عندك عند الوصي كما يجعل المصباح في الزجاجة كأنها كوكب دري ، فأعلمهم فضل الوصي ﴿ **يوقد من شجرة مباركة** ﴾[2] فأصل الشجرة المباركة إبراهيم وهو قول الله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكُم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[3] وهو قول الله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾[4] ﴿ **لا شرقية ولا غربية** ﴾[5] لستم يهوداً فتصلوا قبل المغرب ولا نصارى فتصلوا قبل المشرق وأنتم على ملّة إبراهيم (عليه السلام) وقد قال الله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾[6] وقوله : ﴿ **يكاد زيتها يضيء** ﴾[7] يقول مثل أولادكم الذين يولدون منكم مثل الزيت الذي يعصر من الزيتون يكادون أن يتكلموا بالنبوة ولو لم ينزل عليهم »[8] .

وكل هذه تنظر إلى معنى واحد ومطلب فارد ، وهو أن أول المخلوقات وأشرفهم وأفضلهم هو النور التام الكامل الجامع لجميع مراتب الكمال والظهور على كل معنى بحيث لا يشذ عنه شيء من

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة هود، الآية: ٧٣.
(٤) سورة آل عمران، الآيتين: ٣٣ ـ ٣٤.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦٧ .
(٧) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٨) تفسير الصافي: ج٣ ص٤٣٥ .

الصفات الكمالية والظهورات النورية ، وجميع الكمال الذي في العالم كله من فاضل كماله ومن شعاع جماله ، وهو الذي يكون مثلاً لنوره تعالى وإن كانت العبارات مختلفة لكن المطلب واحد من باب قول الشاعر :

عبارتنا شتى وحسنك واحد   وكل إلى ذاك الجمال يشير

وهذه التعبيرات المختلفة لا تخلو قطعاً من نكات دقيقة واعتبار لطيف ، ولو رمنا أن نشير إلى بعض النكات لهذه العبارات المتنوعة لأدّى بنا إلى طول ممل . والمهم بيان أن التفسيرات التي وردت لهذه الآية الشريفة أو يمكن أن يذكر لها وإن كانت كثيرة حتى أنهاها في كتاب (الرق المنشور) على ما في بالي إلى ثمانية وعشرين تفسيراً ، والكتاب ليس حاضراً لدي حتى ربما أنقل منه ما ربما يناسب بعض مطالبنا ، وفي بعض هذه التفسيرات من الاختلاف الشديد ما ربما يتراءى فيه التباين وتعذر الجمع أو تعسره ، لكن في الواقع ونفس الأمر لمن نظر بعين الحقيقة ليس هناك اختلاف فضلاً عن التناقض والتباين . وذلك أنك عرفت في طي ما سبق من التحقيق أن مثل نوره وهو الظهور الكلي لا يكون إلا النور الخالص الجامع لصفات الكمال ، ولا يجوز أن يكون النور المشوب بالظلمة ولا النور الناقص الفاقد لبعض صفات الكمال فضلاً عن الظلمة الصرفة مثلاً لنوره ، كلاّ وحاشا ، وحيث أن محمداً وآله المعصومين كلهم حائزون لهذه الرتبة السامية والفضيلة المنيعة بما لا يتصور فوقه في الإمكان ، فكل فرد منهم يكون لائقاً وأهلاً لأن يصير مثلاً لهذا النور والظهور الشامخ وحيث أنهم كلهم (عليهم السلام) نور واحد ومن طينة واحدة ، والذي يثبت

لأولهم يجري لآخرهم وما يجري لآخرهم يثبت لأولهم ، فلا منافاة إذاً إن فسر المشكاة تارة بجسم محمد (صلى الله عليه وآله) والزجاجة بقلبه والمصباح بعلمه أو بالنبوة أو بنورها، وأخرى بأن المشكاة صدر علي (عليه السلام) والمصباح نور العلم من محمد في صدر علي، وثالثة بأن المشكاة فاطمة الزهراء والمصباح ابنها الحسن والزجاجة ولدها سيد الشهداء، ولكل وجه نفيس ، ورابعة بأن المشكاة في كل واحد من الأئمة الأحد عشر المعصومين (عليهم السلام) جسمه الشريف والزجاجة قلبه أو صدره والمصباح علمه، فتكون الآية الشريفة من أولها إلى آخرها في كل فرد فرد منهم مستقلاً، وخامسة بأن تكون هذه الآية المباركة المشتملة على أربع عشرة فقرة، كل فقرة منه تكون في حق واحد من الأربعة عشر المعصومين (عليهم السلام) على الترتيب الوجودي الزماني.

كما ورد في تفسير (البرهان القاطع) عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : « دخلت إلى الكوفة وأمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) يكتب بإصبعه ويبتسم فقلت له : يا أمير المؤمنين ! ما الذي يضحكك ؟ فقال : « عجبت لمن يقرأ هذه الآية ولم يعرفها حق معرفتها » فقلت له : أي آية يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قوله تعالى : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة** ﴾[1] المشكاة محمد (صلى الله عليه وآله) ﴿ **فيها مصباح** ﴾[2] نور العلم من محمد في صدر علي ﴿ **المصباح في زجاجة** ﴾[3] هو الحسن بن علي

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

﴿ الزجاجة ﴾[1] هو الحسين ﴿ كأنها كوكب دري ﴾[2] فاطمة (عليها السلام) تزهر لأهل السماء كما تزهر النجوم لأهل الأرض ﴿ يوقد من شجرة ﴾[3] علي بن الحسين (عليهما السلام) ﴿ مباركة ﴾[4] محمد بن علي (عليهما السلام) ﴿ زيتونة ﴾[5] جعفر بن محمد (عليهما السلام) ﴿ لا شرقية ﴾[6] موسى بن جعفر (عليهما السلام) ﴿ ولا غربية ﴾[7] علي بن موسى (عليهما السلام) ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾[8] محمد بن علي الجواد (عليه السلام) ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾[9] علي بن محمد الهادي (عليه السلام) ﴿ نور على نور ﴾[10] الحسن بن علي (عليهما السلام) ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾[11] القائم المهدي (عليه السلام) »[12].

وورد أيضاً عنهم (عليهم السلام) التفسير في الأئمة بغير هذا الترتيب الذي ذكرناه ، فهذه التفاسير المختلفة كلها تكشف ، بل تحقق

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٦) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٧) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٨) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٩) سورة النور، الآية: ٣٥.
(١٠) سورة النور، الآية: ٣٥.
(١١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(١٢) تفسير البرهان: ج٣ ص١٣٦ ح١٦.

ما ذكرناه من أن الآية الشريفة تنطبق على كل فرد منهم (عليهم السلام) ، أي تصلح لكل واحد منهم مستقلاً وتصلح كل فقرة منها أيضاً لكل فرد منهم (عليهم السلام) ، فلا اختلاف ولا تباين لأنهم كلهم حقيقة واحدة وطينتهم من نور واحد ، كل فرد منهم يقوم مقام الآخر ويصلح مصداقاً لجميع الآية ولكل فقرة منها .

لكن هنا نكتة ما أحب أن أتعداها ، وهي أنه مهما فسرت الآية الشريفة في الأخبار بنبينا (صلى الله عليه وآله) ففي الغالب يذكر وصيه شريكاً له فيها ولا يجعل الآية خاصة لنبينا وحده (صلى الله عليه وآله) . مثلاً إذا فسر المصباح بنور النبوة أو بنور علم النبي جعل الزجاجة صدر وصيّه (عليه السلام) ، ومـا مرّ عن الباقر (عليه السلام) أن قوله : ﴿ **كمشكاة فيها مصباح** ﴾[1] وهو العلم في صدر النبي (صلى الله عليه وآله) والزجاجة صدر علي (عليه السلام) علمه النبي ، وذلك لأن علياً (عليه السلام) شريكه (صلى الله عليه وآله) في كل شيء إلا النبوة ، كما ورد عنه (صلى الله عليه وآله) في حديث : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي »[2] وفي حديث : « لا يؤدي إلا أنا وعلي »[3] فكأن هذا الوصي توأم للنبي وشريكه في كل المواقف وكأنه ثاني اثنين له فيها ، ثاني اثنين له في التربية ، كما قال (عليه السلام) في خطبته القاصعة : « ولقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل إثر أمّه يرفع لي في

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) أمالي الطوسي: ص٢٥٨ .
(٣) أمالي المفيد: ص٥٦ .

كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به »[1] ثاني اثنين له في جبل حراء قال (عليه السلام) في القاصعة : « ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوّة »[2] وفي كسر الأصنام ثاني اثنين له ليس إلا النبي وهو (صلى الله عليهما) ، وفي أول الخلقة ثاني اثنين له ، خلق محمد ثم خلق علي كما في عدة أخبار ، ثاني اثنين له لما بعث فبايعه علي (عليه السلام) وأظهر إسلامه ، وكان مدة مديدة يصلي إماماً وعلي وحده مأموم له، ثاني اثنين له لما هرب إلى خارج مكة من أوباش المشركين حينما كانوا يرمونه بالحجارة وعلي كان خلفه لا غيره ينالون منه كما ينالون من النبي، ثاني اثنين له في تناول الطير، ثاني اثنين له لما آخاه وما آخا غيره ثاني اثنين له لما صعد على المنبر يوم الغدير حاملاً له رافعاً إياه حتى بان بياض إبطيهما، بل هو ثاني اثنين له حين قدومه إلى المدينة لما هاجر إليها لم يدخلها حتى وصل علي (عليه السلام) مع الفواطم، ثاني اثنين له حين وفاته (صلى الله عليه وآله) لما كان رأسه في حجر علي (عليه السلام)، ثاني اثنين له حين تغسيله إياه (صلى الله عليه وآله) وتجهيزه والقوم في تشاجرهم وتنازعهم على الرئاسة والإمارة ، حتى قال قائلهم منّا أمير ومنكم أمير ، ثاني اثنين له في وقوفه على حوض الكوثر وعلى ساقيه، بل ما موطن من المواطن إلا وهو ثان له وتوأم حتى في الغزوات إذا باشر النبي (صلى الله عليه

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ .
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ .

وآله) وحضرها يحضرها علي معه ولا يغزو (صلى الله عليه وآله) وحده إلا في غزوة تبوك خلفه في المدينة قائلاً له : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟»[1] ثم لحقه علي (عليه السلام) بعدما استوحدوه القوم فوجّه وجهه إلى المدينة بشور جبرائيل منادياً عليّاً (عليه السلام) بقوله : « يا غيّاث المستغيثين أغثني يا علي أدركني » فأتاه علي (عليه السلام) وصار ثاني اثنين له .

ففي جميع حالات النبي (صلى الله عليه وآله) من أول خلقته إلى يوم القيامة وبعده لم يكن له ثاني اثنين إلا أخوه وابن عمه وصهره علي (عليه السلام) ، وما كان ثانياً له أحد في جميع مواقفه ومقاماته غيره (سلام الله عليه) إلا في قضية الغار ، فقد صار ثاني اثنين له غيره ، وذلك ليس بطلب من النبي (صلى الله عليه وآله) ولا بأمر من الله تعالى ، بل إنما صادفه في طريقه إلى الغار مصادفة ، فصاحبه معه لمصالح ، منها هو الحذر من إفشاء خبره أنه خرج خارج مكة ، ومنها امتحانه إياه أنه مع صحبة النبي (صلى الله عليه وآله) معه وتسكينه إياه هل يطمئن بتسكين النبي ويعتمد عليه ؟ وهل له يقين وثبات أو صاحب تزلزل وخوف واضطراب ؟ وهذا على خلاف من بيته على فراشه ، فقد كان بإرادة وقصد وطلب من النبي ، بل بأمر من الله سبحانه وبات على فراشه وحده ، ليس معه النبي أو غيره ومع ذلك بات غير مضطرب ولا وجل ولا خائف ووقاه بنفسه الزكية غير مبال أنه يقع على الموت أو الموت يقع عليه وغير مكترث بما يلاقي من صناديد قريش وأوباشهم بكمال الطمأنينة وطيب النفس وتمام الشهامة .

---

(١) أمالي الطوسي : ص٣٥٢.

انظر إلى الفرق الفاحش الجلي ، هذا يبيت بطلب وقصد من النبي وإرادة خاصة منه (صلى الله عليه وآله) وذاك يصحبه صدفة وإتفاقاً ، وهذا يبقيه على فراشه ثقة به وعوضاً عنه وبدلاً بدل كل عن كل ، وذاك يصاحبه صحبة ورفاقة لا غير ، وهذا يبيت وحده غير خائف وذاك مع النبي وهو خائف ، هذا يقيه بنفسه وذاك يريد نجاة نفسه وهذا بكمال الرغبة وطيب النفس والطمأنينة وذاك مع الكره والاضطراب والخوف والنبي يخاطبه لا تخف ولا تحزن إن الله معنا ، وشتّان بين مقامي هذين الرجلين وإيمانهما فانصف بالله عليك هل يقارن ذاك بهذا ؟ أو يوازن بهذه الوحدة الواقية تلك الصحبة العارية أو الجافية ؟ هيهات ثم هيهات ، وهل يساوي من كان هو نفسه مع من كان أجنبياً غيره .

قوله تعالى : ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾[1] :

أقول : الزجاجة هي الوعاء والحافظة لنور المصباح عن الانطفاء وجامعة له عن الانتشار ، فهي بأي إمام أو معصوم فسرت تكون إشارة إلى ذلك المعنى ، فإن فسرت بمولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) كما في عدة أخبار فلكون النبوة ما ثبتت قوائمها ولا شيّدت قواعدها ولا اخضر للإسلام عود ولا قام له عمود إلا بسيفه وعلومه ومعاجزه وجهاده في سبيل الله أولاً وبقضاء ديون النبي (صلى الله عليه وآله) وإنجاز عداته وإنفاذ وصاياه وحلمه وصبره وحله لمشكلات المسائل وغيرها وثباته للمعضلات والشدائد ثانياً ، ولولا ذلك لانطفىء نور مصباح النبوة وتلاشت مبانيها .

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

وإن فسرت الزجاجة بإمامنا الحسين (عليه السلام) فواضح ذلك أشد الوضوح إذ لولا نهوضه لكفاح عتاة الأمويين بعدم بيعته وقبول المظلومية والشهادة لنفسه ولشبّانه وأطفاله ورضعانه وأسرة الهاشميات من عقائل النبوّة والولاية وتحمّل ما جرى عليهم من المصائب وتشهيرهن من بلد إلى بلد ومن غاشم إلى غاشم لما تنكس عرش بني أمية ولما تزلزلت أركانه وانطمست آثار الإسلام بالمرة وانفصمت عرى الدين بشراشره وضاعت زحمات النبي وتعبه وكدّه ، فبشهادته (عليه السلام) أسفر الحق عن ظلامه وبمظلوميته تقشعت غياهب الباطل عن تراكمه ، فإن صرخة مظلوميته أصمّت صماخ الدهر وملأت آذان المشارق والمغارب وامتد صداها إلى يوم الحشر ، فامتاز الحق عن الباطل تمام الامتياز ، وما هلك من هلك إلا عن بيّنة وما حيي من حي إلا عن بيّنة بما أخذ عن ساعد الدين وملك قلوب المتدينين ودوخ الدنيا بحذافيرها بعجائب نهضته وأذهل أحلامهم بغرائب بل بدائع سياسته وحكمته ، وما بقي على وجه البسيطة أحد إلا وميز الحق عن الباطل وعرف المظلوم من الظالم ، فهل حصل هناك حافظ لنور النبوة عن الانطفاء إلا زجاجته ؟ وهل وجد له فداء ووقاء إلا مهجته وحشاشته ؟ ولا شك أنه هو المعنى باطناً في قوله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾[1] كما في بعض الأخبار .

وإن فسرت الزجاجة بسيدة النساء والإنسية الحوراء فنعما هو ، وهل تبين ظلم القوم إلا بمقامها ؟ وهل تحقق غضب الله عليهم إلا بغضبها وعدم رضاها ، لأن من أغضبها فقد أغضب الله ورضاه في

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٧ .

رضاها ، وهل ثبت أصل شجرة الولاية أو تنشبت عروقها إلا بصبرها وإنشائها لتلك الخطبة الغراء بين حشد من المهاجرين والأنصار ؟ وهل خفي على أحد حقيّتها وصدق دعواها وصحة مقالتها أو تنكر مظلوميتها وغصب نحلتها علناً على رؤوس الأشهاد ؟ وهل سيدة أو بنت نبي أصيبت كمصيبتها حتى قالت :

صبت علي مصائب لو أنها　　صبت على الأيام صرن لياليا

وأيم الله لقد أحكمت حكمتها وكملت سياستها بما أوصت بدفنها ليلاً سراً ، فقد ميّزت بهذا المؤالف عن المخالف وأسفرت عن الحق تمام الاسفار ، فهنالك ارتطموا في الفضيحة والعار ارتطاماً وأيقنوا أن غضب الله كان لهم لزاماً .

وبالجملة إن الزجاجة في الآية بأي معصوم أو إمام فسّرت فله وجه وجيه واعتبار نفيس كل بحسبه ومقامه وزمانه ، ولا نطيل المقام بتفصيل كل واحد واحد والعارف الخبير لا يعجز عن التوجيه ومعرفة السر والاعتبار الوجيه .

قوله تعالى : **﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة ﴾**[1] .

قد سبق منّا التفسير الظاهر للشجرة أنها هي شجرة الزيتون وأنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وأنها مباركة لكثرة منافعها وبارك فيها سبعون نبياً أفضلهم إبراهيم على نبينا وآله و (عليه السلام) .

وقد تفسّر باطناً بالمشيئة أي مشيئة الله الكلية ، لأنها كالشجرة لتشعب وجوه متعلقاتها بذوات الوجود التي لا تتناهى في مراتب

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

الإمكان وطبقات الأكوان ، فلها شعب ولها غصون كلية وأغصان جزئية ولها أوراق بحسب المتعلق ، ولها مراتب وأسماء في تعلقها بالمواد فيكون وبالصور فعين وبالحدود فقدر وتعلقها لمشروح العلل والأسباب فقضاء وإمضاء ، وكونها مباركة واضحة لبركة آثارها وكثرة متعلقاتها ، وغير بعيد أن تكون هي المعنية بالنار في قوله تعالى : ﴿ **أن بورك من في النار ومن حولها** ﴾[1] أي بورك من في نار المشيئة وهو الإمكان الحامل لها والمحلّ لها الذي هو أثرها وتأكيدها وقيامه بها قيام صدور وقيامها به قيام ظهور ومن حولها يكون عبارة عن الوجود المقيد ، بعبارة أخرى عن الملائكة العالين وبعدها الملائكة الكروبيين . ويشهد لذلك ما ورد في تفسيرها قال (عليه السلام) : ﴿ **من في النار** ﴾ هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) ﴿ **ومن حولها** ﴾[2] موسى بن عمران » فافهم إن كنت تفهم .

وقد تفسّر الشجرة بالحقيقة المحمدية لتشعب شعاعها وشعاع شعاعها مادة للموجودات في مقام كونه علّة مادية .

وقد تفسّر أيضاً بالعقل الكلي بهذا الوجه الوجيه ، وهو تكون جميع الموجودات على طبقاتها من شعاعه وشعاع شعاعه لما خوطب بخطاب أدبر فأدبر فوجدت الأشياء بسلاسلها إلى الجمادات .

وقد تفسّر أيضاً بالنفس الكلية ، لأن ظهور طبقات السعادة والشقاوة كان في عالم النفس الذي هو عالم الذر الأول مقام التكليف وخطاب « ألست بربكم ومحمد نبيكم وعلي وأولاده الطاهرون أئمتكم

(١) سورة النمل، الآية : ٨.
(٢) سورة النمل، الآية : ٨.

وأولياؤكم » فسعد من سعد بقوله : بلى ، وشقي من شقي بقوله : نعم ، وكانوا أزواجاً ثلاثة : السابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وتابعوهما تابعو أصحاب اليمين وتابعو أصحاب الشمال ، فتبصر ولا تنكر ما لم تحط به خبراً .

وقد تفسّر بشجرة النبوة ، وهي إبراهيم عليه وعلى نبينا وآله ألف الصلاة والسلام ، وذلك أن أكثر الأنبياء من نسله وذلك آثار البركة ، قال تعالى : ﴿ **وباركنا عليه وعلى إسحاق** ﴾[1] سيما وفي صلبه أصل البركة وفرعها ، بل مصدرها وموردها ، وهو سيد الأنبياء وأفضلهم وخاتمهم وهذه الشجرة المباركة لا شرقية ولا غربية ، وقد مرّ تفسيرها الظاهر بأنها لا نصرانية تصلي إلى المشرق ولا يهودية تصلي إلى المغرب « ما كان إبرهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكنه كان على سواء الصراط حنيفاً مسلماً » ويمكن أن يراد بها الاعتدال في كل شيء أي حد الوسط في كل مقام ويراد من الشرقية طرف الأوج والإفراط ومن الغربية طرف الانحطاط والتفريط ، فتنطبقان على أمور كثيرة ، فيقال مثلاً لا شرقية غالية ولا غربية قالية ، لا شرقية مسرفة ولا غربية مقترة ، لا شرقية قديمة مستقلة غنية غير محتاجة ولا غربية حادثة فقيرة عاجزة لا يتأتى منها شيء بل تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها ، لا شرقية أمّارة بالسوء ولا غربية لوّامة على الخير والشر بل هي مطمئنة ، أو لا شرقية متعززة على المؤمنين بل هي ذليلة عليهم ولا غربية متذللة للكافرين بل هي عزيزة عليهم ، أو لا شرقية ناصبة للدين ولا غربية تابعة للجاحدين ، بل هي شاكرة لنعمة رب العالمين ، أو لا شرقية قانطة من

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١١٣.

رحمة الله ولا غربية آمنة من مكر الله أو لا شرقية مدعية ما ليس لها ولا غربية منكرة لما لها ، وهكذا تنطبقان على أمور كثيرة مناسبة المستنبط كلها وجملتها من الأخبار يعرفها المستحفظون لكتاب الله وسنة رسوله .

قوله عزّ من قائل : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾[1] :

إعلم أن كل شيء لا يوجد ولا يتحقق إلا بأسباب وشروط وعلل أربعة أو أكثر من علل معدة وغيرها ، ولا يوجد إلا بمشخصات وحدود من الأين والمتى والوضع والكم والكيف والجهة وغير ذلك من فروعها وفروع فروعها ومتمماتها ومكملاتها ، فالشيء في وجوده وظهوره في عالم الوجود المقيد يحتاج إلى أمور كثيرة مضافاً إلى احتياجها في الصدور إلى عالم الأمر أي إلى مشيئة الله تعالى . وهذا جار في كل وجود مقيد من العقل الكلي إلى أسفل مراتب الوجود ، غير أن الشيء كلما بعد عن المبدأ غلظ وكثرت قيوده فزاد احتياجه وكلما قرب من المبدأ رق ولطف وقلت قيوده إلا هذه الشجرة الإلهية ، فإن زيتها في غاية الشفافية واللطف ، ولا يحتاج في خروجه إلى الوجود إلى كل قيد وأي حد إلا لأمر ربها فقط ، أي يكاد قابليتها يظهر في الكون والتحقق لقربها من فوارة النور وشدة تأهلها للوجود بما لها من رجحان زيتها بلا شرط وبلا قيد وحد ، كما أن هذا الزيت الظاهري على أصناف ، قسم منه غليظ لا يتقد بقرب النار إلا بكونه في محل من خشب أو خرق أو غيرهما مع عدم مانع له من ريح عاصف أو برد شديد ، وقسم منه ليس

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

بتلك الغلظة بل يتقد بقربه من النار مشروطاً بعدم الريح العاصف وعدم البرد الشديد وقسم منه لطيف جداً يلقف النار من بعد بلا حاجة إلى شيء وبلا شرط يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار من كمال لطفه وشدة قابليته ، وهذا الزيت الظاهري اللطيف جعله الله تعالى آية ومثلاً لزيت الشجرة المباركة الإلهية الذي لصفائه وشدة لطف قابليته يكاد يضيء ويخرج إلى الوجود والتحقق قبل مس المشيئة إياه لرجحانه وعدم تقيده بقيد إلا لعلة صدوره وحدوثه فهو جدير بأن يلحق بعالم الوجود المطلق لعدم تقيده بما تقيد به الوجود المقيد من شروط وحدود وقيود إلا بعلة إيجاده حسب ، وهو أمر الله الفعلي . فلذا عدّه بعض الحكماء الإلهيين برزخاً بين الوجود المطلق وهو أمر الله الفعلي وبين الوجود المقيد الذي هو العقل الكلي وما بعده إلى الثرى وما تحت الثرى ، فمن حيث تقيده صدوراً بعالم الأمر الفعلي يلحق بالمقيد لتقيده بغير نفسه ، ومن حيث عدم تقيده بما تقيد به الوجود المقيد من المشخصات المذكورة والحدود يلحق بعالم الأمر أي الوجود المطلق ، فهو وجود راجح وزيت صافي يكاد يخرج إلى الوجود والتحقق قبل أن يمسّه نار المشيئة ، لخفة مؤنته وعدم العلائق المثبطة له بوجه .

هذا إن فسّر الزيت بالوجود الكلّي والمادة الأولى ومادة المواد المعبّر عنه بسماء أرض الإمكان ، وهو الماء الذي جعل منه كل شيء حي ويمكن أن يراد به أرض الإمكان المعبر عنها بأرض الجرز والبلد الميت والأرض الميتة ، وهي الصورة الكلية والقابلية الأولى المترشح عنها هياكل التوحيد والمتفرع عنها أغصان الحكمة المغروس فيها حدائق مباركة وأشجار باسقات التي روح القدس وهو العقل الكلي ذاق

من تلك الحدائق باكورتها أي أول ثمرتها ، كما قال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) : « روح القدس في الجنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة » فيكون المعنى أنه تكاد هذه الأرض النقية تنبت بتلك الأشجار المباركات والأغصان الباسقات ولو لم يقع عليها ماء الوجود من سحاب المشيئة المتراكم ، فافهم إن كنت تفهم وإلا فسلم تسلم ولا تنكر ما لم تحط به خبراً ، فإن الأجنبي عن الفن إن لم يكن متورعاً ربما يحسبه من السفاسف والشطحات ، وهي عند أهله من أثمن الدرر المكنونات والجواهر المخزونات المصونات .

ويمكن أن يفسّر هذا الزيت بالماهية القريبة من المبدأ بحيث تكاد تنوجد قبل أن توجد بتبعية الوجود ، لقرب رتبتها من المبدأ المعظم وتلاشي ظلمتها لتساوقها لقاعدة الوجود ، ويحتمل بعيداً أن النفس الأمّارة واللوّامة التي كانت في النبي (صلى الله عليه وآله) مقدار سم الإبرة لحفظ وجوده عن الفناء والتلاشي تكاد أن تفني ظلمتها لقربها من المبدأ لقلة ظلمتها ، وهي المعبر عنها في حديث المعراج بالحجاب الزبرجد الذي يتلألأ بخفق ، وهو الحجاب بينه وبين ربه ، ولولا هذا الحجاب لفني وجوده وانحل تركيبه ، لأن ذاتي الممكن هو التركيب من جزأين : الوجود والماهية ، أي ممكن كان من أول الخلق وأشرفهم وأدناهم وأسفلهم ، ومهما انفصل أحد الجزأين واضمحل من الممكن انحل تركيبه وانعدم . غايته أن الماهية أي الظلمة فيمن قرب من المبدأ تكون مقدار ما يستمسك به وجوده عن الاضمحلال والتلاشي ، ويعبر عن القلة بسم الإبرة ، ويكون الوجود فيمن بعد عن المبدأ بالنسبة إلى ماهيته وإنيته مقدار ما تنحفظ ماهيته وإنيته وتستمسك عن الانحلال

والتفكيك ، ويعبر عن القلة أيضاً بسم الإبرة ، فافهم وتبصّر .

ويمكن لتفسير هذه الفقرة من الآية وجوه أخر نطوي عنها كشحاً خوفاً من فرعون وملائه وحذراً من التطويل الممل .

قوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾[1] .

تفسير هذه الفقرة تابع لما قبله من أي تفسير للمشكاة والمصباح والزجاجة ، فإن فسرت المشكاة بنبي الله إبراهيم والزجاجة بإسماعيل والمصباح بمحمد (صلى الله عليه وآله) كما في بعض الأخبار ، فالنور هو محمد (صلى الله عليه وآله) وعلى نور إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) .

وإن فسرت المشكاة بعبد المطلب والزجاجة بعبد الله والمصباح بمحمد كما في خبر آخر ، فالنور محمد (صلى الله عليه وآله) وعلي نور عبد الله وعبد المطلب .

وإن فسّرت المشكاة بقلب محمد والمصباح نور علمه والزجاجة وصيّه فيكون النور هو نور علم محمد وعلي نور صدر وصيه .

وإن فسرت المشكاة بالزهراء والمصباح بالحسن المجتبى والزجاجة بالحسين (عليهما السلام) ، فيكون النور هو الحسن (عليه السلام) وعلي نور الحسين والزهراء (عليهما السلام) .

وعلى أي تفسير كان فالذي فسر للمصباح يكون هو النور والذي

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

فسر للمشكاة والزجاجة يكون على نور ، أو بالعكس والله العالم وأولياؤه الطاهرون المصطفون من عباده لميراث كتابه بما في كتابه من الأسرار والعلوم والتفاسير .

قوله تعالى : ﴿ **يهدي الله لنوره من يشاء** ﴾[1] .

بأي معنىً فسّر النور بمعنى نور ظهوره تعالى أو نور النبوّة أو نور العلم أو أحد المعصومين الأربعة عشر (عليهم السلام) ، فمن الله تكون الهداية إليه وإلى معرفته والوصول إليه ، إما بالهداية بارائة الطريق أو الإيصال إلى المطلوب لا من غيره (تبارك وتعالى) ، لأنه سبحانه هو العليم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمّهاتكم** ﴾[2] ولا يهدي من يهديه جبراً أو كرهاً ، بل لا يهدي إلا من طلب الهداية واستدعاها قولاً وعملاً أو رضى وتسليماً . وهو المعبّر عنه بالجهاد في قوله عزّ من قائل : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[3] ، ومن أدبر وأعرض فإن الله غني عن عباده ، ولا يرضى لهم الكفر بل يطبع على قلوبهم بكفرهم وإعراضهم عن الحق ، فإن الله لا يهدي القوم الفاسقين .

وهذا المجاهد في الله هو الذي شاء الله هدايته في قوله : ﴿ **يهدي الله لنوره من يشاء** ﴾[4] لأن المراد بالمشيئة هنا هي المشيئة العزمية أي المشيئة التي تتضمن المحبة ، بمعنى أنه مراد لله ومحبوب له ، لا

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

المشيئة الحتمية التي حتم الله على نفسه أن يعطي لمن يريد ما يريد من هداية أو ضلالة ، طاعة أو معصية ، أو غير ذلك ، لأن الله تعالى من عدله أنه لا يمنع من يريد عما أراد ، إن مشى إلى فسق أمده أو إلى أي شر ما منعه عن المدد وهو قادر على قطع المدد من الفاسق فلا يفسق ، وإن أراد الخير والطاعة أمدّه أيضاً وما منعه ، لكن فرق بين إرادة الشر وإرادة الخير بالنسبة إلى مشيئة الله تعالى ، ففي طرف الخير تجتمع المشيئتان الحتمية والعزمية ، أي إعطاء المدد وعدم منعه عنه ومحبته إياه . وفي جنب الشر ليس هناك إلّا المشيئة الحتمية فقط ، أي إعطاء المدد وعدم المنع عنه ولا محبة أي لا مشيئة عزمية وبالفرق بين المشيئتين ينجلي لك معنى الخبر المروي في (الكافي) و (الاستبصار) أو (من لا يحصره الفقيه) : « إن الله نهى آدم عن أكل الشجرة وشاء أن يأكل وأمر إبليس أن يسجد لآدم وشاء أن لا يسجد »[1] (نقلته بالمعنى) وتهتدي لحل الإشكال المعروف .

ولو أردنا أن نطلق عنان اليراع في أقسام الهداية وأقسام المشيئة بحسب متعلقها لطال بنا الكلام وخرجنا عن النظام .

قوله تعالى : ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** . . . ﴾[2] الخ :

الأمثال إما جمع مثل بكسر الميم وسكون الثاء المثلثة على وزن حمل وأحمال وحقد وأحقاد ووزر وأوزار ، وإما جمع مثل محركاً (أي بفتح الميم والثاء المثلثة) كسبب وأسباب وذقن وأذقان .

---

(١) الكافي : ج١ ص١٥١ ح٣ .
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

فعلى الأول يكون تمثيلاً لصفة المؤثر بصفة الأثر ، لأن الأثر يشابه صفة مؤثره القريبة ، كالكتابة فإنها أثر الكاتب وتشابه حركة يد الكاتب ، أي هي على هيئة حركة يده ، إن كانت الحركة مستقيمة فالكتابة مستقيمة وإن كانت معوجة أو فيها رعشة فالكتابة تحكيها أو تشبهها . ففي هذه الآية إن الله يمثل للعالم ظهوره بالألوهية وأنه نور السماوات والأرض ، وهي صفة المصباح المنعكس نوره على الزجاجة والمشكاة . فصفة هذا المصباح من حيث تشعشعه وظهوره في نفسه وإظهاره لغيره مثل ونظير لكونه نور السماوات والأرض وأنه ظاهر لنفسه ومظهر لغيره . فافهم المثال .

وعلى الثاني (أي على كونه جمع مثل محركة بالفتحتين) يكون تشبيهاً لصفة المؤثر بإيجاد الأثر ، أي خلق الله المصباح المنعكس نوره على الزجاجة والمشكاة آية ومثلاً لظهوره بالألوهية ، فكما أن المصباح يوجد الأشعة ويحدثها لا من شيء ويمدها في مقامها وحدودها بلا خروج شيء من نفس المصباح وبلا تنزل منه إلى مقام الأشعة ، وبينها وبينه لا فصل ولا وصل ، والأشعة كلها ظهوره بالألوهية وإيجاده الموجودات ، فهو عنوان ومثل وآية له تبارك وتعالى ، فإنه سبحانه أوجد الأشياء من عدم لا من مادة قبلها ولا من شيء خارج من ذاته ، واختلاف الأشياء إنما أتى من ذواتها وناحيتها ، لا من ذاته تعالى ، ولا من ناحية فعله ، فمن بعد من الخلق فباختياره وتأخره في الإجابة ومن قرب منهم فباختياره وسبقه للإجابة كالأشعة ، فإن المصباح لم يقرب القريب من الأشعة وما بعد البعيد منها ، بل القرب والبعد من المصباح إنما حصلا من ذوات الأشعة واختيارها فقط ، فمنها ما يقع في صدر

الأشعة وفي قاعدة النور والظلمة موجودة فيه مقدار سم الإبرة لاستمساك نوره ووجوده ، ومنها ما هو في آخر الأشعة وفي قاعدة الظلمة ، وفيه من النور بمقدار سم الإبرة لاستمساك بنيته وماهيته .

وأمثال الله وآياته وإن كانت كثيرة في الآفاق والأنفس ، لكن المصباح أحسن آية وخير عنوان ، ومثل خلقه تعالى لعباده ، وفيه شرح لكثير من أمور المبدأ وفيه تفصيل لأربع مقامات محمد وآله الطاهرين (صلى الله عليهم أجمعين) من البيان والمعاني والأبواب والإمامة كملاً ، والمقام لا يسع الاطناب ومن رامه فليطلبه في مظانّه ، وفيه أيضاً مثال القيامات الأربعة ، من القيام الصدوري والركني والظهوري والعروضي وغير ذلك ، وفيه أيضاً التكليف الكوني في عالم الذر وانقسام الخلق إلى أزواج ثلاثة من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين ، كل ذلك مشهود فيه وفي أشعته واضحاً حسّاً ، وفيه مثال تعاكس النور والظلمة وتساوق قاعدة الأول بمخروط الثاني وتساوق قاعدة الثاني بمخروط الأول . خلق الله تعالى هذا المصباح آية جامعة مثل الله تعالى به في هذه الآية أي آية النور واستشهد به إمامنا الرضا (عليه السلام) في مجلس المأمون لعمران الصابي ، ولكن الغافلين عنه راغبون ، وكأين من آية يمرون عليها وهم عنها معرضون .

ولا ريب أن كتاب الله التدويني على طبق كتابه التكويني مليء بالآيات والأمثال كإنزال المطر وإنبات النبات مثلاً للدنيا والبعث ، وآية النفس مثلاً لمعرفة الرب ، وما ضرب في هذه الآية مثلاً لظهوره نور محمد (صلى الله عليه وآله) وأنوار أولاده الطاهرين (عليهم السلام) ، وضرب مثلاً لتلك الحقيقة المحمدية

الأنوار المضيئة المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والآيات الدالة على الأبواب كالشعلة باب الأشعة إلى النار وباب النار إلى الأشعة ، والآيات الدالّة على المعاني كقيام زيد وقعوده وعلمه وغير ذلك ، والآيات الدالة على التوحيد من المقامات والعلامات كقائم وقاعد وأسماء الفاعل كافة وغير ذلك مما لا يحصى من آياته منتشرة في الآفاق والأنفس ، المارّون عليها كثيرون والملتفتون إليها قليلون .

هذا ويمكن في التأويل معنى آخر لقوله تعالى : ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾[1] بأن يكون الأمثال عبارة عن الأشخاص والأعلام ، والضرب عبارة عن النصب ، أي وينصب الله الأشخاص الربّانيين والذوات النورانيين ، كالأنبياء والأوصياء والنقباء والنجباء والأوتاد والعلماء الإلهيين أعلاماً ومناراً لهداية الناس في عقائدهم وسلوكهم إلى ربهم وأعمالهم وأطوارهم ومعاشهم ومعادهم ، وذلك باطن قوله تعالى : ﴿ **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾[2] . وفي الزيارة الجامعة : « وأعلاماً لعباده ومناراً في بلاده » .

قال تعالى : ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾[3] : يعلم الأمثال وما يؤثر منها ولمن يؤثر وما ينفع منها ومن ينتفع بها ، ويعلم أصناف الخلق وطبائعهم ومن يقبل الحق ويسلم ومن يعاند ويجحد كل ذلك علم وشهود وعيان من جميع ما في الأمكان والأكوان .

تتميم : إشكال وحل .

---

(١) سورة النور، الآية : ٣٥.
(٢) سورة النحل، الآية : ١٦ .
(٣) سورة النور، الآية : ٣٥.

أما الأول : قد سبق بنا أن مثل أو مثال نور السماوات والأرض إنما هو النور الخالص الكامل الأتم ، وهو نور محمد (صلى الله عليه وآله) أو نور علمه أو أنوار أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) ، ونور غيرهم لا يكون خالصاً لعدم الكمال المطلق ، فيكون مشوباً والمشوب لا يكون مثالاً للنور الكامل ، وقد نرى في بعض الأخبار أن هذه الآية قد فسّرت بنور المؤمن كما في (الكافي) و (تفسير البرهان) للسيد البحراني عن القمي عن الصادق عن أبيه (عليهما السلام) في هذه الآية : ﴿ **الله نور السماوات والأرض** ﴾[1] قال : « بدأ بنور نفسه تعالى ثم مثل نور هداه في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، المشكاة جوف المؤمن والقنديل قلبه والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه توقد من شجرة مباركة ، قال : الشجرة المؤمن زيتونة لا شرقية ولا غربية على سواء الجبل ، لا غربية ولا شرق لها ولا شرقية ولا غرب لها ، إذا طلعت الشمس طلعت عليها وإذا غربت غربت عليها ، يكاد زيتها يضيء يكاد النور الذي جعله الله في قلبه يضيء ولو لم يتكلم ، نور على نور ، فريضة على فريضة وسنّة على سنّة يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، فهذا مثل ضربه الله للمؤمن . ثم قال : فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور ، وفي نسخة : في خمسة من النور مدخله نور ومخرجه نور وكلامه نور ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور . قال الراوي : قلت للصادق (عليه السلام) أنهم يقولون مثل نور الرب . قال : « سبحان

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

الله أما قال ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾[1] ؟» .

ولا ريب أن المؤمن من سائر الناس واقع في الطبقة الثالثة من السلسلة الطولية في الخلقة الكونية ، فالأولى طبقة الحقيقة المحمدية ، والثانية طبقة الأنبياء والمرسلين ، والثالثة طبقة مؤمني الإنس وأهل هذه الطبقة وإن بلغ ما بلغ من الإيمان والأعمال الصالحة ، فإن نورهم ليس بخالص كل الخلوص والصفاء ، بل فيهم من الظلمة أكثر مما يحتاج إليه لاستمساك وجوده عن التلاشي فكيف يكون المؤمن من أهل هذه الطبقة مثلاً أو مثالاً للنور الكلي الأعظم الخالص .

وأما الثاني وهو الحل والجواب فمن وجهين :

أولهما : أن المؤمن الأول الحقيقي هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنه أول من أجاب وسبق إلى إجابة دعوة ربه كما تنطق به الأخبار عنه (صلى الله عليه وآله) حيث قال : « إني فضلت على الأنبياء لسبقي لإجابة دعوة ربي عليهم » نقلته بالمعنى . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[2] ، فهو (صلى الله عليه وآله) أول من آمن بالله ، ليس قبله أحد لا تكويناً ولا تشريعاً ، وكل من آمن من أي طبقة كان فإنما آمن بتوسطه وبتعليمه من الأولين والآخرين ، كما قال : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[3] . فالمصداق الحقيقي الأولي للمؤمن هو (صلى الله عليه وآله) لا غيره ، وهو المراد والمعنى في

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) انظر كنز العمال: ج١١ ص٤٥٠ ح٣٢١١٥ ـ ٣٢١١٧.

الحديث القدسي : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » أي ما وسع فيضي وأمري الفعلي وهي المشيئة الكلية الإلهية والكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر إلا هذا العبد الحقيقي وهو المؤمن الذي من أول خلقته يتقلب في الأنوار ، خلق من نور ربه وسبح في أبحر الأنوار الاثني عشر والأربعة عشر والعشرين ، كما في عدة أخبار ، وهو المؤمن المستغرق في الله إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر وإن حكم عدل وإن قال صدق وإن وعد وفى وإن ظلم عفا وإن نظر اعتبر وإن صمت فكّر وإن تكلّم ذكر ، فهو حي بين الأموات ووجه للحي الذي لا يموت .

ثانيهما : أن يراد بالمؤمن المؤمن الإضافي لا الحقيقي ، وهو المؤمن من سائر الخلق من الطبقة الثالثة من السلسلة الطولية بعد طبقة الأنبياء والمرسلين ، فيقال : أن العبد له جهتان ، جهة عبودية وهي جهة نفسه ، وجهة ربوبية وهي جهة من ربه ، ونعني بالجهة الربوبية كون العبد آية الرب تعالى وعنوانه وظهوره الفعلي ، لا عين ذات الرب ، كما يزعمه بعض أهل الإلحاد . فالجهة التي من نفسه التي هي جهة العبودية ظلمة وحجاب عن مشاهدة جمال الرب ، فما دامت باقية على حالها من النظر إلى نفسها لا يتمكن العبد من الوصول إلى معرفة الرب لأنه ما عرف نفسه حتى يعرف ربه ، والعبد مكلف بقشع تلك الظلمة ورفع ذلك الحجاب وكشفه بسحق جهة العبودية بصلاية الآداب الشرعية والأخلاق الروحانية والحقائق الربانية ، وبعد السحق بتلك الأمور تنعم أجزاؤها وتلطف وتزول عنها غرائب الأكدار وشوائب الأعراض وتصفو بتكرار الحل والعقد حتى تندك الظلمة فتشابه جواهر

أوائل العلل وتنصبغ بصبغ جهة الربوبية إذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد . فعند ذلك يمتزج البحران ، بحر العبودية وبحر الربوبية ، لاتحاد حكم الجهتين وارتفاع الخلاف من البين وانطبق عليها قول الشاعر :

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

فهناك لا توجد ظلمة ولا حجاب بينه وبين رب الأرباب ، أي يكون حقيقة العبد آيته وظهوره وعنوان الرب وظهوره هو حقيقة العبد ، أي لا حجاب بينه وبين ظهور الرب لا ذاته المقدسة ، فإن كنهه تفريق بينه وبين خلقه وتعالى في عزّ قدمه عن كل دنو ووصل وقرب واتصال ، ففي هذا المقام يكون العبد وصفاً له ومثلاً أو مثالاً لنفسه ولمن هو يساويه أو لمن أدنى منه رتبة .

بعبارة أخرى يكون مثلاً جزئياً أو مثالاً جزئياً لذلك المثال الكلي المهيمن ، فهو حينئذ نور يتقلب في أنوار خمسة : مدخلاً ومخرجاً وعلماً وكلاماً ومصيراً ، فافهم فإن المقام لا يسع أكثر من هذا البيان والأمر واضح لمن له عينان والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على ساداتنا محمد وآله الطاهرين .

تذنيب :

نسب بعض الحكماء الإلهيين إلى بعض العلماء من المحققين العارفين أن المشبه في القرآن والسنة المنقولة باللفظ نفس المشبه به ، فبعض من ليس له أنس بهذه المطالب وهو بعيد عنها بمراحل لم يعرف

المراد منه ، بل اتخذ هذه الكلمة وسيلة للطعن والقدح والتكلم بما لا يليق ، والقلب السليم عن الأمراض إن سمع شيئاً هو خلاف المعروف أو وجد غير ما هو المأنوس فلا يبادر بالرد والإنكار ، سيما إن كانت الكلمة صادرة عن عالم حكيم متصدر في العلم والتحقيق متناهٍ في الفهم والتدقيق ، بل يشتاق إلى معرفة معناه وتأويله ، ويكون حريصاً على الاطلاع على تفسيره ودليله ، وإلا فكل ذي إدراك وشعور يعلم أن المشبه غير المشبه به وأن التشبيه ذو أركان أربعة : المشبه والمشبّه به وأداة التشبيه ووجه الشبه . يعرف هذا كل أحد حتى الأطفال في الملاعب فضلاً عن الصبيان في المكاتب ، ولولا ذلك لما وجد تشبيه في الوجود .

فنقول بياناً لهذه الكلمة القيمة إختصاراً : إن المبتكر لهذه الكلمة النفيسة لم يعن كل تشبيه في القرآن ، فإن التشبيه فيه على قسمين : قسم لا يراد فيه الاتحاد في الوجود ، وهو الذي لم يؤت في التمثيل بالكاف بل أوتي بلفظ مثل محركة ، وهو كثير كقوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾[1] ولم يقل كالحمار ، لأن الحمار في هذا المقام لما لم يكن مثلاً لهم إلا إذا حمل كتباً لم يكن نفسه مثلاً . بل كان مثله مثلاً ، فكان مثل حمل الحمار الكتب عين مثلهم في حمل التوراة . ونظيرها في سورة البقرة : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً** ﴾[2] فمثل المستوقد ناراً هو مثلهم لا نفس المستوقد ، وكذلك قوله في تلك السورة :

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧ .

﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين** ﴾[1] فمثل المنفقين هو مثل جنة بربوة لا نفس الجنة . ففي هذه الآيات لما لم يرد فيها الاتحاد في الوجود مع المشبه أوتي في التشبيه بلفظ مثل محركة ، ولم يؤت بالكاف الدال على الاتحاد .

وأما القسم الثاني من التمثيل الذي يراد فيه الاتحاد مع المشبه فهو الذي يؤتى بالكاف لا بلفظ مثل محركة ، وهو الذي عناه صاحب تلك الكلمة القيمة ، كقوله (عزَّ وجلَّ) في سورة يونس : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض** ﴾[2] . وقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض** ﴾[3] . فقال سبحانه في الآيتين كماء ولم يقل كمثل ماء وذلك لبيان الاتحاد ، حيث أن الماء النازل هو عينه مثل الحياة الدنيا لا مثله .

بيانه أن الله سبحانه لما أراد أن يجسم للعباد مثل الحياة الدنيا ويبين لهم عياناً أنزل المطر وجعله مثلاً للحياة ولأهلها ، فإن المطر يقع على الأرض فيحييها وينبت النبات والأزهار فتصبح الأرض مخضرّة تعجب الناظرين ثم تصفر ثم يكون حطاماً كأن لم يكن شيئاً ، ثم في العام القابل يقع المطر أيضاً فينبت ذلك النبات كذلك النشور . وقال

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٦٥ .

(٢) سورة يونس، الآية : ٢٤ .

(٣) سورة الكهف، الآية : ٤٥ .

تعالى في حق الخلق : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً** ﴾[1] . وقال في سورة طه : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[2] . فالعباد يحيون كالنبات وينشؤون كالنبات ويتطورون كأطوار النبات ، ويحصل لهم نضرة الشباب فتعجب الناظرين ، كما تصبح الأرض مخضرة تعجب النظار ثم يموتون ويفنون كالنبات ، فكما أن النبات لا يبقى منها إلا البذر فاختلط بتراب الأرض ولم يبن منه شيء ثم يحيي وينبت في العام القابل ، كذلك الإنسان يموت ويفنى حتى لم يبق منه إلا الطينة الأصلية التي خلق منها كالبذر في النبات مختلطاً بالتراب كسحالة الذهب المختلطة بالتراب ، وإذا أراد إحياءه أمطر من بحر صاد على الأرض فينمو كما تنمو النبات تحت التراب ، فينفضون عن رؤوسهم التراب فيخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، فالماء النازل من السماء كما عرفت هو عينه مثل الدنيا لا مثلها . ونظير ذلك في القرآن كثير ، كقوله عزّ اسمه في سورة هود : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان** ﴾[3] ؟ . فمثل الفريقين هو نفس الأعمى والبصير ونفس الأصم والسميع لا مثلهما . وقوله تعالى : ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة** ﴾[4] فإن الكلمة الخبيثة هي نفس الشجرة الخبيثة التي تخرج في أصل الجحيم كما يأتي في

---

(١) سورة نوح، الآيتين: ١٧ ـ ١٨ .
(٢) سورة طه، الآية: ٥٥ .
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤ .
(٤) سورة ابراهيم، الآية: ٢٦ .

الآية الآتية ، وغير بعيد أن يكون نظيرها في التأويل قوله تعالى في الصافات : ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين** ﴾[1] . يكون طلعها هو رؤوس الشياطين الطالعة من الشجرة التي هي رئيس الشياطين الخارجة في أصل الجحيم الذي هو الجهل الأول ، فافهم إن كنت تفهم وإلا فسلم تسلم .

وتجري هذه النكتة الشريفة في هذه الآية المباركة آية النور فقوله عزّ اسمه : ﴿ **مثل نوره كمشكاة** ﴾[2] ولم يقل كمثل مشكاة تنبيهاً على أن نفس المشكاة بعينها بما فيها من المصباح في الزجاجة هو مثل نوره تعالى لا مثل المشكاة ، فالمشبه هو مثل النور هو عين المشبه به وهو المشكاة نفسها لا مثلها ، وإنما أتى بالكاف ولم يجرد المشبه به عنها لأنها آلة الاتحاد ، وأيضاً بدونها يوهم الانحصار في المثل فإذا قيل مثل نوره مشكاة أوهم أن المثل منحصر في المشكاة وليس لنوره مثل غيرها ، والحال أن أمثاله تعالى كثيرة وهي العليا منها ولله الأمثال العليا ، فأتى بالكاف تنبيهاً على أن مثل نوره مشكاة وغير مشكاة مما هو نظيرها في المثل ، وكذلك في الآيات السابقة ، فإن مثل الحياة الدنيا ماء وكلما هو نظير ماء وليس المثل منحصراً في الماء ، وكذا مثل الفريقين الأعمى والبصير والأصم والسميع وكلما هو نظيرهما وليس بمنحصر فيهما ، فافهم وقس على هذا كلما يمرّ عليك من الآيات نظير المذكورات مما أوتي مثلاً بالتحريك وبالكاف دليلاً للاتحاد ، فافهم

(١) سورة الصافات، الآيتين: ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

وتبصّر ولا تكذب ما لم تحط به خبراً من النكات والأسرار التي يكشف عنها فحول الحكماء الأعلام وأصول رؤساء الإسلام مما خفي على أكثر الأنام .

المسألة الرابعة

وما معنى قوله تعالى : ﴿ فكان ـ من ربه ـ قاب قوسين أو أدنى ﴾[1] ؟
وما تفسيره ؟

الجواب : إن الأولى والأجدر أن نستكفي في الجواب بذكر الرسالة التي كتبها وصنّفها في هذا المضمار الحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني العلامة المولى الشيخ علي تقي ابن الأوحد الكبريائي الشيخ أحمد الأحسائي (أعلى الله مقامهما) ، فإنها خير رسالة ألفت في تفسير هذه الآية كافية شافية حاوية لنكات لم تنلها أيادي عميقات الأفكار ومشيرة إلى أسرار مضروبة دونها الأستار لم يحم حول كشفها دقيقات الأنظار ومحتوية على تحقيقات ما حواها أنفس كتاب ولا جرت في مضامين أحكم وأبلغ خطاب ، وإن كان في هذا العصر الظلماني الباحث عن هذه المطالب الغالية وطالبها قليل جداً ، وأهلها ومن

---

(١) سورة النجم، الآية : ٩ .

يفهمها ويستأنس بها أقل وأقل ، بل كاد أن يكون كالكبريت الأحمر والغراب الأعصم ، ومع ذلك لا ينبغي أن نبخل عن تسطيرها ونقلها عسى ولعل أن يوجد لها طالب ويتفق لها راغب خاطب يعرف قدرها ولا يرخص مهرها ، فنقول :

قال أعلى الله مقامه :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . . . الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ، وبعد ، فيقول العبد المسكين علي بن أحمد بن زين الدين الأحسائي اني لما رأيت كثيراً من المفسّرين انحرفوا عن الصواب تبعاً لبعض في تفسير قوله تعالى : ﴿ **فكان** ـ من ربه ـ **قاب قوسين أو أدنى** ﴾[1] أردت أن أكتب ما سنح ببالي مما يوافق كلام أهل العصمة (عليهم السلام) ولم يخرج عن مفهوم اللغة وأودعه بعض النكات ، فأقول :

قالوا في قاب قوسين : القاب القدر وقاب القوس ما بين رأسه إلى سيته ما عطف من طرفيها ، والمراد بقاب قوسين قوله جلّ شأنه : ﴿ **فكان قاب قوسين** ﴾ قدرهما . انتهى .

والظاهر أن المراد به قابا من قوسين أي قدر أحد قوسين من قوس الرامي كناية عن قطعة أحد القوسين في نزوله وسيره في قوس الآخر في صعوده ، كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى ، وهذا هو الذي بينه وبين ربه (القمي) قال : كان من الله كما كان بين مقبض القوس إلى رأسة السية وفي (الأمالي) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : « لما

(١) سورة النجم، الآية: ٩.

عرج بي إلى السماء دنوت من ربي (عزَّ وجلَّ) حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى . قال يا محمد من تحب من الخلق ؟ قلت يا رب علياً . قال : فالتفت يا محمد ، فالتفت عن يساري فإذا علي بن أبي طالب »[1] .

أقول : إن الله خلق محمداً وعلياً من نور واحد فقسمه نصفين ، فقال للنصف كن محمداً وللنصف الآخر كن علياً . وقال (عليه السلام) : « أنا من محمد كالضوء من الضوء »[2] . فعلي هو من محمد فيكون محمد هو الجانب الأيمن وعلي الجانب الأيسر ، ولأن علياً نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : « أنت نفسي التي بين جنبي » فلذا قال فالتفت يا محمد . وقال (صلى الله عليه وآله) : فالتفت عن يساري . والإلتفات رجوع ، والرجوع لا يكون إلى اليمين لأنه الطرف الأعلى . وفيه نكتة : وهو أن اليسار مأخوذ من اليسر فيكون علي يسر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ولذا قال : عن يساري ، ولم يقل إلى يساري . بمعنى أنه فهم ما فهم عن يساره . ويأتي في بعض الأحاديث عند استطراد ذكرها معنى فتدلى ، أي فهم عن ربه عند تدليه وتوجّهه إليه .

وورد أن الله ليلة المعراج ما كلّم رسول الله إلا بلسان علي ، فعلي لسان رسول الله ، قال تعالى : ﴿ **فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً** ﴾[3] فلولا علي لم يكن يسر رسول الله يسراً

(١) أمالي الطوسي : ص٣٦٢.
(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ .
(٣) سورة مريم، الآية : ٩٧ .

ولم تظهر له دعوة . قال علي (عليه السلام) : « أنا آية نبوة محمد » وقال : « ليس لله آية أكبر مني ولا نبأ أعظم مني »[(١)] ، فافهم .

وفي (الاحتجاج) عن السجّاد (عليه السلام) : « أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى فكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى »[(٢)] . يعني أنه قرب من ربه في سيره إليه قدر قوس من القوسين فجاوزه فكان أدنى من ذلك يعني بل أقرب من ذلك المقدار ، ولذا ورد عن الصادق (عليه السلام) : « أول من سبق إلى (بلى) رسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك لأنه أقرب الخلق إلى الله ، وكان بالمكان الذي قال له جبرائيل لما أسري به إلى السماء : تقدم يا محمد فقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرّب ولا نبي مرسل »[(٣)] ، ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه وكان من الله (عزَّ وجلَّ) كما قال : ﴿ **قاب قوسين أو أدنى** ﴾[(٤)] ، أي بل أدنى .

وفي (الكافي) عن الصادق (عليه السلام) أنه سئل : كم عرج برسول الله ؟ فقال : « مرتين ، فأوقفه جبرائيل موقفاً فقال له : مكانك يا محمد فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك مقرّب ولا نبي مرسل . . . إن ربك يصلي فقال : يا جبرائيل وكيف يصلي ؟ قال : يقول سبّوح قدوس أنا رب الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي . فقال اللهم عفوك عفوك . قال : وكان كما قال : ﴿ **قاب قوسين أو أدنى** ﴾ . قيل : ما

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٦ ص١ ح٢.
(٢) الاحتجاج: ص٣١١.
(٣) انظر الكافي: ج١ ص٤٤٢ ح١٢.
(٤) سورة النجم، الآية: ٩.

قاب قوسين أو أدنى ؟ قال : ما بين سيتها إلى رأسها . قال : فكان بينهما حجاب يتلألأ بخفق « أي باضطراب كناية عن عدم تحققه عند نفسه حتى يكاد يفني عن نفسه بشدة قربه وغلبة النور عليه منه » . ولا أعلمه إلا وقد قال : زبرجد فنظر مثل سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة ، فقال الله تبارك وتعالى : يا محمد ! فقال : لبيك ربي ، قال : من لأمتك من بعدك ؟ قال : الله أعلم ، قال : علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، ثم قال الصادق : والله ما جاءت ولاية علي (عليه السلام) من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهة »[1] ، انتهى .

فأبان الصادق (عليه السلام) بأن أكمل مراتب الواصلين في كمال عبوديته ، فعبوديته (صلى الله عليه وآله) حقيقة ربوبيته ، فعلل السبق إلى الإجابة بقرب المكان ، فهو أوّل الداعين وأوّل المجيبين ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) هو العبد الحقيقي القائم بأعباء العبودية كما أشير إليه في معنى العبد بقول الإمام (عليه السلام) : « العين علمه بالله والباء بونه من الخلق والدال دنوّه من الخالق بلا إشارة ولا كيف »[2] . فحقيقة دنوه كمال عبوديته ، لأنها الرتبة الثالثة من العبودية .

وروي في كتاب (النبوة) عن أبي عبد الله (عليه السلام) يقول : « مرت امرأة برسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يأكل فقالت : يا رسول الله إنك لتأكل أكل العبد وتجلس جلوسه ! فقال

---

(١) الكافي : ج١ ص٤٤٢ .

(٢) مصباح الشريعة : ص٨ الباب الثاني .

رسول الله : ويحك وأي عبد هو أعبد مني ؟!»[1] ، فمعنى المكان الذي كانت روحه منه هو نهاية قاب القوسين في الأسماء . قال (صلى الله عليه وآله) : « أول ما خلق الله روحي » . والمكان الذي كانت نفسه منه هو مقام أو أدنى ، وهو مقام الربوبية المشار إليها بـ « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[2] ، وهو نور العظمة .

وفي أحاديث المعراج الإشارة إلى هذا المعنى كثيرة يعرفها أولو الأفئدة .

منها ما أشار إليه في الحديث الثاني بقول جبرائيل : مكانك يا محمد ، أي وصلت مكانك فالزمه فليس وراءه مكان إلى أن قال : « إن ربك يصلي » والصلاة عبادة ، ولذا قال (صلى الله عليه وآله) : « وكيف يصلي ؟» قال يقول : « سبّوح قدوس أنا رب الملائكة والروح »[3] .

وما أحسن ما أجاب به الخليل بن أحمد بن حسين ، لما سئل ما معنى يصلي ؟ قال : يصل الولاية بالنوبة . فافهم إن كنت من أهل السر ، وإلا فلا تتكلف فيما ليس لك به علم وانظر إلى آخر الحديث . وكذا ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه : « أسري به (صلى الله عليه وآله) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر وعرج به إلى ملكوت السموات مسيرة خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى إلى ساق العرش فدنا بالعلم فدلى له من

---

(١) مكارم الأخلاق : ص١٦ .
(٢) البحار : ج٢ ص٣٢ ح٢٢ .
(٣) الكافي : ج١ ص٤٤٢ .

الجنة رفرف أخضر وغشى النور بصره ، فرأى عظمة ربه (عزَّ وجلَّ) بفؤاده ولم يرها بعينه ، فكان كقاب قوسين أو أدنى »[1] .

ففي الحديث من الأسرار ما تكل عنه الأبصار ، ولولا مخافة الأغيار لأبنت ما يظهر لي منها ، ولكن لا يجوز التكلم بأكثر مما سبقت الإشارة إليه وعرف مراده (عليه السلام) بقوله : « فدنا بالعلم » وقوله : ﴿ فتدلى ﴾[2] « فدلي له من الجنة » فإن معنى (دنا) قرب مرتفعاً ومعنى (تدلى) قرب نزولاً ليحصل الاتصال .

وأما في الظاهر فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دنا من ربه فتدلى ، أي نظر إلى ما تحت مقامه كما في (العلل) عن السجاد (عليه السلام) عن الله (عزَّ وجلَّ) : هل يوصف بمكان ؟ فقال : « تعالى عن ذلك » قيل : « فلم أسري به إلى السماء ؟» قال : « ليريه ملكوت السموات وما فيها من صنعه وبدائع خلقه » قيل : فقول الله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾[3] ؟ قال : « ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) دنا من حجب النور فرأى ملكوت السموات ثم تدلى فنظر من تحته ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى »[4] .

فقوله (عليه السلام) : فنظر من تحته ، يعني أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) اطلع على حقائق السموات وهو في

---

(١) البرهان : ج٣ ص٢٦٥ ح١ .
(٢) سورة النجم ، الآية : ٨ .
(٣) سورة النجم ، الآيتين : ٨ ـ ٩ .
(٤) العلل : ص١٣١ باب ١١٢ ح١ .

حال صعوده الصوري والمعووي نظر من تحته ، يعني رجع بصره كاراً إلى ملكوت الأرض وهذا حال نزوله المعنوي فأحاط بكل شيء في حال مكانه في بدء وجوده لارتفاعه عن الزمان لأنه فوق رتبته المحاط به ، فأحاط ببدء الزمان ، وهو في الدهر وأحاط بالدهر وهو في رتبة السرمد ، ولذا قال : « من تحته » ولم يقل في السموات من فوقه ، لأن السموات الباطنة هي نهايات العلو في الوجود المقيد أولها سماء عقل الكل ثم روح الكل ثم نفس الكل إلى آخرها ، وما فوقها غير محاط له فأحاط بها في أول بدء وجودها حين صار في مقام ﴿ أو أدنى ﴾ فافهم .

أو يكون معنى « نظر من تحته » أي من تحت ملكوت السموات إذ هو مقتضى سلسلة النزول وهو التدلي ، فالمعلولات أثر العلل وفروعها ، فمعرفة حقيقة الأثر على ما هو عليه حاصل من كمال معرفة المؤثر ، وهذا معنى « إن الله تعالى أشهده خلق السموات والأرض وخلق نفسه »[1] فأشهده خلق السموات بعد أن أشهده خلق نفسه ، وهو معنى قوله : « دنى من حجب النور فرأى ملكوت السموات وأشهده خلق الأرض بعد أن أشهده خلق السموات »[2] فيكون نظره إلى ملكوت الأرض من تحت ملكوت السموات كالأثر والمؤثر ونظره إلى ملكوت السموات من تحت ملكوته .

وأما قوله (عليه السلام) : « حتى ظن . . . إلى آخره » فهو عبارة عن اتصال الأسباب بالمسببات في السببية والمؤثرات بالآثار في

---

(١) البرهان: ج٤، ص٢٤٩.
(٢) البرهان: ج٤، ص٢٤٩.

التأثير ، فعبّر هنا بالظن ، لأن الأسباب والمؤثرات ليست موجبة للمسببات والآثار ولا مختارة فيها ، بل لله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو سبب كل ذي سبب ومسبب الأسباب من غير سبب ، هذا كله جارٍ على الظاهر .

أو يكون معنى (التدلي) الفهم كما روي عن الكاظم (عليه السلام) حين سئل عن معنى قوله تعالى : ﴿ دنى فتدلى ﴾[1] فقال : إن هذا في لغة قريش إذا أراد الرجل منهم أن يقول : « سمعت » يقول : « قد تدليت » وإنما التدلي الفهم[2] . (انتهى) .

واعلم أن التدلي لغةً الانحطاط والميل إلى السفل ، ومنه تدلَّت الثمرة إذا طالت إلى أسفل بعد أن كانت مرتفعة في أصلها . وكذا قيل الدلو ، لتدليه إلى أصل البئر ، وظاهر الحديث يراد به الارتفاع ، وكأنه لما علم من حال السائل أنه لا يعرف من التدلي إلا الانحطاط الصوري وأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دنى فتدلى ، أي ارتفع وانحط أجاب (عليه السلام) بأن التدلي ليس كما تزعم وليس ذلك نفياً لمعناه ، وإنما هي نفي للحصر فيه ، كما ورد نظير هذا في كثير من الأخبار ، فإنهم ينفون الشيء إذا علموا من السائل الحصر وهم يريدون نفي الحصر لا غير ، فقال (عليه السلام) : وإنما التدلي الفهم وإنها لغة في قريش ، يعني أنه خوطب بلغة قومه ، والمعنى دنا من ربه فوعى عنه ما أراه إياه بالعيان لا بالأخبار .

---

(١) سورة النجم، الآية: ٨.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ص٣٨٧.

ثم اعلم أن الانحطاط إما صوري أو معنوي أو رتبي ، والكل مراد كما تدل عليه الأخبار ، لكن على حسب أحوال السائلين وإدراك العارفين ، ولغة قريش أيضاً تدل على هذا بالمعنى الالتزامي فإن معنى قولهم قد تدليت بمعنى أسمعت وأصغيت إليك وفهمت ما تقول ، فقد ملت إلى مرادك وأدركته ، فهو وإن كان علواً وارتفاعاً للمدرك من حيث الإدراك فهو انحطاط من حيث ميله للمدركات وإقباله عليها .

إذا عرفت ما سبق من معنى الأحاديث ظهر لك أن المراد أنه (صلى الله عليه وآله) كان من ربه قاب قوسين وهو قوس الصعود ، وقاب القوسين كما فسّره الإمام (عليه السلام) ونص عليه أهل اللسان هو ما بين السية إلى الرأس الذي هو المقبض من قوس الرامي ، وليس المراد مقدار القوسين كما فهمه بعض المفسرين وأول الأحاديث عليه وصرف كلام أهل اللغة على ذلك ، فإن أهل اللغة قالوا القاب ما بين سية القوس ومقبضه ولكل قوس قابان والمقدار ، فعطفوا المقدار على ما بين السية والمقبض ، فعلم أنه كان مستعملاً في هذا وفي المقدار بالاشتراك ، وإن كان في الأصل مأخوذاً من المقدار إلا أنه وضع في هذا المقدار المعين من قوس الرامي وعليه تنطبق الأخبار كما سبق عن القمي ، قال : كان من الله كما بين مقبض القوس إلى رأس السية ، وكما فسّره الإمام (عليه السلام) أيضاً ، ولو أراد مقدار القوسين لقال مقدار قوسين أو قابي قوسين .

لا يقال : لو كان كذلك لقال : قاب قوس .

لأنّا نقول : إن القاب كما وضع لمطلق المقدار وضع للقدر

المعين من قوس الرامي لا مطلقاً كما نصوا عليه ، ولا يتحقق قوس الرامي بأحد القوسين إلا بالآخر كالمتضايفين ، وإنما ثنى القوس لأنه لو أفرده لكان إما أن يراد به مطلق القوس ، وليس بمراد ، إذ لم يوضع له بخصوصه وتفوت الفائدة المطلوبة أيضاً من القوسين الصعودي والنزولي ، وإما أن يراد به قوس الرامي فهو وإن وضع له لكنه لا يختص به عند الإطلاق خصوصاً حال التنكير بخلاف التثنية .

واعلم أن النكتة فيه هي أن القوس منقسم إلى قوسين : قوس نزول وقوس صعود ، فقوس النزول قوس المعاني التي أولها العقل وقوس الصعود قوس الأسماء التي أولها رفيع الدرجات وآخرها اسم الله البديع ، وهو نهايتها ليس وراءه إلا اسم الله الأكبر ، فلما كمل القوس النزولي في المعنى الذي آخره مرتبة الجامع (عليه السلام) دنا من ربه في القوس الصعودي في الأسماء ، فكان هذا القوس بينه وبين ربه في حال صعوده ، فصار يخترق حجب الأسماء إلى أن بلغها كلها ، فكان كلما قطع حجاباً قرب منه إليه أي الرب إلى أن جازها ، فوصل إلى مكانه ، وهو المراد بقوله أو أدنى وفي هذا المقام يؤول عليه بعضهم قوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[1] فافهم .

قال الملاّ محسن (رحمه الله) : فسّر الإمام (عليه السلام) مقدار القوسين بمقدار طرفي القوس الواحد المنعطفين ، كأنه جعل كلاً منهما قوساً على حدة ، فيكون مقدار مجموع القوسين مقدار قوس واحد ، وهي المسماة بقوس الحلقة ، وهي قبل أن تهيأ للرمي ، فإنها حينئذ تكون شبه دائرة ، والدائرة ، تنقسم بما يسمى بالقوس ، انتهى .

---

(١) سورة الحجر، الآيتين: ٩٩.

وهذا التطبيق ظاهر الفساد لمن عرف الكلام الخطابي ومفيت للنكتة ، ولكنه أراد أن يجمع بين قول بعض المفسرين بأن المراد بقاب قوسين مقدارهما وبين ما فسّره الإمام (عليه السلام) وزيف العبارة وحمل الكلام على غير ما يراد منه ، فإنه (عليه السلام) قال : ما بين سيتها إلى رأسها ، وهذا يكون في قوس الرامي لا غير ، فكيف يحتمل ما قاله بعد أن سئل (عليه السلام) : ما قاب قوسين أو أدنى ؟ فأجاب بما بين سيتها إلى رأسها ، وكذا ما نقل القمي حيث قال : كان من الله كما بين مقبض القوس إلى السية ، فلا يكون مقدار القوسين مراداً .

وأما قصده من معنى الاستدارة فهو معنى صحيح ، لكن على نحو ما بيّناه ، لأن كل شيء يكون غاية نهايته أول بدايته ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) من الله بدأ وإليه يعود ، فسيره في القوس النزولي هو المعبر عنه « بأدبر فأدبر» وسيره في القوس الصعودي هو المعبر عنه « بأقبل فأقبل » إلى أن وصل إلى مبدئه في دائرة حقيقية بسير مستقيم ، وإنك لعلى صراط مستقيم . . . وقول الملا محسن في التمثيل كشبه دائرة غير صحيح ، وإلا لما كان نهاية سيره إلى أول بدئه ، وهو باطل ، كما هو محقق في أصول الحكمة من أن كل ذي بداية لا يتجاوز مبدأه ، ولا ينقطع سيره دون مبدئه ، وهو معنى الاستدارة الحقيقية . . . وقولي : « من الله بدأ وإليه يعود » ليس المراد به الذات جلّ شأنه وعزّ اسمه ، لأنه لا من شيء ولا منه شيء ولا فيه شيء ولا إلى شيء ولا إليه شيء ، بل المراد من أمر الله بدأ وإليه يعود ، وهو معنى « إنا لله وإنا إليه راجعون ألا إلى الله تصير الأمور » قال (عليه السلام) : « كلهم صائرون إلى حكمك وأمورهم آيلة إلى

أمرك »[1] وقال (عليه السلام) : « علة ما صنع صنعه وهو لا علة له » فافهم هذا ما جرى به القلم مما سنح به الفكر الفاتر والنظر القاصر حامداً مصلياً مستغفراً سنة ١٢٢٦ هـ » .

أقول : هذا آخر الرسالة ، فلعمري لقد أودع فيها نكات عجيبة قصرت عن نيلها أفهام الطالبين ، وأسرار غريبة قل أن تدركها أحلام الراغبين ، واحتوت على مطالب جليلة عجزت عن دركها فحول العلماء ، وعلى تحقيقات أنيقة وقفت دون كشفها أصول الحكماء ، وكأني ببعض القاصرين يرمي صاحبها بالغلو والشطط ، وينسب معتقدها إلى الانحراف والغلط ، كلا ثم كلا بل إنما مندرجاتها جواهر مكنونات ودرر مصونات ، بل آيات بينات في صدور الذين آمنوا ، وحقائق محكمات بل أنوار نيّرات في أفئدة الذين أخبتوا إلى ربهم وسلموا ، وحيث أن في بعض ما ذكره قدّس الله نفسه الزكية نوع غموض فلا بأس أن نشير إلى بيانه .

فنقول ولا قوة إلا بالله مرّ في كلامه (أعلى الله مقامه) ذكر القوسين النزولي والصعودي وأن النزولي أوله العقل والصعودي أوله رفيع الدرجات وآخره اسم الله البديع ، فلربما لا يهتدي إلى فهمه بعض المحصلين فلا بأس بشرحه .

اعلم أن القوس النزولي هو قوس المعاني المتسلسلة نزولاً إلى ثمان وعشرين مرتبة ، أولها هو العقل الأول ، أي العقل الكلي وبعده النفس الكلية ثم الطبيعة الكلية ثم جوهر الهباء عالم المواد ، ثم شكل

---

(١) الصحيفة السجادية : دعاء٤٦ دعاؤه للعيدين والجمعة ص١٨١ .

الكل ثم جسم الكل ثم العرش محدد الجهات ثم فلك الثوابت ثم فلك البروج ثم فلك المنازل ثم فلك زحل ثم فلك المشتري ثم فلك المريخ ثم فلك الشمس ثم فلك الزهرة ثم فلك عطارد ثم فلك القمر ثم الكرة الأثيرية ثم كرة الهواء ثم كرة الماء ثم كرة التراب ثم المعادن ثم النبات ثم الحيوان ثم الملك ثم الجن ثم الإنسان ثم الجامع (عليه السلام) ، وهذا آخر القوس النزولي الحادث والحاصل من أدبار العقل لما خوطب بخطاب « أدبر فأدبر » وهو ثمانية وعشرون عالماً على عدد الحروف الهجائية المرتبة بمراتب حروف أبجد على ترتيبها ، وبأزاء هذه العوالم ثمانية وعشرون اسماً من أسماء الله الحسنى ، كل اسم منها ظهور من ظهورات الله جل اسمه وتجل من تجلياته ، وكل اسم ظاهر ومتجل في معنى من تلك المعاني المذكورة في مرتبة من مراتب حروف أبجد .

فالاسم الأول اسم الله البديع المتجلي في العقل الأول في مرتبة الألف ، والاسم الثاني الباعث الظاهر والمتجلي في النفس الكلية بمرتبة الباء ، والثالث الباطن المتجلي في الطبيعة الكلية في مرتبة الجيم ، والرابع الآخر الظاهر في جوهر الهباء في مرتبة الدال ، والخامس الاسم الظاهر المتجلي في شكل الكل في مرتبة الهاء ، والسادس الحكيم الظاهر في جسم الكل في مرتبة الواو ، والسابع المحيط المتجلي في محدد الجهات الذي باطنه العرش في مرتبة الزاء والثامن الشكور الظاهر في فلك الثوابت المعبر عن باطنه بالكرسي في مرتبة الحاء ، والتاسع غني الدهر والغني الظاهر في فلك البروج في مرتبة الطاء والعاشر المقدر الظاهر في فلك المنازل في مرتبة الياء ، والحادي عشر الرب الظاهر في فلك زحل المستمد من نور ذات العقل

الكلي في مرتبة الكاف ، والثاني عشر العليم المتجلي في فلك المشتري المستمد من نور ذات النفس الكلية في مرتبة اللام ، والثالث عشر القاهر المتجلي في فلك المريخ المستمد من نور ذات الطبيعة الكلية في مرتبة الميم ، والرابع عشر النور المتجلي في فلك الشمس المستمد من الكرسي كما في رواية علي بن عاصم أو من الابداع كما في بعض الروايات في مرتبة النون ، والخامس عشر المصور الظاهر في فلك الزهرة المستمد من نور صفة الطبيعة الكلية في مرتبة السين ، والسادس عشر المحصي الظاهر في فلك عطارد المستمد من نور صفة النفس الكلية في مرتبة العين ، والسابع عشر المبين المتجلي في فلك قمر المستمد من نور صفة العقل الكلي في مرتبة الفاء ، والثامن عشر القابض الظاهر في الكرة الأثيرية في مرتبة الصاد ، والتاسع عشر الحي المتجلي في كرة الهواء في مرتبة القاف ، والعشرون المحيي الظاهر في كرة الماء في مرتبة الراء ، والحادي والعشرون المميت المتجلي في كرة التراب في مرتبة الشين ، والثاني والعشرون العزيز المتجلي في المعادن في مرتبة التاء ، والثالث والعشرون الرازق المتجلي في النبات في مرتبة الثاء . والرابع والعشرون المذل المتجلي في الحيوان في مرتبة الخاء ، والخامس والعشرون القوي المتجلي في الملك في مرتبة الذال ، والسادس والعشرون اللطيف المتجلي في الجن في مرتبة الضاد ، والسابع والعشرون الجامع المتجلي في الإنسان في مرتبة الظاء ، والثامن والعشرون رفيع الدرجات وهو آخر الأسماء ونهاياتها الظاهر والمتجلي في الجامع (عليه السلام) في مرتبة الغين .

وبعد كمال القوس النزولي من مقام العقل نازلاً إلى مرتبة الجامع (عليه السلام) أخذ في القوس الصعودي قوس « أقبل فأقبل ». أي يصعد في قوس الأسماء المذكورة مترامياً من مرتبة رفيع الدرجات إلى مقام اسم الله البديع ، أي جعل يخترق حجب الأسماء إلى أن بلغها كلها ، فكان كلما يقطع حجاباً قرب منه إليه إلى أن جاوزها فوصل إلى مكانه ، أي إلى مرتبة أو أدنى . وليس وراء ذلك إلا إسم الله الأكبر ، فهذان هما القوسان اللذان أشير إليهما شرحاً لقوله عزّ اسمه : « فكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى» فقوس النزول قاب للقوس وقوس الصعود قاب ثانٍ له ، ولم يبق من ربّه في معراجه (صلى الله عليه وآله) إلا قاب واحد من القوسين ، وهو قاب قوس الصعود ، أي قوس الأسماء الحسنى المذكورة أو أدنى ، أي قوس « أقبل فأقبل » فافهم وتبصر ، ويزيدك بياناً ووضوحاً الرجوع إلى دائرة العقل .

قوله (قدّس الله روحه) في هذه الرسالة : « فعبوديته حقيقة ربوبيته » أقول : إعلم أن الرب له إطلاقات في لغة العرب ، يطلق على الصاحب والسايس والمصلح والمالك والسيد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾[1] وقوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ فيسقي ربه خمراً ﴾[3] وإذا قيل رب العالمين اختص بالله سبحانه كما في (المجمع) فلا وحشة إن استعمل الرب في غيره عزّ اسمه . وفي لسان أهل الحكمة المستنبط من أخبار أهل

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٢.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤١.

البيت (عليهم السلام) : الربوبية على أربعة أقسام :

الأول : الربوبية إذ لا مربوب لا ذكراً ولا عيناً ولا توهما ، فهي ربوبية ذاته سبحانه ، وهي عين ذاته ، وهذا من باب التعبير لا الاكتناه .

الثاني : الربوبية إذ مربوب ذكراً لا عيناً وهي ربوبية المشيئة ، لأن في المشيئة ذكر المشاء ولا عين له هناك ، وإلا لزم مذهب ضرار حيث يرى أن المشيئة مادة الموجودات .

الثالث : الربوبية إذ مربوب ذكراً وعيناً ، وهي ربوبية العقل الأول ، أي العقل الكلي حيث أن الموجودات كلها من شعاعه وشعاع شعاعه إلى مرتبة الجماد في السلسلة الطولية الثمانية بالتنزل الأثري ، وفي السلسلة العرضية تنزل اللب والقشر ، أي أن شعاع العقل وشعاع مادة الموجودات إلى آخر السلسلة الطولية الثمانية المؤمنين ، أما الكافر من كل طبقة فمخلوق من ظل شعاع تلك الطبقة والتفصيل يطلب من محله .

الرابع : الربوبية إذ مربوب وقوعاً ، وهي ربوبية العبد إذا كمل علماً وعملاً وترقى حتى صار مثلاً لله تعالى ، كما في الحديث القدسي : « عبدي أطعني أجعلك مثلي أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون »[1] وفي الحديث القدسي الآخر « لا زال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بها وعينه التي يبصر بها ويده التي يبطش بها »[2] فهناك تظهر فيه الربوبية المكنونة المستجنة

---

(١) كلمة الله : ص١٤٠ .

(٢) الكافي : ج٢، ص٣٥٢ ح٨.

فيه ، وهذه الربوبية آخر مراتب العبودية ، أي المرتبة الثالثة من العبودية التي أشار إليها المصنف (أعلى الله مقامه) بعد سطرين بعد ذكر قول الصادق (عليه السلام) في تفسير حروف العبد : « العين علمه بالله والباء بونه من الخلق والدال دنوّه من الخالق بلا كيف ولا إشارة »[1] أي بعد العلم بالله والبون من الخلق يحصل له الدنو من الخالق بلا كيف ولا إشارة .

وإلى ذلك أشار الصادق (عليه السلام) في قوله : « العبودية جوهرة كنهها الربوبية »[2] . ومن نظر إلى أحوال الكملين من أصحاب الأئمة (عليهم السلام) أضراب سلمان وجابر الجعفي وميثم التمار (رضوان الله عليهم) وغيرهم قضى عجباً وعرف صحة ما قلناه ، فإنهم احتووا على مقامات عالية وتسنموا مراتب سامية بإطاعتهم لمولاهم وفنائهم في جنب أمر بارئهم وتقديمهم رضاه على هواهم وسحقهم جهة العبودية التي هي ظلمة وحجاب عن مشاهدة جمال رب الأرباب ، فظهرت فيهم جهة الربوبية وحصلت لهم السيطرة والسلطنة على من دونهم وتحتهم في الخلقة والرتبة ، وصارت الأشياء مسخرة ومطيعة لهم ومنقادة لأمرهم من الملك والجن والحيوان والنبات والجماد ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) لكمال عبوديته حيث لا فوقها في الإمكان لسبقه إلى إجابة ربه بقوله : بلى ، قبل ما سواه كافة حصلت له تلك الربوبية العليا حتى صار في معراجه من ربه كقاب قوسين أو أدنى ، فلذا قدمت عبوديته على رسالته بالقول : « أشهد أن

---

(١) مصباح الشريعة : ص٧ الباب الثاني .

(٢) مصباح الشريعة : ص٨ الباب الثاني .

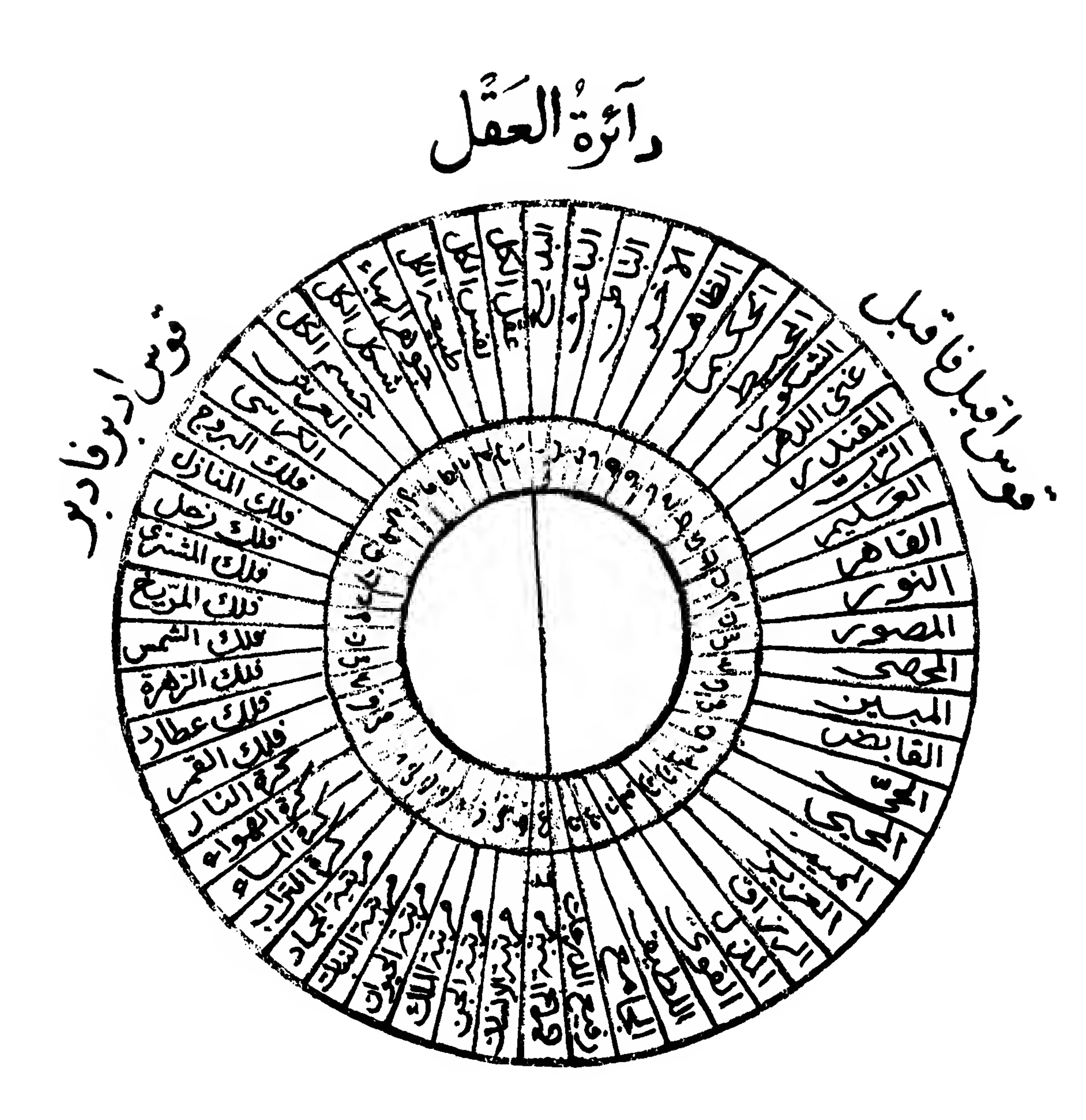
محمداً عبده ورسوله » للدلالة على أن تلك الرسالة الكبرى إنما جاءت من ناحية عبوديته المثلى .

انتهى ما أردنا بيانه وشرحه ، وهذه المسألة الرابعة ، ـ أي مسألة قاب قوسين أو أدنى ـ هي آخر سؤالات السائل وفّقه الله لمرضاته . . . وبمناسبة الحل والارتحال وكثرة الأشغال تأخر جواب سؤالاته ، وقد توفقنا وله الحمد لاتمامه وإكماله حسب اقتضاء الأحوال وتحمل الظروف والمجال مراعياً مراقباً ما قاله الإمام (عليه السلام) : « ما كل ما يعلم يقال ولا كل ما يقال حان وقته ولا كل ما حان وقته حضر أهله » وفي هذا العصر المظلم الذي ينكر فيه الوجدانيات والحسيات ويخدش في المسلمات والضروريات ، وكثرت فيه التمويهات والتشكيكات والوساوس في البديهيات واليقينيات وصار الرواج للقشريات والانهماك في الصوريات وتداول من العلوم الفضول وهجر المعقول والمنقول ، وتركت العلوم الدينية والرسوم الإسلامية كيف يمكن فيه بيان المطالب العالية وذكر الحقائق اللبية والمعارف الحقيقية التي بها تنال المراتب المعنوية والمقامات القدسية وتعرج إلى العوالم الربوبية بعد طي منازل العبودية .

فلذا ينبغي بل يجب سد الباب عن هاتيك المعاني والأبواب وجعل الصدور لها مخزناً والقلوب لها معدناً ومكمناً بل مدفناً ، وترك السطور منها خالية والصحف عنها نائية ، كما هو العادة لنا والديدن ، وهو الشأن للحكماء وأهل الفن في كل ما لا تحمله الظروف والأوعية حتى في غير الأسرار من مؤمن كان المخاطب أو الأغيار ، بل نضرب عنها صفحاً ونطوي دونها كشحاً ، ونقطع الكلام ونجعل الختام .

الحمــد لله والصــلاة علــى خيــر الأنــام محمــد وآلــه الســادة الكرام (عليهم سلام الله) الملك العلاّم ، وكان ذلك في الشهر الثالث من التاسعة والستين بعد الألف والثلاثمائة وأنا الأحقر الفاني علي بن موسى الحائري .

صورة دائرة العقل



الرسالة السادسة

في
مسائل متفرقة وردت من الشيخ فرج القطيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ولعنة الله على أعدائهم مؤسسي الظلم والجفا . . . وبعد ، فيا أيها الفاضل الكامل الألمعي والمولى الباذل اللوذعي المهذب التقي المؤتمن جناب الشيخ فرج بن الحسن القطيفي رفع الله شأنك وقدرك وشرح لك صدرك وأصلح دنياك ودينك . . . إنه قد وصلني كتابك وأسئلتك بعد تأريخه بأسبوع فبادرت إلى الجواب ، وإن لم أكن من أهل هذا الخطاب ، آتياً بالميسور الذي لا يسقط بالمعسور حيث أني مسؤول ، معبراً عن السؤال (بقال) وعن الجواب (بأقول) والله المستعان ونعم المأمول .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة الأولى في الدعاء : « اللهم إن رسولك الصادق المصدق الأمين قال . . . الخ» بعد السؤال عن سنده لأجل الاطمئنان وإلا فالألمعي يعرف لحن القول ، ما النكتة في الإتيان بهذه الصفات الثلاث مع أن الرسول من لوازمه الصدق والتصديق والأمانة ؟

أقول :

هذا الدعاء رواه ابن طاوس في (فلاح السائل) بإسناده عن أبي محمد هارون بن مؤمن عن جميل بن دراج قال : « دخل رجل على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال له : يا ابن رسول الله علت سني ومات أقاربي وإني أخاف أن يدركني الموت وليس لي من آنس به وأرجع إليه ، فقال له : إن من إخوانك المؤمنين من هو أقرب نسباً وسبباً وأنسك به خير من أنسك بقريب ومع هذا فعليك بالدعاء وأن تقول عقيب كل صلاة : اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم إن الصادق الأمين قال إنك قلت ما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته . . . الخ »[١] .

أقول : هذه النسخة كما ترى ـ نقلها ليس فيها ما ذكره السائل من كلمة رسولك ولا صفة المصدق ، فلا يبقى لمطالبة النكتة وجه ولا موضوع ، لكن على احتمال وجود كلمة رسولك في غير هذه النسخة ، نقول : إن النكتة في الإتيان بهذه الصفات الثلاث : (الصادق ، المصدق ، الأمين) ، مع أن الرسول كما ذكرت من لوازمه هذه الصفات ، هي أن وصف الرسول غير مختص بنبينا (صلى الله عليه وآله) ولا منصرف إليه عند الإطلاق ، بل يحتمل أن يكون هذا الرسول هو الخليل أو الكليم أو المسيح أو غيرهم ، فاحتاج إلى وصف خاص أو مشهور يرفع هذا الاحتمال ويعين نبينا (صلى الله عليه وآله) ، فأتى بهذه الصفات المعروفة لهذا النبي العربي حيث أنه (صلى الله عليه

---

(١) فلاح السائل : ص١٦٨ .

وآله) من صغره كان عند أهل مكة والطائف ، بل عند عامة العرب معروفاً بالصادق الأمين ، فكأنه صار لقباً له مشهوراً به عند العدو والصديق ، إذا ذكر هذا الوصف التركيبي عندهم لا ينصرف إلى غير نبينا (صلى الله عليه وآله) ، وفي هذا الدعاء لما قال الإمام (عليه السلام) : « رسولك الصادق . . . الخ » تعين سيد الرسل لا غير ، وإن كان كل رسول صادقاً أميناً .

ويحتمل بعيداً أن يكون ذكر هذه الأوصاف من قبيل الإيغال في الشعر أو التذييل المذكورين في باب الإيجاز والإطناب من علم المعاني ، مثل قوله تعالى : ﴿ إتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾[1] فإن جملة مهتدون مما يتم به المعنى بدونها ، لأن الرسول لا يكون إلا مهتدياً ، لكن في ذكرها زيادة حث على الإتباع وترغيب في الرسل كذلك فيما نحن فيه أتى بهذه الصفات الثلاث حثّاً على الاعتماد والتصديق به ، وإن هذا الكلام الصادر ممن كان صادقاً مصدقاً أميناً مما ينبغي الركون إليه والثقة به والأخذ مسلماً بلا تزلزل وارتياب في دلالته على شرافة المؤمن وعظمة قدره عند الله (عزَّ وجلَّ) ، حتى أنه لا يحب مساءته ويتردد في قبض روحه .

قال (سلمه الله تعالى) :

المسألة الثانية : قوله (عليه السلام) : « إنك قلت ما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض روح عبدي المؤمن . . . الخ »[2] ما معنى هذا التردد ؟ إذ حمله على ظاهره محال .

---

(١) سورة يس، الآية: ٢١.

(٢) فلاح السائل: ص١٦٨.

أقول :

التردد المعروف هو التردد في النية والعزم بمعنى التزلزل وعدم الاستقرار والتحير في الأمر يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وهذا المعنى لا يتأتى إلا من العبد ولا يجوز على الله جلّ شأنه من وجهين :

الأول : أن النية موضوعاً لا تعقل إلا من صاحب ضمير والله (عزَّ وجلَّ) لا ضمير له ، وإنما إرادته تعالى إحداثه كما في حديث الرضا (عليه السلام) لسليمان المروزي .

الثاني : التردد وجوداً ووقوعاً لا يتأتى إلا من الجاهل بالعواقب غير العالم بما يستقبله من المصالح والمفاسد أو من العاجز الذي لا يتمكن من الإصلاح والدفع أو الذي لا يحيط بحقائق الأشياء والكل محال عليه تعالى .

فلذا اختلفت العلماء في هذا التردد المنسوب إليه تعالى واضطربت أفهامهم ، وكل ذكر له وجهاً ، حتى أن بعض أهل اللغة كالطريحي وغيره في مادة (التردد) ذكر له بعض المعاني ، وخير الوجوه ما ذكره الشيخ الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي (أعلى الله مقامه) في المجلد الأول من (جوامع الكلم) في السؤال التاسع من سؤالات الشاه زادة محمود في الصفحة (٢٠٥) وحيث أن ما فاده ربما يكون فيه نوع غموض عند من لا يستأنس بلحنه نذكر مقصوده مشروحاً من غير حوالة إلى الكتاب ولا نقل عبارة ، فنقول :

ان من المهلكات أمرين عظيمين قلّما يخلو المرء من أحدهما إلا

من عصمه الله تعالى وهما الركون إلى الدنيا وسببه الغالب الرخاء والسعة والقنوط من رحمة الله (عزَّ وجلَّ) وموجبه الضيق والشدة ، والأول أكثر وجوداً بين العباد ، وأي منهما حل في وادي عبد أهلكه وأرداه ، إذ الأول منهما ينسى الله تعالى واليوم الآخر وكل ما يقربه إليه سبحانه وتعالى ويسلكه في أودية الغفلات ومهاوي الظلمات ، والثاني يجعله خالداً في زاوية اليأس والقنوط قاعداً عن كل عمل يجلب السعادة مثبطاً عن أي ترق إلى المبدأ مبتوراً لإطناب هممه الروحية ، وحيث أن الكافر لا قدر له عند الله (عزَّ وجلَّ) مقدار جناح بعوضة ولا كرامة له فأي واحد من الأمرين حل بوادي الكافر بسوء اختياره تركه وإياه وخلى بينه وبينه ولم يحمه عنهما بوجه وما يبالي في ذلك قط ، بخلاف المؤمن الذي هو عند ربه بمكان من العز والكرامة أن أشرف على واحد منهما أو ابتلى بما يقربه من أحدهما بادر إلى صرفه عنه برحمته الخاصة وحماه بلطفه المنيع ، وذلك بنقله من السعة إلى الضيق ومن الضيق إلى السعة ، بمعنى أنه سبحانه يضيق على عبده المؤمن عن أمور الدنيا ، فإذا خيف عليه القنوط وسَّع عليه وإذا خيف عليه الركون إلى الدنيا ضيق عليه ، وهكذا يفعل به من بلوغه إلى حضور موته يردده بين السعة والضيق ويصرفه بهذا التردد عن الركون والقنوط حتى يعرف خساسة الدنيا وتقلبها ، فيكره الدنيا والبقاء فيها فيحب الموت ويحب لقاء الله ويحب الله لقاءه ، فيقبضه إليه مكرماً ، وهذا التردد في الحقيقة هو تردد فعلي وتكرر عملي بمعنى أن فعله وصنعه هذا ، أي النقل من السعة إلى الضيق ومنه إلى السعة هو التردد حقيقة وهو دأبه وديدنه تعالى مع عبده المؤمن دائماً لترضيته وترغيبه في لقائه ، كما هو المشاهد المحسوس

في كثير من المؤمنين ، ولا يعامل هذه المعاملة مع الكافر ، بل إذا ركن إلى الدنيا استدرجه من حيث لا يعلم ومكّن له من مال وبنين ليزداد كيداً ، إن كيده متين ، وإذا قنط من رحمة ربه زاده فيه وشدّد عليه بسوء اختياره حتى ينحرم عن العمل ويبقى في سجن القنوط منغصاً عيشه ، فلا يلتذ بلذاتها ، فافهم معنى التردد أنه ليس تردداً ذاتياً ولا توقفاً عزمياً ولا تحيّراً علمياً .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة الثالثة : قوله (عليه السلام) : « يكره الموت وأكره مساءته »[1] ما معنى أن العبد الذي أضافه الله إليه ووصفه بالإيمان يكره الموت وفي الموت لقاء الله وهو غاية الغايات ؟ وما معنى كراهة الله (عزَّ وجلَّ) ؟ وما معنى كون الموت مساءة ؟

أقول وبالله التوفيق :

لما كان بالموت يحصل لقاء الله (عزَّ وجلَّ) ، وهي قنطرة يعبر بها إلى الله تعالى ، ولا ينال لقاء الله إلا بالعبور من هذه القنطرة والتناول من هذا الكأس ، فلا ينبغي أن يكرهه المؤمن الكامل ، كما قال عزرائيل : « أيكره الحبيب لقاء حبيبه »؟ جواباً لإبراهيم الخليل لما قال : « أيقبض الخليل روح خليله»؟ بل يكون دائماً متهيئاً مستعداً للقائه منتظراً لحضور رسوله مستبشراً بحلوله ، بل مسلياً نفسه بالموت مكرراً ذكره على أي حال ، كما هو المعهود من أولياء الله وأتباعهم وخواصهم ، وأما غير الخواص والكمل من سائر المؤمنين فيكون سبب

---

(١) فلاح السائل: ص١٦٨ .

الكراهة منهم أحد أمور :

إما قلّة الزاد واقتراف المعاصي أو أشتغال ذمّته بالحقوق ، حقّ الله أو حقّ العباد ، أو التعلّق بزخارف الدنيا وحطامها أو صعوبة فراق المال أو الأولاد أو النساء أو بعض الآمال أو غير ذلك ، فإن كان سبب الكراهة الثلاثة الأول فلا تعد تلك في الحقيقة كراهية ، لأنه حينئذ غير كاره نفس الموت ولا راغب عن لقاء الله ، بل لقلّة بضاعته أو لكثرة إضاعته يرى نفسه غير مستأهل ولا قابل لذلك ويخاف العتاب والعقاب إذا حضر بين يدي مولاه ، فيجب البقاء كي يتدارك ويتلافى ما فرط وقصر حتى يلقى ربه طاهراً نقياً غير مطالب ولا معاقب ، ومثل هذه الكراهة لا تنافي الإيمان ، بل هو من الإيمان حقيقة ، وإن كان سبب الكراهة طول الأمل أو تعلق النفس بزخارف الدنيا أو حب الشهوات من النساء والبنين وغير ذلك ، فهذه هي التي تنافي الإيمان ولا توافقه إذ المؤمن ينبغي أن لا يحجبه شيء عن لقاء ربه ويجعل جميع آماله وعلائقه فداءً في سبيل مولاه فإن كان صاحب هذه الكراهة مؤمناً حقيقة ، أي مستقر الإيمان غير مستودع ، فصدور الكراهة وأسبابها المذكورة منه إنما يكون من الخلط واللطخ عرضاً لا من أصله وذاته ، وهذا الخلط يزول عنه بابتلائه بالأمراض أو زوجة سيئة الخلق أو ولد غير صالح أو جار سوء أو فقدان مال أو سلطان جائر أو غيرها ، كما هو مفاد غير واحد من الأخبار ، وغير بعيد أن يكون هذا وأمثاله هو مصداق هذا الحديث القدسي من أن الله تعالى يتردد في قبض روحه ويكره مساءته وذلك لشرف إيمانه بولاء آل محمد (عليهم السلام) وانتسابه لتلك الحقيقة الأولية النورانية ، وكونه مخلوقاً من نور شعاعهم ،

فالله (عزَّ وجلَّ) يردده بين السعة والرخاء وبين الضيق والشدة من المرض وسوء الجار والسلطان والأولاد والزوجة وغيرها وأضدادها في جانب السعة ، حتى يفارق لطخه ويصفي من لوازم خلطه ويرضى بلقاء ربه .

وبعبارة أخرى لما كان حكم الله بالعدل حكم بأن من كره لقاء الله كره الله لقاءه ، ولما رؤف به أسبغ عليه ، ولما تواترت عليه النعم كره الموت وأحب البقاء في الدنيا وكره مفارقة النعيم ، وذلك موجب لكراهة لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، ومن كره الله لقاءه أدخله النار ، والله سبحانه لرحمته له يكره مساءته ، فلما كان الموت على هذه الحالة مستلزماً لذلك ولمساءته تردد سبحانه وتعالى في قبض روحه بما سبق بيانه ، فافهم جيداً .

وأما معنى كراهة الله تعالى فاعلم أن الكراهة والمحبة والغضب والسرور والأسف وأمثالها إذا نسبت إلى الله تعالى لا يراد بها حقائقها ، لأنها من لوازم الحدوث وصفاته ، ولأن الكراهة الحادثة إن كانت في الذات ، فقد صار الذات محلاً للحوادث وأوجب التغيير في الذات ، إذ لم تكن الذات قبلاً ذات محبة أو كراهة أو أسف ثم كانت ، ومتغير الأحوال حادث .

ثم إن الذات التي يحدث فيها الأسف يجوز عليها الهم والمرض ، فيجوز عليها الدثور والفناء تعالى القديم عن ذلك وتقدس ، فلا يراد بها إن أضيفت إلى الله تعالى إلا لوازمها وآثارها ، بمعنى أنه إذا قيل أحبه الله أو كرهه ، أي رتب عليه آثار المحبة من

القرب والزلفى لديه ورتب عليه آثار الكراهة من بعده وخذلانه ، وإذا قيل : غضب الله عليه ، أي رتب عليه آثار الغضب من العذاب والبعد عن ساحته ، لا أنه يحدث في الذات معنى الغضب أو معنى المحبة أو غيرهما .

وبعبارة أخرى يراد بها المحبة الفعلية والكراهة الفعلية والغضب الفعلي لا الذاتي ، فتفطن . . . وفي محل شاهدنا معنى يكره الله مساءته أنه لا يقبض الله روحه وحاله هذه ، بل يردده بين السعة والضيق ، حتى لا يكره لقاء الله فيقبضه محباً للقاء الله ، ومعنى مساءته هو ما أشرنا إليه قبيل هذا أنه إذا كره لقاء الله كره الله لقاءه . ومن كره الله لقاءه أدخله النار فإن قبضه على هذه الحالة استحق النار ، وهذه إساءة له وإهانة نعوذ بالله من ذلك .

ويحتمل في كراهة الله ومحبة الله وأسف الله معنى آخر يستفاد من كثير من الأخبار نذكر رواية منها عسى أن تهجم على حقيقة المطلب ، وهي ما رواه في الكافي والتوحيد عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾[1] قال : « إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا ، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون ، فجعل رضاهم رضا نفسه ، وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاّء عليه ، فلذا صاروا كذلك . . . الخ »[2] فافهم جيداً وجاهد في الله حتى يهديك سبيله .

قال (سلّمه الله تعالى) :

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

(٢) الكافي: ج١ ص١٤٤ ح٦.

المسألة الرابعة : قوله (عليه السلام) : « اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وعجّل لوليك الفرج والعافية والنصر ولا تسؤني في نفسي ولا في أحدٍ من أحبّتي إنك على كل شيء قدير . . . الخ »[1] ما النكتة في إقحام تعجيل الفرج بين الصلاة على محمد وآله وطلب عدم المساءة هنا أيضاً ؟ أفيدونا جواباً شافياً لا عدمنا وجودكم .

أقول :

يستحب في طلب الحاجة تقديم الصلاة على محمد وآله ، كما في الدعاء بل توسيط الحاجة بين صلاتين في أول الدعاء وآخره ، لأن الدعاء في حقهم (عليهم السلام) لا يرد حكمة لكمال الاستعداد والقابلية فيهم (عليهم السلام) وعدم البخل من المبدأ الفياض ، وإذا عطفت على الصلاة عليهم الحاجة أو توسطت بين صلاتين فالكريم الذي نهى عن تبعيض الصفقة أجل وأكرم من أن يبعض جملة الدعاء ، فيقبل بعضاً ويرد بعضاً ، بل يقبل الجميع ببركة الصلاة عليهم لكرمه الذي لا حد له وجوده الذي ليس له ساحل .

وأما تعقيب الصلاة عليهم بطلب تعجيل الفرج في هذا الدعاء مقدماً على حاجته ، فلأن شأن العبد ووظيفته إذا طلب حاجته من رب الأرباب أن لا ينسى أولياء نعمه ويقدم الدعاء لهم ، وحيث أن ولي النعم في هذا العصر هو الحجة المنتظر (عجَّل الله فرجه) ، وأهم الدعوات هو طلب تعجيل الفرج والنصر والعافية قدم الدعاء بذلك على حاجته وطلبته أداءً لوظيفة العبودية وتبركاً وتيمناً بتقديمه للوصول إلى

---

(١) فلاح السائل : ص١٦٨ .

مآربه .

ووجه آخر : أن الإمام الغائب (عليه السلام) لمّا كان هو السبيل الأعظم والصراط الأقوم كما في الزيارة الجامعة وغيرها فهو صراط الله تعالى إلى الخلق في جميع ما ينزل من الفيض وصراط الخلق إلى الله تعالى في قبول أعمالهم وقضاء حوائجهم التي هذه الحاجة بعض منها كان حقاً تقديم الدعاء له على طلب حاجته ، لأنه الواسطة بين الله وبين العبد ، وهو مبدأ الفيض ومجمع الحوائج ، فمقتضى الأدب وحق الشكر أن يدعو له أولاً ثم يدعو لنفسه ، مثلاً من أتى خدمة السلطان لحوائجه وعلم قطعاً أن حاجته تجري على يد الوزير الذي عنده على أي حال ، فعند نشر كف السؤال لطلب حاجته لا يمكنه الغفلة والإعراض عن هذه الواسطة ، بل الالتفات إليه بالدعاء له ، مضافاً إلى أنه نوع تأدب وإكرام وأداء لحق الشكر يكون تذكيراً له بالشفاعة وأدخل في قضاء الحاجة أو سرعته كما لا يخفى .

ووجه ثالث : إن طلب تعجيل الفرج لما كان أهم المطالب وأكبر المقاصد إذ بالفرج يفرج عن كل مؤمن كل شدة ويكشف كل كرب ويوسع عامة الضيق كان تقديمه أهم وأولى من حاجته التي هي جزء من تلك الشدائد وبعض من جملة الكرب والمحن ، وفي التقديم تعليم للمؤمنين أن لا يتركوا هذا الأمر المهم في دعواتهم وحوائجهم ولا يرون في أعينهم ولا في نفوسهم حاجة ولا أمراً أكبر ولا أهم من هذه المسألة ، كما أنه يستفاد من بعض الأخبار أن لا عبادة ولا طاعة أفضل من انتظار الفرج وترصد ظهور دولة الحق وترقب علو كلمة الله تعالى ، فافهم .

هـذا بعـض مـا سنـح بـالبـال عجـالـة فـي هـذا البـاب ، ولكلامهم (سلام الله عليهم) مزايا وأسرار لا تحيط بها عقولنا وأنى للعقل الجزئي وعقل الرعية أن يحيط علماً بأسرار ما صدر من عقل الكل وسلطان الدنيا والآخرة من الكلام ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على ساداتنا الأئمة محمد وآله الطاهرين . قد فرغ من تسويدها العبد الفـانـي الأحقـر علـي بـن مـوسـى الحـائـري فـي كـربـلاء المشـرّفـة فـي الخامس عشر من شهر الربيع الثاني من شهور السنة الثامنة والخمسين بعد الألف والثلاثمائة من الهجرة النبوية .

الرسالة السابعة

أجوبة على أسئلة عبد المحسن القطان

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه ومظهر لطفه محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين ، وبعد ، فهذه سؤالات خمسة وردت من بندر البحرين والسائل بحسن ظنّه يريد جوابها مني بلسان عامي وبيان سهل بسيط ، فأجبته بما هو الميسور لأنه لا يسقط بالمعسور ، وعلى الله التوكل في جميع الأمور .

قال (سلّمه الله تعالى) :

السؤال الأول : قوله تعالى : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . .** ﴾[1] الخ ، ما شرح هذه الآية وهو العليم بموته ؟؟

الجواب أولاً : إنه تعالى وإن كان يعلم أن ارتحاله (صلى الله عليه وآله) إلى الآخرة ولقائه ربه بأحد الأمرين إما موت أو قتل ، لكن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤ .

مع ذلك فإن الأمر بيده تعالى له التغيير إلى أحد الأمرين ، لا يتحتم عليه شيء أبداً ، إن كان يعلم أنه يموت فله أن يغير ذلك ويجعله قتلاً ، وإن علم أنه مقتول فله أن يغيره ويجعله موتاً ، حيث أن له البداء في كل شيء . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين** ﴾[1] أي أن العاقبة مجهولة الأمر بيده تبارك وتعالى ، وهذا نوع تأدب من النبي (صلى الله عليه وآله) وعبودية ، فلذا قال مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) : « لولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وبما يكون إلى يوم القيامة »[2] والآية هي قوله تعالى : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾[3] .

وثانياً : أنه لا يبعد أن يكون الترديد في الآية الشريفة بحسب ظاهر ما يرى عند الناس أنه مات وبحسب نفس الأمر أنه مقتول بما سمته اليهودية الخيبرية في ذراع شاة ، فيكون معنى الآية الشريفة « والعلم عند الله وأوليائه » أنه أفإن مات كما هو في الظاهر أو قتل كما هو في الباطن والواقع ، فالترديد بحسب الظاهر والواقع لا في علمه تعالى ، وفي تأويل هذه الآية الشريفة وباطنها أمور ومطالب لا داعي لذكرها ، والطي عنها في هذا العصر الظلماني أولى وأجدر .

السؤال الثاني :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[4] ما هذه العبادة ؟

---

(١) سورة نبأ، الآية ٢٤.
(٢) البحار: ج٤ ص٩٧ باب٣ ح٤.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وهل تنحصر فوائدها في فوائد أخروية فقط أو دنيوية وأخروية ؟

الجواب : إن العبادة هي غاية الخضوع والتذلل ، يقال عبده ، أي خضع له وتذلل إليه ، وأيضاً يأتي بمعنى القصد والتوجه ، كما قال الإمام (عليه السلام) : « من أصغى إلى ناطق فقد عبده ، فإن كان ينطق عن الله فقد عبد الله وإن كان ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان »[1] وحيث أن الخضوع والتذلل أو القصد والتوجه لا يكون إلى مجهول فلا بد من معرفة من يخضع له أو يقصده ويتوجه إليه ولو معرفة إجمالية ، فلذا فسّر قوله تعالى : ﴿ ليعبدون ﴾[2] إلى معنى ليعرفوني ، فكأنه تعالى قال : ما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني ، فإذا عرفوه عبدوه ، لأن العبادة فرع المعرفة ولا تتأتى إلا بعد المعرفة ، وجعلت العبادة لأجل استعداد المحل وتأهله لإفاضة العطية والإحسان إليه ، فمن عبد وأطاع أقبل على الله وتقرّب إليه ، ومنْ أقبل ودنا صار أهلاً للكرم والفضل ، بخلاف من أدبر وتولى فإنه معرض عن طلب الخير ، ومن أعرض لا يستحق الإحسان ، والإحسان إليه سفه وتضييع وهو خلاف الحكمة ، ولا يصدر من الحكيم ، لأن الحكيم من وضع الشيء في موضعه وإلا فليس بحكيم .

فالعبادة وضعت لأجل تزكية العابد وتعلية مقامه ورتبته وتأهيله لإفاضة الفيض عليه وقبوله ، وإلا فهو تعالى غني عن عبادة أي عابد ، وليس أمره تعالى بالعبادة وطلبها من العبد لأجل احتياجه إليها أو لجلب النفع ولا لدفع الضرر ، حاشا ربنا عن ذلك وكلا ! بل ليفيض فيضه

---

(١) البحار : ج٦٩ ص٢٦٤ باب١١٥ ح١ .

(٢) سورة الذاريات، الآية : ٥٦ .

على من أقبل إليه وقصده ، وليتبين المقبل من المدبر ويمتاز المطيع عن العاصي والخاضع الخاشع عن المتكبر العاتي ، ويعرف كل مقامه من القرب والبعد ومكانته من السعادة والشقاوة ومحله من الكرامة والمهانة ، ويعلم مقدار استحقاقه من الجزاء ثواباً أو عقاباً ، ولا يكون له أو لغيره سبيل لأي اعتراض إذا أعطى كل ذي حق حقه وأحله في الدار العقبى مرتبته في منازل المقربين أو دركات الهالكين ولا يقول لم وضعتني في هذه المنزلة وأسكنت فلاناً أو صاحبي تلك الدرجة ؟ ولم أدخلت فلاناً الجنة وخلَّدتني في النار ؟ وذلك لانكشاف حاله ومقامه لنفسه ولغيره وعرفان كل استحقاقه وجزاه فيكل لسانه عن كل اعتراض وينقطع عن قول « لم أو كيف وبم » .

وأما فوائد العبادة فليست منحصرة في الآخرة ، بل أغلبها إما دنيوية محضة أو دنيوية وأخروية ، وأما الأخروي الصرفة فنادرة جداً ، والغالب في نفعها الدنيوي إما راجع إلى نفسه أو إلى أهله وبيئته أو إلى أهل بلده ومحلته أو مع أبناء جنسه ونوعه ، وغالب النظافات والأغسال والوضوءات نفعها دنيوي ، وإن كان من حيث الإطاعة والامتثال يحصل منها الثواب الأخروي أيضاً ، والصلاة مثلاً وإن كان ثوابها الأخروي عظيماً ونفعها في القبر والبرزخ جسيماً لكنها في الدنيا فوائدها عظيمة من رياضة البدن وتهذيب الأخلاق والنهي عن الفحشاء والمنكر وتنوير الوجه والقلب وتوجيهها العبد إلى مبدئه وخالقه ومنعمه الذي هو مبدأ كل خير دنيوي وأخروي ، والصوم وإن كان جنة من النار وقال الله تعالى : « الصوم لي وأنا أجزي به »[1] لكن فيه إصلاح للمعدة

(١) البحار: ج٩٣ ص٢٥٥ ح٣١.

والأحشاء ودفع لكثير من الأمراض الباطنية وجلب للصحة الكاملة ، قال النبي (صلى الله عليه وآله) : « صوموا تصحّوا »[1] مضافاً إلى كثير من فوائده المعنوية التي ليس هنا محل ذكرها ، والزكاة وإن كان ثوابها لا يعد وفيها نقص من المال ظاهراً ، لكنها في الدنيا تطفىء غضب الرب وسبب لنماء المال وحفظ له من الحرق والسرق الغرق ، كما أخبروا به (عليهم السلام) وجرب دائماً ، وفي إخراجها نفع للشعب وصلة للأرحام وجلب لقلوب الفقراء ودفع لحسدهم وطمعهم في مال المرء المزكي وعلو قدر وجاه ومنزلة عند أهل مصره وطارفته إلى غير ذلك من المصالح والمنافع الدنيوية ، وكذلك الحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها التي منافعها الدنيوية أكثر من الأخروية ، بل الشرع النبوي من فرائضه وسننه الجزئي والكلي كلها إذا دققنا النظر فيها رأينا أن فوائدها الدنيوية هي المهمة العظمى والجلية النجلاء وهي الأصل والعمدة غالباً ، والفوائد الأخروية فرع لها ومعطوفة عليها حتى حرمة الغيبة والنميمة وحرمة القمار والخمر وحتى الحدود والديات والقصاص كلها لحفظ نظام الدنيا وراحة البشر وحسن العشرة وكمالها ودفع الأمراض والأسقام الدنيوية ، وليس لي فرصة وسعة في الوقت للتفصيل والشرح وبيان الفوائد لكل واحد منها من الواجبات والمندوبات والمضرات الدنيوية للمحرمات والمكروهات ، ويوجد بيان بعض الأسرار والفوائد الدنيوية في خطبة رضيعة الوحي بضعة النبي سيدة نساء العالمين التي هي تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق ، قالت (سلام الله عليها) : « فجعل الإيمان تطهيراً لكم من

---

(١) البحار : ج٩٣ ص٢٥٥ ح٣٣ .

الشرك والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر والزكاة تزكية النفس ونماءً في الرزق والصيام تثبيتاً للإخلاص والحج تشييداً للدين والعدل تنظيفاً للقلوب وطاعتنا نظاماً للملة وإمامتنا أماناً من الفرقة »[1] إلى آخر ما نطقت الناطقة عن الله المفرغة عن لسان رسوله . وتجد أيضاً من البيان في وصية سيد المُوحدين ليلة وداعه الدنيا في قوله (عليه السلام) : « الله الله في الزكاة فإنها تطفىء غضب ربكم » إلى أن قال : « ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الله أمركم أشراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم »[2] .

وفي كثير من الأخبار من بيان جملة من الأسرار ما لا يخفى على من جاس خلال الديار ، لكن الإحاطة بأسرار جميعها ، كليها وجزئيها ، لا توجد إلا عند شارعها وحاملها المعصومين (عليهم السلام) أو من علموه وألهموه ببركة القرب منهم والإطاعة لهم والإنقطاع إليهم والمتابعة لأقوالهم وأفعالهم ووضع القدم موضع أقدامهم ، كسلمان ومن ضاهى سلمان من حملة الأسرار والمستنير قلوبهم بمقابلة أولئك الأنوار ، وإلا فكثير منها وإن عرف سر كليها أو أصلها لكن سر بعض خصوصيتها مخفي أو مجهول .

مثلاً سر أصل وضع الجريدتين الخضراوين مع الميت مبين في الأخبار بأنهما ما دامتا خضراوين طريتين فإن الله لا يعذب مصحوبهما الميت ، وبعد اليبس والجفاف الله أكرم من أن يعذبه ، لكن كيفية الوضع بجعل إحداهما في الجانب الأيمن لاصقة بجلد الميت وبدنه من

---

(١) انظر نهج البلاغة : قصار الحكم٢٥٢ .

(٢) انظر نهج البلاغة : كتاب ٤٧ .

ترقوته إلى حيث بلغت والأخرى في الجانب الأيسر بين القميص والإزار من ترقوته إلى حيث بلغت على ما هو المقرر في الشرع ، فسرها مخفي أو مجهول ، وكذا أصل تقليم الأظافر سره واضح ، وكذا سر تقديم اليمنى على اليسرى أيضاً واضح ، وأما كيفية التقليم بالترتيب المقرر بأن يبتدأ بالخنصر اليمنى ثم يختم بالخنصر اليسرى أو بالعكس أو كما في الشعر المنسوب إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) :

قلم أظافرك بيمن وأدب تمنى ويسرى خوابس أو خسب

فمخفي سرها أو مجهول إلا لواضعها وشارعها ولمن ألهموه وعلموه ، وأمثال ذلك كثيرة في الواجبات والمستحبات بالأخص مناسك الحج ، مما سر أصل تشريعه واضح غالباً أو مبين ، لكن دقائق جزئياته غير معلومة ، نوّر الله قلوبنا لمعرفتها وشرح صدورنا لكشفها وتبصرتها بمحمد وآله الطاهرين الذين عندهم أسرارها وحقيقتها .

السؤال الثالث :

ما شرح هذه الآية الكريمة: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. . .﴾**(1) الخ، سيدي حسب ما يظهر أن هذه الآية نزلت في النبي محمد (صلى الله عليه وآله)؟

الجواب :

أقول نعم إن الخطاب في هذه الآية لنبينا محمد (صلى الله عليه وآله) وظاهرها يثبت الذنب مقدماً ومؤخراً ، لكن قد تقرر في ضرورة المذهب بأن الأنبياء معصومون عن كل ذنب كبير أو صغير وعن أي خطأ

---

(1) سورة الفتح، الآية: ١.

وسهو ونسيان ، لأن صدور الذنب لا يكون إلا عن إغواء إبليس وتسلط النفس الأمّارة والإدبار عن الله تعالى ، وكل نبي أجل من ذلك وأكرم .

وثانياً : إن الذنب إن صدر من أي أحد نفرت منه النفوس واشمأزت ، والنبي ينبغي أن لا يصدر منه ما ينفر البشر ، بل ينبغي أن يكون كل أفعاله وأحواله وأقواله جالبة للنفوس وجاذبة للخلق .

وثالثاً : لو صدر ذنب عن النبي وصار لإبليس لعنه الله سبيل إليه وللهوى مسرح فيه انسلب الوثوق والاطمئنان عنه ، فإن أخبر عن الله تعالى بوحي أو حكم فلا يصدق لأنه وقتئذ يساء الظن في حقّه ، أنه هل هو وحي أو إغواء ؟ وهل هو حق أو ينطق عن الهوى ؟ بخلاف ما إذا كان من أول نشوئه معصوماً عن الذنب غير مقترف بشيء من الأهواء ، فإن النفوس تطمئن إليه وتسكن ألبتة ، ويوثق بأخباره عن الله تعالى ووحيه بلا مرية .

ورابعاً : إن العقل يحكم بأن رسول الكامل القدر ينبغي أن يكون كاملاً ، لأن الرسول يمثل صفات مرسله وكماله يدل على كمال مرسله ، والذنب نقص قطعاً ، وأي نقص أعظم من عصيان مولاه ومنعمه وخالقه ، فرسول الكامل لا ينبغي أن يتصف إلا بالكمال وعدم النقص وبالسلامة عن كل عيب ، وإلا ما مثل مرسله .

وخامساً : إن الرسول حجة على من أرسل إليهم ، والحجة لا يكون إلا أن يجمع صفات الكمال ، وإلا لطال لسان المحجوجين على المرسل ، يقولون لِمَ أرسلت لنا حجّة ناقصة وأنت قادر على أن تبعث حجّة كاملة ، فلا تكون حجّته بالغة ، وقد قال تعالى : ﴿ **فللّه الحجة**

البالغة ﴾[1] والمذنب غير كامل قطعاً ، فلا يكون حجة فلا يكون رسولاً ، فثبت أن النبي يجب في الحكمة أن يكون منزهاً عن كل ذنب وعيب ومقدساً عن أي خطأ وعصيان .

فما يرى في بعض الآيات والأخبار من نسبة الذنب والعصيان إلى بعض الأنبياء فلا بد أن يحمل على معنى صحيح ، كقوله تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[2] وقوله : ﴿ **فنسي ولم نجد له عزماً** ﴾[3] وغير ذلك ، فيحمل أمثال ذلك على ترك الأولى لا على فعل الحرام أو فعل المكروه ولا على ترك الواجب أو ترك المستحب ، لأنهم أجل وأكرم من ذلك وحاشاهم ثم حاشاهم .

ومعنى ترك الأولى أن الأمر ما كان واجباً عليه ولا مستحباً ولا حراماً ولا مكروهاً ، بل كان الأولى والأجدر في حقه أن يتركه وما تركه ، بل أتى به وفعله ، لا لشهوة نفسه وداعي هواه ، بل لداعي التقرّب والمحبة . مثاله : إذا قال المولى لعبده المفرط في حب مولاه : « يا عبدي لا أمنعك من الدخول عليّ والزيارة في كل يوم وليلة ولكن الأولى والأحسن لك ولمقامك أن تزورني في الأسبوع مرة أو مرتين ، زرني غباً تزدد حباً » وهذا العبد من فرط مودته ما تمالك بل جعل يزوره أكثر مما حدده المولى له ، فهذا التجاوز عن تحديد المولى والزيادة في الزيارة ما يعد عصياناً ، لأنه لم يكن منهياً عنه ولا مكروهاً لدى المولى ، ولم يصدر من العبد بداعي الهوى والشهوة أو داعي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩ .

(٢) سورة طه، الآية: ١٢١ .

(٣) سورة طه، الآية: ١١٥ .

العصيان وعدم المبالاة ، وإنما صدر لتوق نفسه وضعف ملكته ، وهو خلاف الأولى له وخلاف التسليم والتحمل وخلاف الانقياد لتحديد المولى .

فهذا الإعراض عمّا هو الأولى وارتكاب ترك الأولى وإن كان لا يعد بالنسبة إلى سائر الناس وأوساطهم عصياناً ، بل يعد حسنة وعملاً صالحاً لأنه صدر عن فرط الاشتياق والمودة ، لكنه بالنسبة إلى المقربين والحواريين يعد عصياناً وذنباً ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين والتجاوز عن تحديد المولى خلاف التسليم عندهم ويعدونه ذنباً ومعصية .

ومعنى « حسنات الأبرار سيئات المقربين » إجمالاً أن الحسنة التي يأتي بها سائر الخلق عند المقربين تكون سيئة لقصورها عندهم عمّا يتأتى منهم ، مثلاً هذه الصلاة التي يصليها أوساط الخلق غير الأنبياء والأولياء إذا قيست إلى صلاة الأنبياء والمكملين تعد سيئة ، لأن صلاة الأنبياء كاملة ومستوفية لأنحاء الكمال والخلوص عن الشوائب التي تحط قدر العبادة بحسب علمهم وقربهم من بارئهم مما لا توجد في صلاة سائر الناس ، وإن كانت حاوية لشرائط الصحة وصلاتهم في جنب صلاة أولئك المقربين طفيفة قاصرة ، والمقربين يجلون أنفسهم وعبادتهم عن مثل تلك العبادة ، بل يرونها سيئة لا حسنة ، وهذا حال كل ناقص بالنسبة إلى الكامل وكل سافل بالقياس إلى العالي لفقد عبادة السافل وقصورها عما يوجد وتحتوي عليه عبادة العالي من أنحاء مراتب الكمال من النية الخالصة وخلوص العمل والتوجه والإقبال واندكاك الآنية وتلاشي الوجود لتجلي نور المعبود ، وهكذا حال باقي العبادات

والأعمال من الصيام والحج والجهاد وغيرها مما تتأتى من العالي على نحو لا تتأتى ممن دونه ، وعمل من هو دونه عنده وبالنسبة إلى عمله سراب ليس محسوباً بعمل لو لم يكن سيئة .

قال إمامنا الحسين (عليه السلام) : « إلهي من كانت محاسنه مساوىء فكيف لا تكون مساوئه مساوىء ؟ ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي ؟»[1] هذا معنى حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وكما أن حسنات سائر الخلق الأبرار بالنسبة إلى الأنبياء تكون سيئات لما ذكر فكذلك حسنات الأنبياء (عليهم السلام) ستكون كذلك قياساً إلى من فوقهم في الرتبة والوجود ، وهم محمد وآله الطاهرون (عليهم السلام) ، لعبقة أنوارهم على جميع المخلوقات والعوالم وكونهم علل الوجود والأكوان والخلق حتى الأنبياء (عليهم السلام) مخلوقون من أنوارهم وأشعتها ، فكما لا يساويهم أحد في المقام والرتبة وكل الخلق تنحط عنهم وعن مقامهم كذلك لا يساوي عملهم ولا يبلغ درجته عمل جميع البرايا من كل الطبقات ، ومن هنا قال أشرف الخلق وقال الصادق (عليه السلام) أيضاً : « ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين »[2] فالأنبياء منزّهون عن كل ذنب ومقامهم أجلّ وأكرم من فعل الحرام بل وفعل المكروه واجباً .

نعم قد يصدر منهم ترك الأولى ، فإن الله تعالى ما حرم على آدم أبي البشر الأكل من الشجرة ولا حتم عليه ترك الأكل منها ، ولكن

---

(١) مفاتيح الجنان : ص٥٢١ دعاء الامام الحسين في يوم عرفة .

(٢) البحار : ج٣٩ ص٢ باب٧٠ ح١ .

يجعل الأولى له والأجدر تركها والبعد عنها ، وهو ما أكل منها عصياناً وإعراضاً عن أمر المولى ، بل أكل طمعاً في الخلود في الجنة حيث قاسمهما إبليس ولم يعهد في زمانه القسم كذباً وزوراً ، فلما دنا من الشجرة وتناول منها عد ذلك منه (عليه السلام) عصياناً ونسياناً وفقداً للعزم ، لأنه من الأنبياء المقربين ، والمطلوب منهم العزم على ما هو الأولى وعدم تركه ، قال تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[1] وقال : ﴿ **فنسي ولم نجد له عزماً** ﴾[2] هذا حال سائر الأنبياء .

وأما نبينا خاتم النبيين وأوصياؤه الطاهرون (سلام الله عليهم أجمعين) فلا يصدر منهم حتى ترك الأولى ، ولا يفعلون إلا ما هو الأولى وحالاتهم وتقلباتهم كلها فيما هو الأولى ومن الأولى إلى الأولى ومن الأكمل إلى الأكمل ، ولا يوجد عندهم مباح فضلاً عن المكروه ، لأن كل ما ينبغي فعله وهو راجح ولو رجحاناً جزئياً فهو واجب عندهم ويأتون به ولا يعدون عنه ، وكل ما لا ينبغي فعله وهو مرجوح فلا يقربون منه ، فكأن الأحكام بالنسبة لهم (عليهم السلام) السلام واجب وحرام لا ثالث لهما ولا ثالث غيرهما ، وما هو مباح في نظرنا لا يخلو من رجحان في الفعل أو الترك واقعاً أو بحسب خصوصيات الوقت والمكان والمزاج فيفعلون ما هو راجح البتة ، وقد يرتكبون ما هو المكروه كأكل الجبن مثلاً لدفع شبهة الحرمة ، فيكون راجحاً بل واجباً شرعاً لا مكروهاً .

والحاصل أن جميع أفعالهم وأعمالهم (عليهم السلام) في

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢١ .

(٢) سورة طه، الآية: ١١٥ .

رضى الله تعالى ومحبة الله تعالى ، ولا يصدر منهم سوى ذلك أبداً ، وهو تعالى لا يجدهم فيما يكره ولا يفقدهم فيما يحب ، وهم المعنيون في تأويل الآية الشريفة وتفسيرها : ﴿ **ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[1] فهم الذين عنده ولا يفترون عن عبادته ، كما ورد عن صادقهم (عليهم السلام) ، فكيف يصدر عنهم خلاف الأولى ؟

وأيضاً إن الذنب إدبار ورجس معنوي وقد طهرهم الله تعالى في آية التطهير عن كل رجس ودنس ظاهري ومعنوي ، لأن الآية في مقام المنة والفضل ، وإنما يناسب المنة إذهاب عامة الرجس لا بعضه ، مضافاً إلى أن كلمة الرجس في الآية محلى بلام الجنس ، وليس هناك رجس معهود ذكراً أو ذهناً لينصرف إليه ، فالحق أن اللام للجنس والله تعالى أذهب عنهم (عليهم السلام) كل رجس ودنس ظاهري أو معنوي ذاتي أو عرضي وطهرهم تطهيراً .

وأيضاً فقد قال الله تعالى في حق سيدهم : ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾[2] فمن كان لا يتلفظ ولا ينطق عن الهوى كيف يفعل عن الهوى ويصدر منه الذنب أو ترك الأولى ؟ والفعل لا شك أنه أشد وأقوى من اللفظ والنطق وهما أضعف وأهون من الفعل ، لأن اللفظ قد يخرج لا عن عمد وقصد ، والفعل لا يصدر إلا عن قصد وعمد ، فالنطق الضعيف إذا لم يصدر عن الهوى كما شهد به خالقه تعالى فالفعل

(١) سورة الأنبياء، الآيتين: ١٩ ـ ٢٠.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣.

القوي بالطريق الأولى لا يصدر عن الهوى . وإذ تبين لك أن نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) منزه ومقدّس عن ترك الأولى فضلاً عن الاقتراف للذنب ، وبارؤه تعالى قد شهد له أنه لا ينطق عن الهوى تنبيهاً منه تعالى أنه (صلى الله عليه وآله) لا يفعل عن الهوى أيضاً بالطريق الأولى .

فمثل هذه الآية الشريفة ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[1] لا بد له من محمل صحيح ومعنى مستقيم ، وهو إما قشري ظاهري أو معنوي باطني .

فالأول إنه (صلى الله عليه وآله) لما دعا مشركي مكة إلى التوحيد وهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً لم يكن عندهم أعظم ذنباً من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فلما هاجر وكان يدعوهم أيضاً إلى كلمة الإخلاص عدوه ذنباً أيضاً ، ولما فتح مكة بغير قتل لهم ولا استئصال ولا آخذهم بما قدموه من العداوة والقتال غفروا ما كانوا يعتقدونه ذنباً له عندهم متقدماً على الهجرة ومتأخراً ، فحكى الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ **ما تقدم من ذنبك** ﴾ عندهم على الهجرة ﴿ **وما تأخر** ﴾ أو ما تقدم على الفح وما تأخر ، هذا تفسير ظاهري قشري .

وأما الثاني وهو التفسير الباطني ، فهو ما عن الصادق (عليه السلام) ، كما في (المجمع) و (القمي) أنه لما سئل عن هذه الآية قال (عليه السلام) : « ما كان له ذنب ولا هم بذنب

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

ولكن الله تعالى حمله ذنوب شيعته ثم غفرها له »[١] ، وما عن الرضا (عليه السلام) لما سأله المأمون عن هذه الآية قال : « والله ما أذنب ولا هم بذنب ولكن الله حمله ذنوب أمته فغفرها له »[٢] (انتهى) .

اعلم أن وجه تحميل ذنوب الشيعة أو الأمة على النبي (صلى الله عليه وآله) مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى هو أن الله تعالى لما خلق الشيعة أو الأمة ، أي أمة الإجابة لا أمة الدعوة ، من شعاع محمد وآله (عليهم السلام) ، كما هو منطوق كثير من الروايات المعتبرة كان للشيعة شدة اتصال بهم وارتباط ، كما لشعاع الشمس شدة الاتصال بالشمس بحيث إذا غابت تبعها الشعاع ، ويطلق عليه اسم الشمس ، وهو شعاعها ، فلذا قالوا (عليهم السلام) : « شيعتنا منّا خلقوا من طينتنا وعجنوا بماء ولايتنا »[٣] فمن شدة الاتصال بهم وأنهم منهم (عليهم السلام) تحزن الشيعة لحزنهم وتفرح لفرحهم ، كما أنهم (عليهم السلام) يحزنون بحزن شيعتهم ويفرحون بفرحهم ، وقالوا : « سلمان منّا أهل البيت »[٤] ، وقال تعالى : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾[٥] فلذا عبر في الأخبار عن الشيعة بورق الشجرة ، والأئمة (عليهم السلام) هم الشجرة والأغصان ، والشيعة هم الورق ، فمن هذا الالتصاق القوي والارتباط الشديد حمل الله تعالى

---

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٥٢.
(٢) انظر: عيون الأخبار: ج١ ص١٨٠ باب١٥ (بالمعنى).
(٣) أمالي الشيخ: ص٣٠٥ (بالمعنى).
(٤) الاختصاص: ص٣٤١ باب وصايا لقمان الحكيم لابنه.
(٥) سورة ابراهيم، الآية: ٣٦.

على النبي ذنوب شيعته ، وكان ذنوب شيعته كأنها ذنبه ، كما أن من أهان عبدك فكأنما أهانك ، تقول فلان أهانني مع أنه ما أهان إلا عبدك أو أحداً ممن ينتسب إليك ، ومن أكرم عبدك أو أحداً ممن انتسب إليك ، فكأنما أكرمك ، تقول فلان أكرمني مع أنه ما أكرم إلا من انتسب إليك . فصار إهانة العبد إهانتك وإكرامه إكرامك ، لشدة ارتباطه بك وقربه منك ، وإن جنى عبدك على أحد آخذوك وعاتبوك عل جنايته وحملوا جنايته عليك وطالبوك على ديته وجنايته ، فكأنك أنت الجاني .

ومثله ما إذا تنجس ثوبك تقول تنجست أنا أو أصابني نجس ، والحال ما تنجس بدنك ولا أعضاؤك ، بل إنما تنجس ثوبك فتنسب النجاسة إلى نفسك ، لشدة التصاق الثوب بك ، فصار كأنه منك ما عرضه عرضك وما أصابه أصابك .

وهكذا الشيعة بالنسبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) لشدة انتسابهم إليه وارتباطهم به حملت ذنوبهم عليه ، فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ **ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر** ﴾[1] ما تقدم من الذنوب المنسوبة إليك والمحملة عليك وما تأخر منها ، فافهم وتبصّر واغتنم ، واعلم أني أتكلم معك بخطاب بسيط وكلام عامي كي يسهل عليك اقتناص المطلب ، وما أحب تغليظ العبارة وتعقيدها ولا أداء المطلب باللسان العلمي ولا بالاصطلاح الحكمي لئلا يصعب عليك دركه واقتناصه ، وإن أحببت أن تقف على حقيقة الأمر ببيان علمي حكمي فعليك بكتاب (صحيفة الأبرار) للمولى حجة الإسلام المامقاني

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

التبريزي (أعلى الله مقامه) في الصفحة (١٨٧) منه ، لله دره ، فقد أتى ببيان رائق وتحقيق فائق يشفي الصدور ويشرق في القلوب النور ، جزاه الله عن آل محمد خير الجزاء .

وأما معنى تقدم الذنب وتأخره على هذا التفسير ، فهو أن نبوة نبينا (صلى الله عليه وآله) عامة لجميع العالمين كما هو صريح قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾[١] على طبق قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾[٢] فكما أن الله رب العالمين فكذلك النبي رسول العالمين من غير أن يختص نبوّته بعالم دون عالم أو زمان دون زمان ، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله) : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[٣] أي كان نبياً قبل أن يخلق آدم أبو البشر ، فالعوالم كلها وأهل الدنيا كلهم من الأولين والآخرين تكون أمة له (صلى الله عليه وآله) ، وجميع الأنبياء كانوا يبشرون أممهم بنبوته ورسالته ، فهو نبي على جميع الأمم ممن تقدم عليه أو تأخر ، والكل أمته من غير استثناء ، فالمطيعون منهم لأنبيائهم يكونون أمة الإجابة والعصاة منهم أمة الدعوة والإنكار ، فأمة الإجابة هي الأمة حقيقة المضافة إلى أنبيائهم وهم الشيعة لهم .

وأما أمة الإنكار فلا تنسب إلى الأنبياء ولا علاقة بينهم وليسوا لهم بشيعة ولا أمة ، وإنما هم حقيقة أمة الطاغوت وشيعة له لاتباعهم إياه ، فالأمم الماضون المتمسكون بحبل أنبيائهم والآخذون بحجزتهم والأمم

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٣) انظر كنز العمال: ج١١ ص٤٥٠ ح٣٢١١٥ ـ ٣٢١١٧.

اللاحقون كلهم محسوبون على نبينا (صلى الله عليه وآله) وداخلون في التابعين له ، فيكونون أمة وشيعة له .

فلا بدع أن تحمل (صلى الله عليه وآله) ذنوبهم وغفرها الله تعالى له وهو شفيع الأولين منهم والآخرين ، فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[1] ليغفر الله لك الذنوب المنسوبة إليك المحملة عليك من الأمم المتقدمة ، وما تأخر أي من ذنوب الأمم المتأخرة ، فافهم معنى الآية ولا تكن من الغافلين الجامدين أو من الجاهلين المعاندين ، وكن من المسلمين المجاهدين ، وإن كان الخطاب لنبينا (صلى الله عليه وآله) ، لكن الذنب من غيره والمغفرة لأجله ، فسيد الرسل وأخوه ونفسه أمير المؤمنين وابنته سيدة النساء وأولادهم الأحد عشر (عليهم السلام) كلهم منزّهون عن كل نقص وذنب حتى ترك الأولى وعن كل خطأ وسهو ونسيان وأي رجس ودنس « عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن وطهركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيراً »[2] فهم طاهرون مطهرون ومقدسون عن كل عيب ونقص مما ظهر وبطن وخفي وعلن ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله عليهم أجمعين .

السؤال الرابع :

يزعم بعض الأشخاص أن الأرض كروية وينتج من دورانها حول الشمس الفصول الأربعة والسنون ، أحق هذا القول أم باطل ؟

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٢) مفاتيح الجنان: الزيارة الجامعة الكبيرة ص١٠٠٩.

جوابه : إن الأرض لا إشكال أنها كروية ، بل عند الشيخ الأوحد الإحسائي (أعلى الله مقامه) كل شيء كروي لاستمداده من علته من جميع الجهات لا من جهة واحدة ، فيكون كل ما في الوجود كروياً ، يوجد تفصيل ذلك وتحقيقه في الفائدة الحادية عشرة من (شرح الفوائد) للشيخ الأوحد المذكور (أعلى الله مقامه) بما يبهر العقول والأحلام ، فلا نكثر الكلام .

ولا إشكال أيضاً ولا ريب أن الأرض أيضاً لها حركة ودوران ، كما في الأخبار ، ونص عليه القرآن في قوله : ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب** ﴾[1] كما لا شك أن الشمس أيضاً لها حركة وجريان ، قال تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[2] لكن الكلام في أن هذا الليل والنهار هل هما حادثان من حركة الأرض أو من جري الشمس ؟ بعبارة أخرى هل الأرض تدور حول الشمس أو أن الشمس تدور حول الأرض ؟ فيه خلاف بين أهل الهيئة القدماء وبين المتجددين المتأخرين ، فالقدماء يرون أن الليل والنهار حادثان من دوران الشمس حول الأرض والمتجددون يعتقدون أنهما حادثان من دوران الأرض حول الشمس ، ولكل من الجانبين أدلة تقريبية غير وافية لمدعاهم .

وحيث أن المسألة ليست بدينية وليس لها نتيجة عملية وإنما هي علمية خالية عن كل فائدة فلا داعي لتكثير الكلام وإيراد النقض والإبرام ، والعلم عند الله الخالق العلّام وأوليائه الطاهرين

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٨.

الكرام (سلام الله عليهم أجمعين) .

السؤال الخامس :

لماذا لا تكون أعمارنا كأعمار الأقدمين كشعيب مثلاً ؟

الجواب : اعلم أن الله تعالى حكيم ومن الحكمة أن يجري الأشياء بأسبابها كما قال الإمام (عليه السلام) : « أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها » فلطول العمر جعل دواعي وأسباباً ، كما أن لقصر العمر جعل دواعي وأسباباً ، فمن أسباب طول العمر قلة الفسق وعدم الظلم وقلة الفساد وقوة تركيب البدن وعدم غلبة أحد العناصر واعتدال المزاج ولطافة الهواء والغذاء وقلة الرطوبات وعدم تكثير الأكل والشرب والجماع وبساطة المأكول وعدم الأكل على الأكل وصلة الأرحام والصدقة على الفقراء وزيارة الحسين (عليه السلام) وإطاعة الآباء والأمهات وترضيتهم وعدم إيذائهم وتوقير الكبار والشيوخ والرحم للصغار والأيتام وغير ذلك مما يذكر في الأخبار ومما بين في الطب والحكمة ومن عدم الهم وقلّته والمشي ليلاً بسراج وتخفيف الرداء وتجديد الحذاء والتبكير في الغذاء وغير ذلك من المقتضيات لطول العمر والعلل والأسباب .

وأضداد هذه الأمور من أسباب قصر العمر كما بين في محله ، ومن أسبابه أيضاً استعمال الأشياء المحرمة سيما شرب الخمر واستعمال الحار والبارد بلا فاصلة في مجلس واحد والظلم سيما ظلم الفقراء والضعفاء وظلم الأيتام وغير ذلك مما لا تحصى كثرة من أسباب قصر العمر الجلية المجربة والمنصوصة ، فضلاً عن الأسباب الخفية ،

ولكثير من هذه الأسباب المذكورة لطول العمر وقصره أمثلة وشواهد مسطورة في بعض كتب التواريخ وحكايات وقصص جارية ومشهودة ومجربات حسية وجدانية ذكرها وتدوينها يؤدي إلى تأليف مجلد ضخم وإلى تضييع الوقت والتطويل بلا طائل .

ولا يخفى أن أهل سالف الزمان كانت أسباب طول العمر لهم متوفرة ، من قوة تركيب البدن واعتدال المزاج وبساطة المأكل وعدم تكثير الأكل والشرب وعدم الأكل على الأكل وقلة الهموم أو عدمها ، لعدم القيود عند أغلبهم في الملبس والمنكح والمراح والمغذى ، وعدم إهتمامهم في أمر البيوت والفرش والقنية والنخيل والخدم والحشم وغير ذلك ، فإن لكل قيد وعادة في فقدانها هم وانقباض ، وكلما كثرت القيود والعادات كثرت الهموم في نقصها أو فقدانها وعدم تهيّؤها ، والهم أعظم آفة لهدم البنية وبتر العمر . هذا بخلاف الزمان المتأخر بالأخص زماننا الذي نحن فيه ، فقد توفرت فيه دواعي قصر العمر ، والقيود قد تكاثرت فيه وتعدت عن الحد في كل جهة من الجهات ، مما عددناه وغيره ، وكثر الابتلاء ببعض العادات مما يضعف البدن كاستعمال التتن وأمثاله ، وتولع كثير من الناس ببعض المحرمات مما يبتر العمر كالخمر وبعض المسكرات . وبعض الموائد قد يجمع من كل حار وبارد وكل حلو وحامض ومركب وبسيط في المطاعم والمطبوخات مما يشق على المعدة الجمع بين مختلفاتها وشتاتها ويصعب عليها هضمها بالأخص إذا ملأها وحملها فوق طاقتها واستعدادها . ويتفق في بعض المجتمع أنفاس مضرة بل مسمومة ، تجلب الأمراض المهلكة إلى المزاج الضعيف المستعد لكسب المرض . وبعض الأمور الفسقية

تولد أمراضاً لم يكن لها وجود ولا ذكر في سالف الأزمنة ، وقد يؤثر في النسل والذرية إلى بطون وطبقات بحيث لو حفظ هذا النسل صحته بأية حيلة ووسيلة فلا بد من بروز مرض مورثه فيه على أي حال . مضافاً إلى حدوث قسم من الظلم الذي يعم شره حتى على الغافلين والعارين ، قال الله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1] مضافاً إلى أن تكاثر الفسق والفساد قد يورث مرضاً عاماً يعم البلد ، بل يسري ويعدو من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر ، كما في بعض الأخبار إن كثرة الزنا تولد الوباء وكثرة اللواط تولد مرض الطاعون أو بالعكس ، إلى غير ذلك مما يوجب الأمراض أو قصر العمر أو قصفه وبتره ، مما لم يكن له عين ولا أثر في الأزمنة المتقدمة ، أو كان له وجود ضعيف لا تأثير له ، وما لم نذكره من الأسباب أكثر مما ذكرناه ، كما أن ما خفي علينا من الدواعي أعظم مما ظهر لنا وعرفناه .

هذا غير الآفات الحادثة في هذا العصر ، كبعض الحروب التي تقضي على ألوف من الأعمار في أقل من ساعة وتفني ملايين النفوس في طرفة عين ، والله تعالى وأولياؤه الأطياب (عليهم السلام) أعلم بالدواعي والأسباب وبيده تأثير كل مؤثر ، وهو الذي أودع في الأشياء تأثير النفع أو الضرر ، وهو الذي جعل العلل عللاً والأسباب أسباباً والمؤثرات مؤثرات بحكمته ، ولو شاء لمنع ما أعطاها بقدرته ، كما منع تأثير نار نمرود في نبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا ألف صلاة وسلام وجعلها عليه برداً وسلاماً ، وكما منع قطع المدية لنحر إسماعيل (عليه السلام) حتى نطقت المدية « الخليل يأمرني والجليل

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

ينهاني ﴾ .

وبالجملة فدواعي طول العمر وأسباب قصره تأثيرها بأمر الله وبيده تعالى ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾[1] .

هذا كله مضافاً إلى تأثير اقترانات الكواكب والكرات العلوية في السفليات ، فاقتران يختص تأثيره بالآحاد والأشخاص ، واقتران يؤثر في بعض البلاد والأقطار دون غيرها واقتران يؤثر في أكثر البلاد والأقطار وأغلبها كما هو معلوم ومبين في علم الزيج والزائرجات وكتب النجوم ، فربما كان طول أعمار السالفين مستنداً إلى اقتران بعض الكواكب وهو مفقود في الأزمنة المتأخرة ، أو ربما فيها بعض من الاقتران يؤثر في قصر الأعمار ، والعلم عند الله وأوليائه الطاهرين (سلام الله عليهم أجمعين) .

هذا ما تيسر لنا إملاؤه بهذه العجالة والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب وعلى أهل بيته المطهرين الأطياب ، وأمنه الله على أعدائهم ومخالفيهم من الأقارب والأجناب .

قد فرغ من تحريره الأحقر الفاني علي بن موسى الحائري يوم الأربعاء الرابع من شهر الربيع الثاني من شهور سنة (١٣٧١) من الهجرة النبوية .

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١١.

الرسالة الثامنة

أجوبة على مسائل خمسة جاءت من عبد المحسن القطان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على خير خلقه ومظهر لطفه محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين المعصومين ، واللعن الدائم على أعدائهم ومخالفيهم وغاصبي حقوقهم أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد سألني زبدة الأعزة والخلّان المحروس عبد المحسن بن عبد الوهاب القطان الأحسائي (سلّمه الله تعالى) وأبقاه مسائل خمسة يريد مني جوابها ببيان بسيط ، فأجبته بما هو الميسور جاعلاً سؤاله كالمتن وجوابي له كالشرح وعلى الله تعالى توكّلي في كل الأمور .

قال (حفظه الله تعالى) :

الأول : ما هو القرآن؟ مخلوق هو أم قديم ؟

أقول : إن القديم له معان وإطلاقات عديدة .

أحدهما : القديم الذاتي ، وهو ما كان مستغنياً في ذاته عن كل شيء ، بمعنى أنه قائم لذاته بذاته في ذاته لا حاجة له في شيء إلى

شيء .

ثانيها : القديم السرمدي ، وهو ما كان سابقاً على عالم الدهر في عالم الإمكان وهو وقت المشيئة .

ثالثها : القديم الدهري ، وهو ما كان سابقاً على الزمان في عالم الجبروت والملكوت ، وهو وقت العقل والروح والنفس والطبيعة والمواد إلى المثال .

رابعها : القديم الزماني ، وهو ما كان سابقاً في سنين الزمان وأعوامه وأشهره وأيامه .

خامسها : القديم الشرعي ، وهو ما كان له ستة أشهر أو أكثر ، لقوله تعالى : ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾[1] والعرجون هو العذق يبقى إلى بعد الصرام ، ومدته ستة أشهر وقد أطلق عليه القديم في القرآن الكريم . وبإزاء هذه الإطلاقات إطلاق الحادث ، من حادث ذاتي وحادث ستة أشهر . وكل هذه الأقسام حادثة مخلوقة إلا القديم الذاتي فهو القديم سرمدي وحادث دهري وحادث زماني وحادث شرعي يطلق على أقل من الحقي الذي ليس بمخلوق ، وهو الله (عزَّ وجلَّ) الغني في ذاته عن كل شيء وجميع ما سواه حادث محتاج فقير إليه تبارك وتعالى . إذا عرفت ذلك فاعلم أن القرآن لا يكون قديماً ذاتياً أبداً ، لأنه مخلوق لله تعالى محتاج إليه خلقه الله تعالى وجعله آية ومعجزة لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) الذي هو مخلوق أيضاً مبعوث من قبله سبحانه إلى العالمين كافة بشيراً ونذيراً وسراجاً

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٩.

منيراً ، وكما أن صاحب الآية وهو نبينا (صلى الله عليه وآله) مخلوق حادث كذلك آيته وهو القرآن يكون مثله مخلوقاً حادثاً ولا يعقل أن يكون آية الحادث قديمة ، بل آية الحادث حادثة مثله ، هذا أولاً .

وأما ثانياً : فإن القرآن إما قصص وحكايات أو أمثال وطرائف أو أحكام وتعليم أخلاق وكل هذه معانيها حادثة في الزمان من أحوال آدم ونوح وإبراهيم وسائر الأنبياء وقوم عاد وهود وقوم تبع وأصحاب الكهف وأصحاب الرس وغير ذلك ، فكيف تكون قديمة وألفاظها تابعة لمعانيها ، فالمعاني حادثة مخلوقة ، وكذلك ألفاظها في الحدوث والمخلوقية .

وثالثاً : أنه لو كان القرآن قديماً كما ذهبت إليه الأشاعرة فهل هذا القرآن كان كامناً في ذات الله ثم ظهر أو كان خارج الذات ؟ فلو كان في ذات الله كامناً يلزمه أولاً أن يكون الذات ظرفاً للقرآن ومحلاً له والظرفية والمحلية من صفات الحدوث المنزه عنه القديم والأزل وهو صمد لا يكون ظرفاً أبداً .

وثانياً : لو صدر هذا القرآن من ذاته تعالى وخرج بعد ما كان كامناً فيه صار الذات إذن ولوداً حيث تولد منه القرآن لأن الخروج من الشيء تولد منه ، والله سبحانه أجل من ذلك وأقدس ، وهو لم يلد ولم يولد ، هذا لو كان القرآن كامناً في ذات الله ، وأما لو كان في خارج الذات فهل هو مصنوع لله تعالى أو غير مصنوع ؟ فإن كان مصنوعاً لله تعالى صار محتاجاً إلى الله تعالى حادثاً ، فلا يكون قديماً ذاتاً ، وإن كان غير مصنوع ولا محتاجاً فصار إلهاً مستقلاً غنياً ، وتعدد الإله القديم

الغني ، وقد نفته أدلة التوحيد ، فثبت أن القرآن لا يكون قديماً ذاتاً بل هو مخلوق مصنوع لله تعالى ، خلقه وجعله آية لأشرف خلقه .

ولما ثبت أنه مخلوق مصنوع لله تعالى فهل هو مخلوق في الزمان أو قبل الزمان ؟ والحق أنه مخلوق قبل الزمان قبل العرش والكرسي في عالم الدهر في أوله ، لقول النبي (صلى الله عليه وآله) : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[1] ولما كان نبياً فمعجزته وآيته القرآن لا تفارقه فهو معه مهما كان نبياً .

والأخبار الكثيرة بل المتواترة معنى ناطقة بأن الله خلق محمداً وآل محمد قبل خلق السموات والأرضين وقبل الكرسي والعرش ، والزمان حادث بحدوث السماوات ومساوق مع محدب العرش ، وقبله لا زمان ولا مكان ، والنبي (صلى الله عليه وآله) مخلوق قبل السماوات والعرش ، بل هي مخلوقة من نوره (صلى الله عليه وآله) ، وآيته القرآن كذلك يكون قبل الزمان فافهم .

إذا عرفت هذا فاعلم أن أول ما خلق الله تعالى هو القلم ، أي العقل الكلّي ، وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش الأعلى ، وهو المعبر عنه في الأخبار بحجاب النور ، وهو المصباح في آية النور ، وهذا المخلوق الأول افترق إلى أمرين ، لفظ ومعنى ، متساوقين كل منهما مبني على صاحبه فصار اللفظ قرآناً والمعنى عقلاً إلى أن نزلا إلى عالم الشهادة ، فصار العقل الكلي مسدداً للنبي (صلى الله عليه وآله) بكليته ، وبعده لأوصيائه

(١) انظر كنز العمال : ج١١ ص٤٥٠ ح٣٢١١٥ ـ ٣٢١١٧ .

الاثني عشر (عليهم السلام) ، وكان مسدداً للأنبياء السابقين (عليهم السلام) بوجه من وجوهه لا بكليته ، وصار القرآن معجزة له ، فالعقل حجة والقرآن حجة ، ومن هذه الجهة صار الإمام (عليه السلام) شريك القرآن ودليل أن القرآن هو العقل الكلي والعقل هو القرآن وكل منهما يطلق على الآخر ، قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا** . . . ﴾[1] الخ .

وحيث أنه من المسلّم الذي لا مرية فيه أن الروح من أمر الله هو العقل الكلي وهو الملك الأعظم الذي له الرئاسة المطلقة على جميع الملائكة من العالين والكروبيين ومن تحتهما من الملائكة ، وضمير جعلناه يعود إلى القرآن بلا إشكال ولم يتقدم له ذكر إلا هذا الروح فلولا أن الروح هو القرآن والقرآن قرينه ، ويطلق كل منهما على الآخر لما صح عود الضمير إليه ويكون المقصود منه القرآن وهذا من باب الاستخدام أم المقرر في علم البيان .

والعقل موقعه في أول عالم الجبروت ووقته الدهر الذي هو قبل الزمان ، فالقرآن مثله لأنه قرينه فهو مخلوق قبل الزمان في أول الدهر ، فافهم .

فعلى هذا إن قلت : إن القرآن قديم دهري ، أي موجود قبل الزمان أو حادث دهري أي مخلوق في عالم الدهر فلا بأس به لا أنه

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

قديم ذاتي ، ولهذه النكتة قدم الله سبحانه القرآن على الإنسان في سورة الرحمن ، قال عزّ من قائل : ﴿ الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان ﴾[1] فالقرآن مقدم وجوداً وخلقاً والإنسان من حيث هو إنسان لا يكون إلا بعقل وروح ونفس فهو متأخر عن القرآن طبعاً ووضعاً . وهنا مطالب جمة وأسرار كثيرة لا حظ للعوام فيها ، فلنطو عن ذكرها ، بالأخص مع كثرة مشاغلي وأنا على جناح السفر إلى زيارة المشاهد المقدسة ولثم أعتابها ، وفقنا الله لذلك وحقق آمالنا وظنوننا فيما هنالك ، إنه كريم منّان .

الثاني :

ما المانع من دخول الفتيان في المدرسة ؟

الجواب : الظاهر أن سؤاله عن دخول الفتيان في هذه المدارس الحديثة العصرية ، فنقول : لا يستريب ذو مسكة في منافع العلم ومضرات الجهل وأن العلم حياة والجهل موت وأن العلم سعادة ومنشأ كل خير ، والجهل خلافه وأصل كل شر ، ونحن مأمورون بكسب العلم من المهد إلى اللحد ، ولا يبلغ المرء إلى المراتب الراقية والمدارج الرفيعة إلا بالعلم لا بالجهل لكن يا عزيزي ويا حبيبي إن الطفل سريع التكسب وسريع الانفعال في العقيدة والأخلاق والأطوار والأحوال ، وكلام المعلم له نفوذ في أعماق المتعلمين وله تأثير عظيم في نفوسهم وأخلاقهم ، فإن كان المعلم متديناً ذا شرف ومروءة وصاحب أخلاق حسنة ومتجنباً عن الأعمال القبيحة والأمور الردية

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١ ـ ٣.

ساعياً في تربية الطفل مواظباً على دينه وعقيدته وأخلاقه حتى في أوقات العبادة يحثّه على الطاعة والعبادة من الصلاة والصيام وغيرهما ، ويبين له الحلال والحرام ومضرات الأعمال السيئة ويعلمه القرآن والفرائض والسنن وفوائد طاعة الوالدين وتقديرهما وتقدير حقوقهما وأنهما ربان صغيران ، ومفاسد عصيانهما وعقوقهما ، وهكذا ويعلمه سائر الأخلاف الرغبية الحسنة فمن يمنع عن مثل هذه المدرسة ومن يخدش فيها وفي حسنها ؟ بل الدخول فيها صلاح وإصلاح ودخول في نور وحياة وخروج من الظلمات ، وإن كان الأمر بالعكس كما هو الغالب المشهور فأي عاقل يرضى أن يتغير فطرة طفله ومهجة قلبه ويسلمه بيد أناس سيئين الأخلاق قبيحين الأعمال والأفعال ذوي الشهوات البهيمية والأنفس الضئيلة الدنيئة ، وقد ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾[1] أي عمن تأخذ العلم فإن كان المعلم صالحاً صلح المتعلم وإن كان طالحاً فسد المتعلم وطلح ، هذا في الفتيان .

وأما في الفتيات فالأمر أعظم والقيد أكثر والخطر أكبر .

الثالثة :

يوجد بعض الرسوم تباع في السوق يصور عليها رسم الحسين (عليه السلام) أو رسم الحسينية ؟

الجواب : أن الثابت من حرمة التصوير المسلم المتفق عليه هو تصوير ذوات الأرواح مجسمة بحيث يكون جسماً وصنماً ، وأما بمعنى

---

(١) سورة التكاثر، الآية: ٨.

النقش على القرطاس أو على الخشب أو غير ذلك سيما إن لم يكن النقش كاملاً بل كان ناقصاً بنقص يد أو جارحة أو غير ذلك فلا بأس ظاهراً في تصويره بيعه وشرائه ، والاحتياط حسن على أي حال ، والله العالم بأحكامه وأوليائه الأطهار الراسخون في العلم سلام الله عليهم أجمعين .

الرابعة :

يوجد عندنا بعض التشبيهات في المحرم يشبه بالحسين والعباس والأكبر (عليهم السلام) هل هو حلال أو حرام ؟

الجواب : أن التشبيه كله لا مانع منه ولا بأس به إن شاء الله تعالى ، بالأخص إذا كان لأجل تجسيم المصيبة وجلب الحزن وإجراء الدمعة ما لم يوجب تشبه الرجال بالنساء أو النساء بالرجال ، كأن يلبس الرجل لباس المرأة أو بالعكس ، فهذا حرام لا إشكال فيه قطعاً .

الخامسة :

ما هي الإرادة ؟ وممن تصدر ، من الله أو من العبد ؟

الجواب : إن الإرادة من العبد غير إرادة الله سبحانه ، فإن الإرادة من العبد هو ما يبدو له من الضمير بأن يذكر الشيء أولاً ثم يعزم عليه ويتحرك ويهيىء أسبابه فهذا العزم منه يسمى إرادة ، وأما إرادة الله تعالى فهو إحداثه لذلك الشيء لأن الله سبحانه لا يهم ولا يفكر ولا يضمر وكل هذه صفات المخلوق الجاهل العاجز فلا تجري على الخالق العليم القادر ، وأما هو (عزَّ وجلَّ) فأحداثه وإيجاده هو إرادته ، كما قال مولانا وإمامنا الرضا (عليه السلام) ليونس بن عبد الرحمن وقال

تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] فهذا مختصر المقال مع ضيق المجال وتبليل البال للحل والإرتحال والحمد لله رب العالمين وصلى الله على ساداتنا محمد وآله الطاهرين في الرابع والعشرين من شهر الجمادى الثانية كمل تحريره من سنة الألف والثلاثمائة والسبعين من الهجرة .

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

الرسالة التاسعة

مسائل مهمة في التفسير وغيره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها والصلاة والسلام على محمد وآله الحافظين للصلاة والصلاة الوسطى عن ضياعها ، سيما البحرين العميقين اللذين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ولعنة على أعدائهم ومخالفيهم أصول الكفر والعدوان وأسس الشرور والطغيان .

وبعد ، فقد أرسل إلى جناب الأكرم الفاضل الرشيد والخطيب السديد الألمعي الملا علي ابن الشيخ إبراهيم البصير الإسماعيل (سلّمه الله تعالى) وأبقاه من كل مكروه وحماه ووقاه ، مسائل مهمات لا بل شرح آيات محكمات يريد مني جوابها والإشارة إلى بعض نكاتها مع العلم أنه وفّقه الله تعالى لا يريد تفسير ظاهرها فقط والتنزيل بل يريد الإشارة إلى باطنها والتأويل ، فأتيت بما هو الميسور الذي لا يسقط بالمعسور وعلى الله وأوليائه التكلان في عامة الأمور .

قال وفّقه الله تعالى لمرضاته :

السؤال الأول :

ما معنى قوله تعالى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾[1] ؟

الجواب : هذه الآية الشريفة في سورة البقرة ، أمرنا بحفظ الصلوات الخمس بجميع أنواع الحفظ بمراعاة شرائط صحتها مما اعتبر فيها من الشروط والأجزاء تقليداً أو اجتهاد وبمراعاة أنحاء كمالها من حيث الظاهر كإيقاعها في مكان شريف وزمان فاضل ولباس نظيف . ومن حيث الباطن من حضور القلب واجتماع الحواس والتوجه إلى المعبود وفراغ البال وترك حديث النفس والخضوع والاستكانة والتذلل ومراعاة شروط المكالمة مع الرب الجليل من الصدق والوفاء والحياء ومراعاة مواقيتها وحفظ أوقات فضلها من حيث أن أولها جزور وآخرها عصفور ، وأن أولها رضوان الله وآخرها غفران الله أو عفو الله ، ولا غفران ولا عفو إلا عن ذنب ، وحفظ آدابها وكمالها من الواجبات والمستحبات والنوافل المتعلقة بها مما فصل في كتب الفقه ، فإن مراعاة جميع ذلك حفظ للصلاة ، وعدم المراعاة والتقصير في ذلك كله ولو في بعض جهاتها أو في بعض شروطها وآدابها فهو إضاعة للصلاة وعدم حفظ لها .

وأما الصلاة الوسطى فهي من باب ذكر الخاص بعد العام ، لأنها داخلة في عامة الصلاة ، وإنما خصها لأهميتها وشدة الاعتناء بها كما في قوله سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ **فاكهة ونخل**

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٣٨ .

ورمان﴾[1] فالنخل والرمان مع كونهما من الفاكهة خصصا بالذكر لامتيازهما من بين الفواكه بخواص ومزايا ، وفي تعيين الوسطى أقوال للعلماء الأعلام، وربما قيل فيها خمسة أقوال على عدد الصلوات الخمسة، أو ستة أقوال بكونها هي صلاة الجمعة . فقيل أنها صلاة الغداة لتوسطها بين صلاتي الليل، المغرب والعشاء وبين صلاتي النهار، الظهر والعصر، وباعتبار أنها تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، لقوله تعالى: ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾[2] فتكتب مرتين في ديوانين ، فلذا لم يزد عليه النبي (صلى الله عليه وآله) كما زاد على بقية الفرائض الركعتين الأخيرتين في غير المغرب والركعة الثالثة فيها فلو زيد عليها ولو ركعة واحدة ، وهي تكتب في ديوانين ، أي تكتب أربع ركعات لزاد الفرع، وهي الغداة المنسوبة للحسين(عليه السلام) على الأصل وهما الظهر والعصر المنسوبتان إلى النبي والوصي (عليهما السلام) ، وليس في باقي الفرائض ما تشهده الملائكتان غيرها ، فصلاة الغداة هي الوسطى بهذه الاعتبارات .

وقيل إن الوسطى هي الظهر لأنها أول صلاة شرعت ، وهي الصلاة التي صلاّها رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليلة المعراج ، وهي أفضل الفرائض ، كما في الأثر ، والوسط هو لب الشيء ، كالقلب وهو الأفضل ، وهي الوسطى بين صلاتي النهار ، صلاة الصبح وصلاة العصر .

وقيل أن الوسطى صلاة العصر باعتبار الأزمنة التي أولها الصبح

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٨ .

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٧٨ .

وآخرها العشاء كما في صحيح عبد الله بن سنان وغيره . وقيل إن الوسطى صلاة المغرب باعتقاد أنها وسط بين الصلاة الرباعية والثنائية بحسب عدد الركعات ، فإنها ثلاث لا أربع ولا اثنتان .

وقيل هي صلاة العشاء لشدة احترامها والتأكيد عليها في الأخبار ، حتى أن من نام عنها فعليه صوم غده كفارة ، وليس في الفرائض أن الغافل عنها عليه كفارة إلا العشاء .

وقيل إن الوسطى صلاة الجمعة للحث عليها في السنة والذكر الحكيم ووجوب الحضور لها على كل من في الرسخين غير ذوي للأعذار وعدم جواز التخلف عنها وعدم جواز السفر يوم الجمعة بعد بزوغ شمسها إلا بعد حضورها وإقامتها وغير ذلك من الأمور الدالة على أهميتها وشدة تعظيمها والاهتمام بها .

وأشهر الأقوال أن الوسطى صلاة الظهر أو العصر ، وهو المختار عندنا هذا في الظاهر .

وأما في التأويل والباطن فالصلاة عبارة عن ولاية الله التي مظهرها أمير المؤمنين (عليه السلام) كما هو منطوق الأخبار والتفاسير ، كما ورد عنهم (عليهم السلام) : « نحن الصلاة والزكاة »[1] وقال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[2] فالصبر كما في الخبر هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فإنه تحمل كلفة التبليغ وصبر على أذى قومه حتى

(١) البحار: ج٢٤ ص٣٠٣ ح١٤ .
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥ .

قال (صلى الله عليه وآله) : « ما أوذي نبي مثل ما أوذيت »[1] وذلك لأن الأذايا الواردة على عترته وذريّته (عليهم السلام) واردة عليه لأنهم (عليهم السلام) بضعته وأغصانه (صلى الله عليه وآله) ، بل الأذايا الواردة على الأنبياء والمرسلين واردة عليه أيضاً (صلى الله عليه وآله) لأنهم مخلوقون من نوره ومتصّلون به اتصال الشعاع بالشمس واتصال النور بالمنير .

والصلاة مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهي الكبيرة إلاّ على الخاشعين ، والخاشعين هم الشيعة المؤمنون ، وهم المعنيون في قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾[2] فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « قد أفلحوا بك وبولايتك يا أبا الحسن » وفي قوله سبحانه : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[3] فالصلاة هو سلام الله عليه والفحشاء والمنكر أعدائه ، كما في بعض الروايات نص على ذلك وفي بعض الروايات كلما في القرآن من ذكر الصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك ، فهو نحن ، وكلما في القرآن من الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر والأصنام والأزلام وغير ذلك فهي في أعدائنا ، وعلى هذا فقس .

وهذه الصلاة الظاهرية هي حدود ولايته ، فحفظها عبارة عن الإقرار بها لساناً وقلباً والاقتداء ظاهراً وباطناً قولاً وعملاً والدخول في كل ما يرضيه والتجنب عن كل ما لا يرضيه ، وحكاية أوصافه وأخلاقه

---

(١) كنز العمال : ج٣ ص١٣٠ ح٥٨١٧ ـ ٥٨١٨ .
(٢) سورة المؤمنون، الآيتين : ١ ـ ٢ .
(٣) سورة العنكبوت، الآية : ٤٥ .

في الأعضاء والقلب والجوارح والتبري من أعدائه في اللسان والجنان والأركان والتجنب عن أوصافهم وأخلاقهم السيئة وعن كل شر وسوء ومنكر لأنهم ، أي أعدائهم ، أصل كل شر وفرعه ومنشأه ومبتدأه ومنتهاه ، كما أن كل خير فمحمد وآله (عليهم السلام) أصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه ، فإياك أن تتصف بالخلق السيّىء وبالعمل الباطل فإن ذلك من فروع أعدائهم ورشحهم وهو خلاف التبري من أعدائهم وإنما هو تبري باللفظ لا عملاً بل هو موالاة لهم عملاً ، فالقيام الحقيقي بالصلاة ظاهرة وباطنة بجميع حدودها كما هي حتى بترك الأولى لا يتأتى من أحد إلا منهم (عليهم السلام) ، لأنها هي حدود ولايتهم ، وهم باطنها وأصلها ، فافهم ولا تنكر ما لا تعلم ، فلذا تقرأ في زياراتهم « أشهد أنكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة » وفي زيارة إمامنا الحسين (عليه السلام) : « أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة » وكل الأئمة (عليهم السلام) تقرأ في زياراتهم مثل ذلك ، وفي غيرهم لا يجد مثل ذلك في زيارته ، أياً ما كان من أولاد الأئمة (عليهم السلام) أو أولاد الأنبياء (عليهم السلام) أو الصلحاء والصديقين والشهداء والحواريين وإن كان أقرب الخلق إليهم (عليهم السلام) إلا أمثال القول : « العبد الصالح المطيع لله ولرسوله » والقول : « فنعم المجاهد المحامي والناصر أو المواسي » وغير ذلك من العبارات والكلمات التي تبين منزلته ورتبته وقربه من مولاه أو مواليه ، فإن وجد في زيارة بعض من هؤلاء ، مثل قوله : « أقمت الصلاة » كزيارة سلمان وزيارة حليمة بنت الإمام فإنما هي إقامة صلاة إضافية ثانوية لا حقيقية أولية مختصة بآل محمد (عليهم السلام)

فافهم .

إذا عرفت ذلك فلا بأس أن نشير إلى تأويل الفرائض الخمس على نحو الاختصار بما أشير إليه في الأخبار ، فنقول :

أما صلاة الظهر فهي في التأويل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، والعصر مولانا أمير المؤمنين ، وكانتا هما في الأصل ركعتين كبقية الفرائض ، فزاد (صلى الله عليه وآله) في الظهر الركعتين الأخيرتين كرامة لنفسه (صلى الله عليه وآله) ، وزاد في العصر أيضاً الركعتين الأخيرتين كرامة لأخيه ووصيه وابن عمه (عليه السلام) ، وصلاة المغرب في التأويل هي السيدة الزهراء ، فزاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيها كرامة لها ركعة واحدة ، لأنها أنثى ولها نصف حظ الذكر لكن جبرها أنها لا تقصر في السفر ، وفي الشك في ركعاتها تبطل الصلاة ، كالشك في الركعتين الأوليين فلا يجوز الشك فيها .

ويرجح أن المغرب هي الوسطى الذي أمرنا بحفظها أن الزهراء سلام الله عليها صارت هي الوسطى والقلب في حديث الكساء وعطف عليها أبوها وبعلها وبنوها ، وهي الأصل في آية القربى في قوله : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾**(1) فأمر الله تعالى بالمحافظة على مودتها كما أمر بإعطائها حقّها في قوله عز من قائل : **﴿ وآت ذا القربى حقّه ﴾**(2) فأعطاها فدكاً ، وهي البضعة الطاهرة التي أمرنا بحبها ومودتها ، ورضى الله في رضاها ، ومن أحبها فقد أحب

(1) سورة الشورى، الآية: ٢٣ .

(2) سورة الاسراء، الآية: ٢٦ .

الرسول الذي حبه حب الله تعالى ، ومن أبغضها وأذاها فقد أبغض النبي (صلى الله عليه وآله) وأذاه الذي بغضه وإيذائه بغض الله تعالى وإيذاؤه .

فطالما أوصى (صلى الله عليه وآله) بحفظها وإكرامها واحترامها سيما بعد غروب شمس النبوة ، وغروب الشمس أول وقت صلاة المغرب ووقتها مضيق يجب المبادرة إلى حفظها وأدائها ، فطابق الظاهر التأويل في الإشارة والتلويح بل الدليل على المسارعة إلى إكرامها والبدار إلى احترامها وتعظيمها وتبجيلها ، وأمة السوء نسوا جميع ذلك وأسرعوا إلى إضاعتها وظلمها وهتك حرمتها وأذيتها وغصبها حقها ، ونسوا الكلمة المعروفة « يحفظ المرء في ولده » وقاست أشد المصائب والمحن حتى قالت (سلام الله عليها) :

صبّت علي مصائب لو أنها　　صبّت على الأيام صرن لياليا

فتباً لهم وسحقاً وويلهم ، أما عرفوا أنها :

بنت من أم من حليلة من　　ويل لمن سن ظلمها وأذاها

وأما صلاة العشاء ففي التأويل هي سبط المصطفى ابن المرتضى أبو محمد الحسن المجتبى ، فلكرامته زاد النبي (صلى الله عليه وآله) ركعتين على صلاة العشاء ، وقد سبق قريباً التأكيد في حفظها واحترامها ، وقد تكرر من النبي (صلى الله عليه وآله) : « أيها الناس إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي »[1] ولما كانت صلاة العشاء عند تراكم ظلمة الليل وحندسه وذهاب الحمرة المغربية

---

(١) بصائر الدرجات: باب١٧ ص٤٣٣ .

وافق في التأويل زمان الحسن المجتبى ، فلقد صادف شدة ظلم بني أمية وغلبة غشمهم وطغيانهم وتراكم الظلمة تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾[1] وتحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾[2] حتى كان ما كان من طغيان جورهم الفاحش معه وغشيان ظلمهم نور النهار الحسن بن علي (عليهما السلام) بصلحه مع معاوية من إتمام الحكم وإكمال الحجة وحفظ دماء الشيعة وقلة الأعوان من المصالح الكثيرة ، فجرى ما جرى .

وأما صلاة الفجر ففي التأويل هي إمامنا الحسين (عليه السلام) المعنى في قوله تعالى : ﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾[3] أي مشهوداً لملائكتي الليل والنهار ، كما سبق ، وهو المعني في سورة الفجر : ﴿ **والفجر * وليال عشر** ﴾[4] كما في التفسير إن الفجر في الباطن هو الحسين (عليه السلام) وهذه السورة سورته ، وليال عشر ، من الحسن المجتبى إلى الحسن العسكري (عليهم السلام) ، كما في الأثر وصار فجراً ، لأن به (سلام الله عليه) ظهر الحق بعد ظلمة الليل دولة بني أمية ، وانقشع ظلام الباطل وتزلزل عرشه ، فقطع دابر الكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

قال (سلّمه الله تعالى) :

السؤال الثاني : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا**

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٤.
(٢) سورة الليل، الآية: ١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة الفجر، الآيتين: ١ ـ ٢.

يبغيان ﴾[1] .

الجواب : هذه الآية الشريفة في سورة الرحمن ونظيرها آية أخرى في سورة الفرقان ، **﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ـ سائغ شرابه ـ وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا ﴾**[2] فقال بعض أهل التفسير جعل بين البحرين ـ أي بين بحر العذب وبحر المالح ـ حاجزاً أي مانعاً من قدرته بين العذب والمالح ما لا يختلط أحدهما بالآخر ، وفي الآية الثانية هذا عذب فرات بليغ العذوبة وهذا ملح أجاج بليغ الملوحة ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ، أي ترك البحرين متجاورين متلاصقين بحر العذب الذي قبل ولاية أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) وأولاده (عليهم السلام) ، والمالح الذي جحد ولايتهم (عليهم السلام) .

أقول ولا قوة إلا بالله : نشير أولاً إلى بعض تفسير الظاهر ، ثم ثانياً إلى التأويل ، ثم ثالثاً إلى الباطن .

أما أولاً ، أي تفسير الظاهر ففيه أقوال :

قال بعضهم أنهما بحر فارس وبحر الروم فإن آخر طرف هذا يتصل بآخر طرف ذاك ، والبرزخ بينهما الجزائر ، وقيل يخرج من بينهما ، أي من ماء السماء ومن ماء البحر ، فإن القطر إذا نزل من السماء تفتحت الأصداف فكان من ذلك القطر اللؤلؤ ، وقيل أن العذب والملح يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح لا يخرج اللؤلؤ إلا من

(١) سورة الرحمن، الآيتين: ١٩ ـ ٢٠ .
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٣ .

الموضع الذي فيه العذب والملح ، وذلك معروف عند الغوّاصين .

وقال بعضهم أن المراد من البحرين بحر السماء وبحر الأرض ، فإن في السماء بحراً يمسكه الله بقدرته ، ينزل منه المطر فيلتقيان في كل سنة وبينهما حاجز يمنع بحر السماء من النزول وبحر الأرض من الصعود ، والذي يظهر من بعض الأخبار والتفاسير أن البحرين عبارة عن ماء شط العرب الذي يشق ماء بحر خليج فارس فيجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمهما ، قال في الصافي وفي الكافي عنهما (عليهما السلام) : « أن الله عرض ولايتنا على المياه فما قبل ولايتنا عذب وطاب وما جحد ولايتنا جعله الله مرّاً وملحاً أجاجاً ، ثم قال وجعل بينهما برزخاً ، أي حاجزاً من قدرته وحجراً محجوراً ، أي يتنافر بليغاً واحداً محدوداً ، وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمهما .

والآية الأخرى أيضاً مفسرة بهذا التفسير ، في (الصافي) قال : مرج البحرين أرسل البحر العذب والبحر المالح ، يلتقيان يتجاوران بينهما حاجز من قدرة الله لا يبغيان لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية ، يخرج منها اللؤلؤ والمرجان كبار الدر وصغاره (انتهى) .

وفي (المجمع) : **﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان ﴾**[1] ذكر سبحانه عظيم قدرته حيث خلق البحرين ، العذب والملح يلتقيان ثم لا يختلط أحدهما بالآخر ، وهو قوله بينهما برزخ ،

---

(١) سورة الرحمن، الآيتين: ١٩ ـ ٢٠.

أي حاجز من قدرة الله تعالى فلا يبغي المالح على العذب فيفسده ، ولا العذب على المالح فيفسده ويختلط به »[1] .

وفي (قرب الإسناد) عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه عن علي (عليه السلام) : ﴿ **يخرج منهما** ﴾[2] قال (عليه السلام) : « من ماء السماء ومن ماء البحر ، فإذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر ، فيقع فيها من ماء المطر فتخلق اللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة واللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة »[3] وهذا يوافق ما في (الصافي) . هذا في تفسير الظاهر . وأما الثاني ، أي الإشارة إلى التأويل ، أي البحران في العالم الإنساني وهو العالم الصغير هما بحر العقل وبحر النفس ، لأن العقل عذب سائغ شرابه ، والنفس ملح أجاج لأن العقل المنبعث عن الوجود من حيث هو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان ، والنفس الأمارة بالسوء المنبعثة عن الماهية بالعكس ، أي من حيث هي ما عصي به الرحمن وعبد به الشيطان واكتسب به النيران ، يلتقيان في جوهر وجود الإنسان ، ونفسك الواسطة بين وجودك وماهيتك ، فالأول ليس له إلا الإطاعة والانقياد ، والآخر لا يتأتى منه غير الاباق والشراد ، فإن شربت من الأول وصلت إلى أعلى عليين ، وإن اغترفت من الآخر نزلت إلى أسفل سافلين ، ﴿ **بينهما برزخ** ﴾[4] هو الروح المجرة عن لطافة العقل ونورانيته ، وعن كثافة النفس وظلمانيته ، ﴿ **لا**

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٩٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٣) تفسير الصافي: ج٥ ص١٠٩ نقلاً عن قرب الاسناد.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢٠.

يبغيان﴾[1] أي لا يتجاوز أحدهما عن حده ومقامه ، **﴿ يخرج منهما ﴾** أي من العقل الذي شأنه إدراك المعاني الكلية ، ومن النفس التي شأنها إدراك الصور الكلية ، و**﴿ اللؤلؤ ﴾**[2] لؤلؤ الحقائق والمعارف الإلهية الكلية ، **﴿ والمرجان ﴾**[3] أي النافعة من الأخلاق والآداب والشرائع والسنن النبوية المصطفوية والعلوم العلوية المرتضوية .

وإن شئت قلت كما قال بعضهم : مرج البحرين بحر الهيولي الجسمانية الذي هو الملح الأجاج وبحر الروح المجردة الذي هو العذب الفرات يلتقيان في وجود الإنسان ، بينهما برزخ هو النفس الحيوانية التي لا هي في صفاء الأرواح المجردة ولطافتها ولا في كدورة الأجساد الهيولائية وكثافتها ، لا يبغيان أي لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب الآخر بخاصيته ، فلا الروح تجرد البدن وتمتزج به أو تجعله من جنسه ولا البدن يجمد الروح ويجعلها مادية ، سبحانه خالق الخلق القادر على ما يشاء والفعال لما يشاء ، يخرج منهما بتركيبهما والتقائهما لؤلؤ العلوم الكلية ومرجان العلوم الجزئية .

هذا ويمكن التأويل بغير ذلك بحسب مبلغ علم المؤولين ودرجات فهمهم برعاية قواعد التأويل وحفظ طريقته مع مساعدة الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة له وعدم مخالفة التأويل للظاهر ، لا بما تشتهيه نفسه ويميل إليها فكره وهواه ، وكل تأويل أو باطن يخالف الظاهر فهو باطل يضرب به عرض الحائط .

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

وأما الثالث ، أي تفسيرها بالباطن فنقول ولا قوة إلا بالله : إن المراد بالبحرين مولانا أمير المؤمنين والسيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليهما وعلى أولادهما الطاهرين) ، والمراد بالبرزخ والحاجز هو الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ، والمراد باللؤلؤ والمرجان هما الفرقدان الإمامان سيدا شباب أهل الجنة ، الحسن والحسين (عليهما السلام) ، والتعبير عنهما بالبحرين لكثرة خيرهما وسعة فضلهما إذ البحر يسمى بحراً لسعته وكثرة ما فيه من المنافع والخير ، ومولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) وسع كل شيء علماً ، وهو الكرسي في الباطن في قوله سبحانه : ﴿ **وسع كرسيه السمٰوات والأرض** ﴾[1] كما أن أخاه النبي (صلى الله عليه وآله) هو العرش باطناً في أمثال قوله : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾[3] وإليه الإشارة في الحديث القدسي : « ما وسعني أرضي ولا سمائي بل وسعني قلب عبدي المؤمن » .

وكذا الزهراء (سلام الله عليها) واسع علمها كما في رواية عمار قائلة : « يا علي أو يا أبا الحسن ادن مني لأخبرك بما كان وما لم يكن إلى يوم القيامة » المروية في (البحار) و (صحيفة الأبرار) و (نور الأنوار) .

ويدل على هذا التفسير روايات وتفاسير كثيرة من العامة والخاصة ولنكتف بذكر ثلاث روايات من العامة وثلاث روايات من الخاصة حذراً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة طه، الآية: ٥.
(٣) سورة هود، الآية: ٧.

من التطويل الممل .

أما ما ورد من طريق العامة من مفسريهم قال الثعلبي في تفسير هذه الآية قال : « أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري قال : حدثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله قال : قرأ أبي على أبي محمد الحسين بن علوية القطان من كتابه وأنا أسمع حدثنا بعض أصحابنا حدثني رجل من أهل مصر يقال له طسم حدثنا أبو حذيفة عن أبيه عن سفيان الثوري في قول الله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾[1] قال فاطمة وعلي يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان قال الحسن والحسين قال الثعلبي : وروي هذا القول أيضاً عن سعيد بن جبير قال بينهما برزخ محمد[2] .

وما رواه المالكي في فصوله المهمة عن أنس بن مالك في قوله : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان** ﴾ قال : علي وفاطمة ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين[3] ، ورواه بعينه صاحب كتاب الدرر .

وما روي عن أبي معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي صالح عن ابن عباس أن فاطمة بكت للجوع والعرى ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) : اقنعي يا فاطمة بزوجك فوالله انه سيد في الدنيا وسيد في الآخرة وأصلح بينهما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **مرج البحرين** ﴾ يقول : أنا أرسلت البحرين ، علي بن أبي طالب بحر العلم وفاطمة بحر النبوة ﴿ **يلتقيان** ﴾ يتّصلان أنا الله أوقعت الوصلة بينهما ، ثم قال : ﴿ **بينهما**

---

(١) سورة الرحمن، الآيتين: ١٩ ـ ٢٠.
(٢) البرهان: ج٤ ص٢٦٦.
(٣) البرهان: ج٤ ص٢٦٦ (بالمعنى).

برزخ ﴾ مانع من رسول الله يمنع علي بن أبي طالب أن يحزن لأجل الدنيا ويمنع فاطمة أن تخاصم بعلها لأجل الدنيا ، يا معشر الجن والإنس تكذبان بولاية أمير المؤمنين وحب فاطمة الزهراء ، قال : اللؤلؤ الحسن والمرجان الحسين ، لأن اللؤلؤ الكبار والمرجان الصغار .

ولا غرو أن يكونا بحرين لسعة فضلهما وكثرة خيرهما ، فإن البحر إنما سمي بحراً لسعته ، وأجرى النبي (عليه السلام) فرساً ، فقال : وجدته بحراً .

هذا بعض ما روينا من طرق العامة في هذا المضمار ، وأما ما ورد من طرق الخاصة فكثير ، نذكر منها ثلاث روايات أيضاً .

منها ما رواه ابن بابويه القمي بإسناده عن الصادق (عليه السلام) ، يقول : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾[1] قال علي وفاطمة بحران من العلم عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾[2] الحسن والحسين (عليهما السلام)[3] .

ومنها ما رواه محمد بن العباس عن أحمد بن محمد عن محفوظ بن بشير عن عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان** ﴾ قال علي وفاطمة ﴿ **بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ قال : لا يبغي

---

(١) سورة الرحمن، الآيتين: ١٩ ـ ٢٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٤.

علي على فاطمة ولا تبغي فاطمة على علي ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ قال : الحسن والحسين (عليهما السلام) ، ونظيره أو قريب منه ما رواه جعفر بن سهل بإسناده إلى أبي سعيد .

ومنها ما رواه علي بن إبراهيم بإسناده إلى يحيى بن سعيد العطار ، قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول في قوله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان** ﴾[1] أمير المؤمنين وفاطمة (عليهما السلام) ، ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾[2] الحسن والحسين (عليهما السلام) ، إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الصريحة في ذلك يجدها المتفحص ، ولا نطيل الكلام بذكرها ولا بذكر الأسرار التي انطوت في التعبيرات بالبحر والمرج والبرزخ واللؤلؤ والمرجان[3] .

لكن هنا نكتة لا يخلو التنبيه عليها من حسن وفائدة ، وهي أنه لم فسِّر اللؤلؤ بالحسن (عليه السلام) والمرجان بالحسين (عليه السلام) ؟ وذلك لأن اللؤلؤ يتكون في البحر في صدف (محارة) وليس بشجرة في البحر كالمرجان ، فيفلق الصدف ويخرج منه اللؤلؤ ، والطيب منه يميل إلى الخضرة بخلاف المرجان ، فإنه شجرة حمراء في البحر نابتة في قعره يقطعها أو يقلعها الغواصون ، ولا تكون غالباً إلا في بحر عميق لا كما ذكره بعض المفسرين أنه لؤلؤة صغيرة .

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٩ .
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٢ .
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٤.

فحيث أن إمامنا أبا محمد الحسن (عليه السلام) منفرد في الإمامة ليس في أولاده إمام حتى يكون كالشجرة ، ولدى انتقاله إلى دار الآخرة تحول بدنه الشريف إلى الخضرة من تأثير السم ، كما أن قصره في الجنة أخضر لما تجلى فيه الركن الأيسر الأعلى من العرش الساطع بالنور الأخضر النفس الكلية الإلهية ، فلذا عبر عنه باللؤلؤ .

وأما إمامنا الحسين فهو (سلام الله عليه) كالشجرة ، لكون الأئمة التسعة (عليهم السلام) كلهم ذريته ومن نسله ، فهو كالشجرة ، وعند شهادته انقلب بدنه الشريف أحمراً من الدم المنشخب من جراحاته (عليه السلام) ، كما أن قصره في الجنة أحمر أيضاً لما تجلى فيه الركن الأسفل الساطع بالنور الأحمر ، الطبيعة الكلية ، تناسب أن يعبر عنه (عليه السلام) بالمرجان .

والبرزخ من كان جامعاً للطرفين وحاوياً للأمرين متمكناً على الجانبين ، فلذا عبر عن الرسول (صلى الله عليه وآله) بالبرزخ ، لحوايته على البحرين وحكومته ، بل ولايته عليهما ، صلى الله عليهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

السؤال الثالث :

قال (سلّمه الله تعالى وأبقاه) : السؤال الثالث لماذا سمي عيسى ابن مريم (عليه السلام) بالمسيح ؟

الجواب : إنما سمي عيسى على نبينا وآله وعليه السلام بالمسيح ، لأنه لما مسح الله على ظهر آدم (عليه السلام) وذريته باليد المبسوطة وبالقدرة المستطيلة وأخرج من ظهورهم ذريتهم بالمسح

المعبر عنه بالولادة المعنوية ، وكلفهم ثم أرجعهم إلى أصلاب آبائهم في صلب آدم (عليه السلام) بقي عيسى ابن مريم على المسح ولم يرجع إلى صلب أب فسمي بالمسيح لبقاء المسح عليه ولم يرتفع حكمه بالإرجاع ، كما ارتفع حكم سائر أولاد آدم (عليه السلام) بالرجوع إلى أصلاب آبائهم في صلبه .

السؤال الرابع :

قال (سلّمه الله تعالى) : السؤال الرابع ما تفسير هذه الآية الشريفة : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء** . . . ﴾[1] الخ ؟

الجواب : هذه الآية المباركة في سورة الحج ﴿ **وترى الأرض هامدة** ﴾ أي يابسة ﴿ **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾[2] اعلم أن الأرض في كل طبقة عبارة عن القابل ، ففي بعض تعبر بالهامدة ، كما في هذه الآية ، وفي بعضها تعبر بالميتة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فسقناه إلى بلد ميت** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾[4] والماء عبارة عن المقبول ، وبعبارة أخرى يكنى بالماء عن المادة وبالأرض عن الصورة ، وإن شئت قلت أب وأم أو زوج وزوجة ، والكل معنى واحد ، أما تفسير ظاهرها فواضح ظاهر .

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

وأما باطنها فقد يراد بالأرض عالم الإمكان الحقيقة المحمدية حواء الأولى ، وبالماء المشيئة الإلهية آدم الأول ، فبنزول هذا الماء الأولى على هذه الأرض المباركة . وبعبارة أخرى بنكاح آدم الأول حواءه الأولى تتحرك وتهتز بالإنبات والإيجاد وتنبت بوجود المكونات من الدرة إلى الذرة من كل زوج بهيج ، أولها العقل ، أول من ذاق باكورة الوجود ، كما قال الإمام العسكري (سلام الله عليه) : « روح القدس في الجنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة »، وبعبارة أخرى بمس نار المشيئة زيت عالم الإمكان يوجد المصباح ، وهو العقل الكلي الذي أمر بالإدبار وبإدباره تشعشع ، فوجدت العوالم بسلاسلها الطولية والسلاسل العرضية ، كما قرر في محله .

وقد يراد بالأرض أرض الولاية الكلية وبالسماء سماؤها اللذان كل منهما كفؤ الآخر ، وبوجودهما يوجد النبات ، فلولا الأرض لا يوجد ولا يظهر النبات ، ولولا السماء لا يخلق النبات ، بل تكون الأرض هامدة ، فبالأمرين الجليلين وباتصالهما وارتباطهما وجدت القرى المباركة ، فتكون أرض الولاية أم القرى ، كما في حديث الكساء هي فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها ، هذا في الظاهر .

وأما في الحقيقة وواقع الأمر فجميع ما في الوجود غير الجبال المنصوبة في قوله تعالى : ﴿ **وإلى الجبال كيف نصبت** ﴾[1] كلها على طبقاتها ، خلقت من فاضل نور جسدها ، فكما أن الأراضي الظاهرية كلها دحيت من تحت مكة شرّفها الله تعالى كذلك الموجودات كلها

(١) سورة الغاشية، الآية: ١٩ .

وجدت وانتشرت من شعاع أرض الولاية المطلقة ، كما أشير إلى ذلك في عدة أخبار .

ويكشف عن ذلك سطوع الأنوار الثلاثة ، النور الأبيض والأصفر والأحمر ، من وجهها أو جبينها لدى توجّهها إلى معبودها ، وهذه الأنوار أنوار حملة العرش هي حاملة لها ، لكن لا تظهر إلا عند توجهها إلى بارئها ، لبيان أنها مظهرة فيض العرش المعنوي على الإطلاق ومنتشرة أنواع العلوم والحكمة في الآفاق ، كما في رواية سلمان عن عمار المروية في (البحار) و (صحيفة الأبرار) و (نور الأنوار) أنه لما ولج علي (عليه السلام) عليها وأبصرت به نادت يا علي ادن مني لأحدثك بما كان وبما هو كائن وبما لم يكن إلى يوم القيامة حتى تقوم الساعة ، إلى آخر الحديث ، فافهم ولا تسترب ، فإن نورها (سلام الله عليها) من نورهم ونور أبيها (صلى الله عليهم أجمعين) ، ونوره من نور الله ، ونور الله كامل من جميع الجهات ، لا يحوم حوله أي نقص وظلمة ودنس من أي قسم كان ، لا يشك في ذلك إنسان له عينان .

السؤال الخامس :

قال وفّقه الله لمرضاته :

السؤال الخامس : تفسير قوله تعالى : ﴿ **الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان** ﴾[1] وعن بيان سبق العلم على خلق الإنسان ودمتم .

الجواب : الظاهر أن سؤاله عن نكتة تقدم (علم القرآن) على

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١ ـ ٣.

(خلق الإنسان) لا تفسير جميع الآية الشريفة ، فنقول أن له بيانين : قشري ظاهري ولبي باطني .

أما الأول فيقال أن القرآن حيث أنه أشرف من الإنسان قدمه عليه لشرفه ، ولتقدمه أيضاً في الوجود والتكوين ، لأنه آية النبي (صلى الله عليه وآله) ، والنبي مقدم وجوداً وكوناً ، لقوله (صلى الله عليه وآله) : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[1] ولما كان نبينا قبل آدم (عليه السلام) فآيته وقرآنه كان معه ، لأن النبي لا يفارق آيته ، فهو سابق على آدم وعلى الإنسان ، لسبق النبي (صلى الله عليه وآله) .

وأما الثاني فإن أول ما خلق الله تعالى في الوجود المقيد في أول الدهر هو العقل الكلي ، وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش الأعلى والقرآن وجد معه ، لأن هذا العقل افترق إلى أمرين ، لفظ ومعنى على التساوق ، كل منهما مبني على صاحبه ، فاللفظ قرآن والمعنى عقل ، وإن شئت قلت : القرآن عقل والعقل قرآن ، فالقرآن حقيقة عقل بكسوة الألفاظ ، فهما قرينان . وخلق الروح والنفس بعد العقل ومن تنزلاته تنزل اللب في القشر ، فباجتماع الجميع ، أي العقل والروح والنفس ، يكون إنساناً باطنياً ، وبتنزله إلى عالم الطبيعة وعالم المواد والمثال والجسم يكون إنساناً ظاهرياً أيضاً .

فالإنسان الباطني الحاصل من اجتماع العقل والروح والنفس متأخر عن القرآن والعقل فضلاً عن الإنسان الظاهري الحاصل بالتنزل

(١) انظر كنز العمال: ج١١ ص٤٥٠ ح٣٢١١٥ ـ ٣٢١١٧.

إلى عالم الأجسام ، فلذا قدم القرآن ذكراً على الإنسان لتقدمه عليه وجوداً .

والدليل على أن القرآن هو العقل قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء . . .** ﴾[1] الخ ، فإن ضمير جعلناه يعود إلى القرآن ولم يسبق له ذكر إلا الروح ، والروح ملك من أمر الله وهو العقل الكلي روح القدس ، فلولا أن القرآن هو الروح ، والروح هو القرآن ويطلق كل منهما على الآخر لما صح عود الضمير إليه ، ولم يكن للضمير مرجع لولاه ، فافهم .

وقد سبق منّا نظير هذا الكلام في جوابنا لسؤال جناب عبد المحسن بن عبد الوهاب القطان الأحسائي (سلمه الله تعالى) في أن القرآن قديم أو حادث . هذا وغير بعيد في التأويل أن لا يكون لفظ (علم) مشتقاً من العلم والتعليم ، بل يكون اشتقاقه من علم (بفتح العين واللام من غير تشديد على وزن حسن وقرن وصمد) فيكون معنى (علم القرآن) أي جعل القرآن علماً ، ثم خلق الإنسان من قوله في الزيارة : « وأعلاماً في بلاده » لأن الله تعالى من لطفه ومنّه وفضله ورحمته يقدم وجود الحجة وخلقه على المحجوج لئلا يخلو المحجوج آناً ما من حجة ، كما خلق آدم (عليه السلام) وهو نبي قبل المحجوجين حواء وذريته .

ويمكن بعيداً أن يراد بالقرآن كتاب الله الناطق ، أي خلق الولي

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

المطلق وجعله علماً على الإنسان .

والله تعالى والوارثون للكتاب المصطفون والذين في بيتهم نزل الكتاب أعلم بالحقائق والظاهر والباطن وعندهم فصل الخطاب .

والحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الأطياب ما دامت السمٰوات ذات أبراج وأبواب .

هذه آخر مسائله (سلمه الله وأبقاه) قد فرغت من تحريرها في شهر رجب من شهور سنة الألف والثلاثمائة والست والسبعين حامداً مصلّياً مستغفراً .

الرسالة العاشرة

مسائل عشر من ملا علي الشيخ إبراهيم الإسماعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه ومظهر لطفه محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين المعصومين ولعنة الله على أعدائهم ومخالفيهم أجمعين .

وبعد ، فقد أتتني من ناحية البصرة أسئلة عشرة ، والسائل هو نور البصر الفاضل الشاب الألمعي الملا علي ابن المرحوم الشيخ إبراهيم آل إسماعيل (سلّمه الله تعالى) يريد جوابها على نحو العجلة .

وإني كنت في حال يعسر مني الجواب لبعض الابتلاءات ، لكن الجواب مختصراً بما يكتفى به ويصح السكوت عليه عاجلاً ، خير من تأخيره وتأجيله إلى وقت الفراغ وسعة المجال . والله هو المستعان وعليه التكلان .

قال (سلّمه الله تعالى) :

« رجل عقد على بنت باكر عقد نظر صحيح شرعي بمهر معلوم معجل ومؤجل لمدة سنة كاملة على أن تبقى هذه المدة لأجل خدمته ،

وفي ضمن هذه المدة خرجت من بيته بدون إذن الزوج ثم تزوجت قبل خلاص مدة العقد ، أفهل للرجل حق فيها ؟ وما جوابكم بعقد زوجها الثاني الدائم ؟ وهل لها حق في ذمة الذي عقد عليها النظر في المهر المؤجل ؟ افتونا مأجورين » .

الجواب : إن البنت المعقود عليها بالعقد المنقطع ليس لها قبل انقضاء مدة العقد أن تتزوج من آخر ، لأنها ذات بعل ، وإن كان العقد منقطعاً ، فتزوجها من آخر حرام وزنا ، دواماً كان الزواج الثاني أم منقطعاً أيضاً ، وتكون حينئذ حراماً على الرجل الثاني حراماً مؤبداً ، لا يجوز لها أن تتزوج من هذا الثاني أبداً حتى إن خرجت بعد عن مدة الزوج الأول ، وتستحق الأجرة المؤجلة من الزوج الأول ، اللهم إن كان المهر أي الأجرة موزعة على الشهور لا على المجموع بأن جرى العقد المنقطع هكذا ، كأن يقول وكيل الزوجة :

« متّعت موكلتي فلانة من موكلي فلان من هذه الساعة إلى انقضاء مدة سنة كاملة هلالية بمهر معجل ستة دنانير ومؤجل ستة دنانير لكل شهر دينار واحد أجرة » ويقول الزوج : « قبلت التمتع هكذا » أو يقول وكيله : « قبلت لموكلي هكذا » فحينئذ ما تستحق من الأجرة إلا بحسب الأشهر التي كانت عنده ، وتنقص من الأجرة بحسب تمردها وخروجها عن زوجها من الأشهر . هذا إن كانت الأجرة موزعة على الشهور في العقد .

وأما إن كانت الأجرة غير موزعة عليها ، بل كانت جملة على مجموع السنة استحقت كل الأجرة ، كأن يقول وكيلها : « متّعت

موكلتي فلانة من موكلي فلان من هذه الساعة إلى انقضاء مدة سنة كاملة هلالية بأجرة اثني عشر ديناراً ستة معجلة وستة مؤجلة » فلا يسقط من أجرتها شيء على الأقوى .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة الثانية : « ما جواب مولانا في رجل نذر لله تعالى نذراً شرعياً وقال : إن رزقني الله فلانة ، وسماها باسمها ، وتزوجتها فإني أواقعها في كل يوم جمعة وأغتسل وأصلي صلاة الجمعة ، فرزقه الله تعالى حسب إرادته ومقصوده فتزوجها ، فلما دخل عليها وأراد أن يفي بنذره وإذا هي الزوجة قائلة : إني قد نذرت لله نذراً حتى ما رزقني الله إياك أن أصوم في كل يوم جمعة ، فما رأيكم في ذلك ؟ افتونا مأجورين ، شكر الله سعيكم » .

الجواب : إن مسألة نذر الطرفين لها صور ، ولكل صورة حكم ، لكن هذه الصورة بعينها بحيث أن الرجل ينذر بما ذكر ليوفق لزواج تلك المرأة المعلومة ، وهي أيضاً تنذر بذلك لتوفق لزواجه ، حكمها أن نذر المرأة المذكورة بهذا الوجه لا ينعقد ونذرها يقع باطلاً .

أولاً : أن المنذور ينبغي شرعاً أن يكون راجحاً ، فإن لم يكن راجحاً لا ينعقد أبداً ونذرها بهذا الوجه المذكور لا رجحان فيه شرعاً ، فلا ينعقد .

وثانياً : أن المنذور وهو الصيام يوم الجمعة يخالف المنذور له وهو الزواج لأن معنى الزواج أن تكون هي مملوكة المنافع للزوج دائماً من طرف البضع والجماع ، ونذر صوم يوم الجمعة يخالف هذا المعنى

وينافيه ، حيث تجعل نفسها غير مملوكة المنافع ، أي منفعة الجماع في هذا اليوم ، وليس لها شرعاً ذلك ، فيقع نذرها باطلاً ويكون نذر الزوج هو الصحيح الماضي الشرعي .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة الثالثة : « ما جواب مولانا في رجل تزوج بأربع نساء بالعقد الدائم ، ثم طلّق إحداهن طلاقاً رجعياً ، وقبل خلاص المرأة من العدة تزوّج امرأة رابعة بالعقد الدائم ، فما رأيكم في هذا العقد ؟ افتونا لا زلتم موفقين » .

الجواب : إن المطلقة رجعياً زوجة إلى آخر ساعة خروجها من العدة متى ما أراد رجع إليها بلا عقد ، وهو يرثها إن ماتت وترثه هي إن مات المطلق . وله أن يغسلها غسل الأموات إن ماتت . وكذا لها أن تغسله غسل الأموات إن مات ، فلا يحل له أن يتزوج الخامسة إلا بعد خروج هذه المطلقة من العدة ، فإن تزوج بالخامسة فعل حراماً ، وهي حرام عليه ، لأنها خامسة بالعقد الدائم ، فيكون وطيها زنا وسفاحاً . نعم له أن يتزوج بالعقد المنقطع ما شاء ، وكذا بملك اليمين ما شاء لا بالعقد الدائم .

قال (وفّقه الله تعالى) :

المسألة الرابعة : « ما يقول مولانا في رجل مطلوب بقضاء يوم من شهر رمضان وتماهل في ذلك ولم يصم القضاء إلا يوم الشك الذي هو آخر شعبان ويحتمل أن يكون أول شهر رمضان فصام ذلك اليوم ناوياً عما في ذمته ، وفي النصف من شهر رمضان ظهر أنه من شهر رمضان ؟

افتونا أيّدكم الله تعالى » .

الجواب : إن ثبت شرعاً أن يوم الشك كان من شهر رمضان فصوم ذلك اليوم بنية القضاء لا يقع عمّا في ذمته على الأحوط ، لأن الزمان لا يصلح للقضاء ولا يقع عن شهر رمضان ، لأنه ما نوى ذلك ، كيف لا والأعمال بالنيات ، فيكون ذلك الصوم لا يحسب له بشيء لا عمّا في ذمّته ولا عن شهر رمضان الحاضر ، فوجب عليه حينئذ صوم يومين صوم قضاء شهر رمضان العام مع الفداء بمد ، وصوم قضاء يوم من شهر رمضان هذا الحاضر .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة الخامسة : « ما يقول مولانا في رجل ظاهر زوجته ولا يتمكن على أداء شيء من الكفارات ، وظهر أنها حبلى ، فهل يجوز لها أن تتزوج بشخص آخر بعد أن تضع الحمل ؟ أفتونا مأجورين ؟ »

الجواب : إن الظهار إن كان واقعاً بالشروط المقررة في الشرع بأن أوقع الظهار بقول : « ظهرك علي كظهر أمي » وكان المظاهر كبيراً غير صغير عاقلاً غير مجنون ولا سكران ولا مغمى عليه قاصداً للظهار غير ممازح ولا هازل ومختاراً غير مكره على الظهار وغير غضبان غضبا يذهب اختياره ، وكانت الزوجة في حالة طهر غير الموافقة إن كان الزوج حاضراً في البلاد غير مسافر ، وأوقع الظهار في حضور عدلين ، كشروط الطلاق كان الظهار صحيحاً واقعاً أي حرام عليه حينئذ وطيها ، فعليه أن يكفر حتى تحل له ، وإن لم يكفر إلى أربعة أشهَر فللحاكم الشرعي أن يجبره على أحد الأمرين : أما التكفير حتى تحل له أو

الطلاق حتى تعتد ، وبعد انقضاء العدة تتزوج ممن شاءت ولا يحل لها أن تتزوج من شخص آخر إلا بالطلاق ، أي طلاق المظاهر وانقضاء العدة .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة السادسة : « ما جواب مولانا في من يحج بدراهم (يانصيب إنشاء المستشفيات) الذي اضطربت فيه الأقوال وأصبح اليوم متعارفاً على اختلاف أنواعه ؟ وهل هذا مشروع خيري أولاً ، علاوة على ذلك اشترى بقسم من المبلغ دار سكنى وأخذ يعامل بالبقية ، فما رأيكم فيه ؟ افتونا أيّدكم الله تعالى » .

الجواب : إن هذا يعد ظاهراً من أقسام القمار المحرمة شرعاً كتاباً وسنة وداخل في عنوان الأزلام في قوله (عزَّ وجلَّ) : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾[1] وجميع أقسام المعاملات المترتبة على ذلك حرام سحت ، ودار سكنى إن شريت من دراهم هذا العمل (يانصيب) فسكناها حرام والأعمال الشرعية فيها باطلة من الوضوء والغسل والصلاة وغيرها وكل التقلبات فيها حرام ، ومن حل بيده مثل هذا النقد وصار في قبضته يكون حكمه حكم مجهول المالك ، ووجب تسليمه إلى الحاكم الشرعي الحق الجامع لشرائط الاجتهاد والفتوى ، ولا يتصرف فيه إلا بنظر الحاكم الشرعي المذكور .

قال (وفّقه الله لمرضاته) :

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

المسألة السابعة : « ما جواب مولانا في الصدف المستخرج من محار البحر والصلاة فيه ؟» .

الجواب : الظاهر أنه لا بأس به وفي اتخاذه أزراراً ، والصلاة فيه جائزة إن شاء الله تعالى .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة الثامنة : « ما جواب مولانا في الكشمش المتعارف مع الخليط أو بنفسه إذا غلي بالدهن . . . الخ ؟» .

الجواب : فيه أقوال ثلاثة ، الأول أنه حرام نجس ، الثاني أنه حلال طاهر ، الثالث أنه حرام طاهر ، وهو الأظهر المختار عندي ، أعني إذا غلي الكشمش إما منفرداً أو في خليط في ماء أو دهن ولم يذهب ثلثاه يكون حراماً لا يؤكل ، لكنه طاهر غير نجس ولا ينجس ما باشره ولا من باشره ، بل يُنحي نفس الكشمش ويُؤكل الكباب أو اللحم أو الأرز أو غير ذلك مما صحب ذلك الكشمش الذي غلي ولم يذهب ثلثاه ، والاحتياط معلوم لمن سلكه .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة التاسعة : « في الثلج إذا أخذ من مشرك ، مثل المسيحي أو اليهودي ووضع على الميت بعد تغسيله أو أخذ للاستعمال إلى غير ذلك » .

الجواب : إن علم مباشرة المشرك أو الكافر لهذا الثلج المستعمل أو علم مباشرته لآلات الثلج وأوانيه بالرطوبة ، أو مباشرته لمائه الذي

يصب في أواني التثليج ، فيحكم هذا الثلج بالنجاسة ولا يجوز استعماله في الميت أو الشرب بالملاقاة والمباشرة ، فإن استعمل وجب تطهير المستعمل فيه ميتاً كان أو غيره .

قال (سلّمه الله تعالى) :

المسألة العاشرة : « ما جواب مولانا في شاب كان مسلماً ومتزوج مسلمة ، وقد ثبت بأنه معتنق ديناً غير دين الإسلام ، فهل ينفسخ العقد أولاً ؟ افتونا شكر الله تعالى مساعيكم ؟» .

الجواب : إن كان مراد السائل أنه بعد ما تزوج انكشف وعلم أنه ما كان مسلماً من أول الأمر بل كان مبطناً غير دين الإسلام ومظهر الإسلام تزويراً وتدليساً ، أو غير مظهراً لكن عند الناس أنه مسلم ، فمثل هذا يكون عقد المسلمة له باطلاً ، وبانكشاف الحال أنه غير مسلم تبان عنه الزوجة المسلمة ولا يحتاج إلى الفسخ ، لأن النكاح غير منعقد لمثل هذا الرجل حتى ينفسخ ، والفسخ فرع الانعقاد ، وإن كان مراده أن الرجل كان مسلماً أولاً وبعد الازدواج اعتنق غير دين الإسلام ، فجوابه أن مثل هذا الرجل يسمى مرتداً ، والمرتد على قسمين :

الأول : المرتد الفطري بمعنى أنه في انعقاد نطفته في رحم أمه كان أحد أبويه مسلماً أو كلاهما كانا مسلمين ، فهذا محكوم شرعاً بالإسلام ، فإن ارتد مثله كان مرتداً فطرياً ووجب قتله بين ارتداده ولا يقبل له توبة ومن حين ارتداده تبان عنه زوجته المسلمة وتعتد عدة الوفاة وتتزوج .

والقسم الثاني المرتد الملي ، وهو أن أبويه في انعقاد نطفته كانا

كافرين ولم يكن واحداً منهما مسلماً ، فمثل هذا إن كان مسلماً فارتد سمي مرتداً ملياً فلا يجب قتله في أول مرة وتعتد زوجته عدة الطلاق ، فإن رجع إلى الإسلام في أيام العدة فهو أولى بزوجته ، وإن لم يرجع إلى الإسلام إلى أن خرجت من العدة فلا تحل له أن أسلم بعد إلا بالعقد الجديد .

هذا آخر مسائله (سلّمه الله تعالى) ، وقد حررت جواباتها وأنا متبلبل البال مختلف الحال حامداً مصلياً مستغفراً وأنا الأحقر الفاني علي بن موسى الحائري .

٢٩ ذي القعدة ١٣٧١ هـ

الفهرس

المقدمة ٥
ترجمة حياة المؤلف ٧
(١) مدخل الى حياة المؤلف ٩
(٢) مرحلة الدراسة الابتدائية والسطوح ١٢
(٣) مرحلة دروس الخارج في النجف ١٩
(٤) انشغاله بتبعات الحياة والمرجعية والأسفار ٢٩
(٥) تصنيفاته المنشورة ٣٢
(٦) انجازاته في أسفاره ٣٩
(٧) صفاته البدنية والنفسية وأحواله ٤٥
(٨) وفاته وتشييعه ودفنه ٤٩
تعريف بشيوخ المؤلف وممن يروي عنهم ٥٣
الرسالة الأولى: في دليل حرمة بعض الحيوانات وحلية بعضها الآخر ٦٣
الرسالة الثانية: في شرح قول الامام «وفيك انطوى العالم الأكبر» ٧٥
الرسالة الثالثة: في تفسير قوله تعالى ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾ ٩١
الرسالة الرابعة: في تفسير قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الروح . .﴾ الخ ١٠٧
الرسالة الخامسة: في الإجابة عن مسائل متنوعة ١٣٧
المسألة الأولى: ١٤١
المسألة الثانية: ١٥٥
المسألة الثالثة: شرح آية النور ١٦١
المسألة الرابعة: ٢٠٩
الرسالة السادسة: في مسائل متفرقة وردت من الشيخ فرج القطيفي ٢٣١
الرسالة السابعة: أجوبة على أسئلة عبد المحسن القطان ٢٤٥
الرسالة الثامنة: أجوبة على مسائل خمسة جاءت من عبد المحسن القطان ٢٧١
الرسالة التاسعة: مسائل مهمة في التفسير وغيره ٢٨٣
الرسالة العاشرة: مسائل عشر من ملا علي الشيخ ابراهيم الإسماعيل ٣٠٩